

دوستويفسكي

الإخوة كارامازوف

الجزء الأول

ترجمة: سامي الدروبي

لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع وَرَثَة المترجم الأستاذ سامي
الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

دوستويفسكي

الأخوة كارامازوف

1

ترجمة: سامي الدروبي



الكتاب: **الإخوة كارامازوف 1 (رواية)**

المؤلف: **دوستويفسكي**

المترجم: **سامي الدروبي**

الطبعة الأولى: 2010

ISBN 978-9953-68-467-7

الناشر: **المركز الثقافي العربي**

بيروت والدار البيضاء

بيروت ـــ لبنان

ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01352826 ـ 01750507

فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ـــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 شارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 522303339 ـ 522307651

فاكس: 2305726 522 212+

www.ccaedition.com cca@ccaedition.com Email: markaz@wanadoo.net.ma

مقدمة

بقلم: يوري سليزنيوف

إبداع دوستويفسكي هو ظاهرة تاريخية من ظواهر الوجود الروحي للبشرية.. ظاهرة تهز الوجدان دائماً حينما تلتقي بها. لقد راود الكثيرين من قراء دوستويفسكي إحساس بأن ما تقع عليه أنظارهم ليس مجرد رواية، ليس مجرد مؤلف حتى ولو كان لأديب عبقري، بل هو ظاهرة تاريخية حقاً تقلب الوعي رأساً على عقب وتترك أثراً لا يمحى في نفس الإنسان.

والموقف من دوستويفسكي لا يعرف الوسطية.. فدوستويفسكي إما محبوب وأما ممقوت، إما يتقبلونه كليةً، وإما يرفضونه رفضاً قاطعاً.. وفي جميع الأحوال لا يستطيع أحد أن يقف منه موقف اللامبالاة. لقد كتب زعيم المصورين الروس الطليعيين إيفان كرامسكوي، مبدع اللوحة المشهورة «المسيح في الصحراء»: «لعب دوستويفسكي دوراً هائلاً في حياة كل من كانت الحياة بالنسبة له مأساة وليس عيداً (حسبما أعتقد). فبعد «الإخوة كارامازوف» (وأثناء قراءتها) تلفتّ حولي عدة مرات في رعب ودهشة من أن كل شيء يمضي كما كان في السابق، وأن العالم لم ينقلب رأساً على عقب.

... وباختصار كان ذلك شيئاً بلغ تلك الدرجة من النبوءة

والاشتعال والوحي، حتى بدا من المستحيل معه أن نبقى في الموضع الذي كنا فيه بالأمس وأن نحمل نفس المشاعر التي كنا نكنّها من قبل... لقد كان دوستويفسكي بالفعل ضميرنا الوطني».

ولم يغيّر الزمن، بل الأقرب إلى الصواب أنه دعَّم مثل هذا الموقف من تراث الأديب لا في الوعي الروسي وحده. فقد كتب الأديب النمسوي ستيفان زفايغ (1881 - 1942): «إن دوستويفسكي بالنسبة لنا اليوم أكثر من فنان، إنه مفهومٌ روحيّ سيكون عُرضة للتفسير والإدراك المرة تلو المرة. فصورة هذا الكاتب الروسي تتغلغل اليوم بنورها في جميع مجالات الحياة الروحية». ويمكن إيراد الكثير من أمثال هذه الاعترافات.

ويبدو أنه بقدر ما يوجد قراء توجد تصورات «للدوستويفسكي الحقيقي». وبقدر ما توجد دراسات توجد تفسيرات مختلفة، ومتعارضة بشدة أحياناً، لروح ومغزى رواياته التي كانت نوعاً من النبوءات والرؤى.

بيد أنه مهما اختلفت تقديرات إبداع دوستويفسكي، ومهما جرى التأكيد أو النفي الحار لدروسه فإن المفاهيم التالية تتخلل معظم الآراء سواء بطريقة مباشرة أم مستترة: المفكر، المتنبئ، المعلم، الواعظ... إلخ. والأمر الغريب أن مفهوم الفنان هو الأقل تردداً بينها. وكأنما نحن لسنا أمام كاتب عظيم، مؤلف روايات عالمية الشهرة بقدر ما نحن أمام واعظ ديني أو سياسي، صاحب نبوءات ورؤى القرن التاسع عشر، التي اكتست بمسوح المؤلفات الفنية.

على أن دوستويفسكي كان يعتبر نفسه على الدوام كاتباً، فناناً واقعياً. وإن كان لا بد أن نقول إن مفهوم الكلمة - النبوءة (ليس بالمعنى الغيبي على الإطلاق) كان مميِّزاً لإدراكه الذاتي إلى حد كبير.

«الكلمة، الكلمة عمل عظيم»... هكذا كان يحلو لدوستويفسكي أن يردد. فكم مرة بُعِثَت الكلمة البشرية. «هل تدرون - يسأل دوستويفسكي - أي قوة يبلغ «الإنسان الواحد»: رفائيل، شكسبير، أفلاطون؟.. إنه يبقى ألف سنة ويبعث العالم...».

وحين راح دوستويفسكي يستوعب خبرة الأدب الوطني والعالمي في شخص أولئك الكتّاب الأنبياء - كما سمّاهم، الذين جاءوا إلى العالم بكلمتهم الجديدة، ليعطوا له «تنظيماً للحياة الروحية والدنيوية» فقد كشف أمام الإبداع الفني إمكانيات جديدة وشق الطرق نحو وعي جديد بالذات، ونقل الأدب إلى مستوى نوعي جديد. وطوال حياته الواعية ظل دوستويفسكي مهتماً بالكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)، وفي سنوات عمره الناضج اهتم بالقرآن ثم بالكتب المقدسة للبوذية وغيرها. ولو اعتبرنا هذا الاهتمام اهتماماً دينياً محضاً لكان ذلك من غير الإنصاف مثلما لو نفينا عنه هذه الصفة. فمن المعروف أن دوستويفسكي لم يربط بحثه الديني وشكوكه وقناعاته في مجال الدين سوى بالمسيحية. لكنه كان يبحث في جميع الكتب الدينية لنفسه كفنان عن سر ذلك التأثير الذي مارسته الكلمة على العديد من الأجيال لكي يضفي على الأدب هذه القوة.

إن النظرة إلى الكلمة باعتبارها فعلاً تكمن في أساس جميع روايات دوستويفسكي التي تمثل مواعظ ملتهبة العاطفة لفنان مفكر. وقد أدرك دوستويفسكي مذهبه الواقعي باعتباره «واقعية نبوئية» وسماه «الواقعية بأسمى معانيها».

والقضية بالطبع ليست قضية بعض التنبؤات التي أوردها الكاتب بهذه الدرجة من الوضوح أو تلك. فبوسعنا نحن أبناء السنين الأخيرة من القرن العشرين أن نتذكر الكثير من الأمراض الاجتماعية والخلقية

والذهنية التي تراءت له، و «تلك القرحة العالمية الرهيبة التي لم يسمع بها أحد ولم يسبق لها مثيل» - من غرف الغاز حتى هيروشيما، وتلك «المخلوقات الدنيا» التي أودت بحياة عشرات الملايين من البشر خلال القرن الذي انقضى منذ وفاة الكاتب، ومحت من على وجه الأرض آلاف المدن، وما زالت مستعدة لارتكاب المزيد من أعمال الجنون الأرهب مما في سفر الرؤيا. ثم ألا تواجه البشرية اليوم، أكثر من أي وقت مضى، وبكل جلاء مشكلة الاختيار بين «دمعة الطفل الوحيدة» وبين «الانسجام العالمي القادم» كله.. تلك المشكلة التي تناولها دوستويفسكي في «الإخوة كارامازوف» بهذه الدرجة من التنبؤ؟

ولكننا، وأكرر، لا نتحدث الآن عن المحتوى الحقيقي «لنبوءات» الكاتب، بل عن النبوءة كمنهج إبداعي واعٍ لدى الفنان. إن الكتابة الفكرية لا تعني لدى دوستويفسكي التفكير في اليوم الراهن بملامحه المحددة بل أيضاً كيف أصبح الماضي جزءاً من اليوم الراهن، وكيف يمكن لليوم الحاضر «أن يهدد المستقبل».

إن دوستويفسكي كمفكر وكفنان متجه بكل كيانه إلى المستقبل. وهو يرى أن «الواقع كله لا يمكن أن يستوعبه الحاضر، لأن جزءاً كبيراً من هذا الواقع متضمن فيه في صورة كلمة دفينة مستقبلية لم تُقَلْ بعد». ولا داعي لأن تكون نبياً لكي تصبح متنبئاً عندما ترى مثلاً الفوضى والازدواجية وعالم الهوات والدروب المسدودة والعنف والجنون: «فوضى!»، «جنون!»، «هوات!». كلا.. إن دوستويفسكي ليس «نبياً» من هذا النوع. يقول الكاتب: تنشأ من جديد على أسس جديدة حقاً. فمن ذا الذي سيلحظها ومن ذا الذي سيشير إليها؟ من ذا الذي يستطيع ولو بقدر ضئيل أن يحدد، ويعبر

عن، قوانين هذا الانحلال وهذا الخلق الجديد؟».

ثمة من قال إن الكاتب كشخصية مبدعة «يموت» في كلمته. بيد أن هذا «الموت» ينطوي على الأساس الوحيد لخلوده الشخصي، فمؤلفاته هي كلمته المتجسدة.. كلمته التي أصبحت جسداً خالداً.

إن وعي دوستويفسكي الحساس بأسرار الوجود البشري قد دقق غير مرة في حكمة العبارة المسيحية القديمة: «الحق الحق أقول لكم، إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير».

هذه الكلمات سوف يضعها دوستويفسكي في مستهل رواية «الإخوة كارامازف» بعد مضي سنوات طويلة. وستحفر هذه الكلمات فيما بعد على التمثال المُقام على قبره. وكذلك فيما بعد ستكون خطبته الظافرة: «كلمة عن بوشكين» وروايات «المراهق» و «الشياطين» و «الأبله» و «الجريمة والعقاب»، و «ذكريات من منزل الأموات»... تلك الروائع العظيمة التي ابدعتها عبقرية الفنان وعقله الجبار وقلبه الكبير.. ذلك العالم الكامل الذي لم ير مثله من قبل، والذي سيهز البشرية باكتشافاته لأسرار الروح والوعي وبالأسئلة والإجابات التي ستزلزل كيان الإنسان وتدفعه إلى التفكير: أحقاً لن ينقلب العالم من جديد بدوائر «الجحيم» الحقيقية لا الغيبية، عبر دروب العذاب والبحث المضني والضلال والآمال التي مر بها الوجود البشري منذ آلاف السنين، والمركزة إلى أقصى حد في هذا العالم الذي نسميه الآن: عالم دوستويفسكي. ولكن ذلك كله سيكون فيما بعد.

أما في البدء فكانت الجلجة.

وقف على منصة الإعدام مبهوراً بضوء المصباح الرمادي الصاعد

في بطرسبرج يوم 22 ديسمبر 1849، بعد عدة أشهر قضاها في زنزانة منفردة كئيبة. كان ذلك يوماً عادياً للغاية بالنسبة للجميع. أما بالنسبة له فكان آخر يوم في حياته، وقد تأكد ذلك الآن. ولم يتبق من الحياة سوى بضع دقائق. وها هم قد أوثقوا ثلاثة من رفاقه إلى الصواري، واقترب منهم القس بمسوح الجناز، وقرّب منهم الصليب ليقبّلوه قبلة الوداع الأخير، بينما دوّت في أذنيه وفي بدنه كله بصوت مكتوم الكلمات التي لا رادّ لها: «حُكم على المهندس - الملازم المتقاعد دوستويفسكي... بالإعدام رمياً بالرصاص...».

«ما الذي يحدث للنفس في تلك اللحظة؟».. هذا السؤال الذي وضعه المؤلف على لسان الأمير (في رواية «الأبله») ربما هو السؤال الأساسي الذي يحدد الشكل والمضمون الفكري عند الكاتب نفسه ويشكل جوهر موقفه الفني تجاه العالم.. فأيّاً كانت الملابسات والأحداث التي تمر بالبطل فهو دائماً يُسأل ويجيب عما يحدث لنفسه في تلك اللحظة.

ورغم وفرة الكتب التي صدرت عن حياة الكاتب فليس لدينا حتى الآن، في واقع الأمر، كتاب جدير بسيرة هذا الإنسان. فالباحثون يولون اهتمامهم أكثر ما يولون للنسيج الخارجي، الحدثي، لحياته، هذا النسيج الذي ينبغي أن نعترف بأنه غني بالتحولات المفاجئة، وبالتقلبات الدرامية بل وحتى «الأخاذة». وبالفعل، فهناك طفولة دوستويفسكي «في بيت الله» (ولد دوستويفسكي في موسكو في 11 نوفمبر 1821 في أسرة نبيل فقير كان طبيباً في مستشفى للفقراء، هذه المستشفيات التي كانوا يسمونها «بيوت الله». وقد أصبح هذا المبنى حالياً متحفاً للأديب)، وهناك وفاة أمه الحبيبة مبكراً، والانطباعات غير الطفولية المبكرة، وتصادم عالم الأحلام الخيالية للصبا الغض مع

عالم الواقع الذي لا يقل خيالية؛ وهناك النضج الأخلاقي والذهني المبكر؛ والإحساس المسبق بمستقبل عريض في حقل الأدب. وبدلاً من تلك التدريبات والطوابير العسكرية الاضطرارية بالمدرسة الهندسية العسكرية في بطرسبرج. ثم خبر مصرع أبيه المفاجئ والغامض. وهناك السهر في الليالي، أي في الساعات الوحيدة التي يفرغ فيها من العمل، لينكب على رواية «المساكين» القادمة. ثم التعرف على الناقد الكبير بيلينسكي ثم الصعود المفاجئ غير المعقول من كاتب مغمور بالأمس إلى عبقري بطرسبرج وإلى واحد من أشهر رجالاتها. ثم دروس الإلحاد والاشتراكية في حلقة بيلينسكي والصداقة مع هذا الناقد العظيم والتي تحولت أيضاً فجأة وبنفس المباغتة إلى عدم تفاهم وتنافر متبادل. وبعد الصعود الخيالي جاءت مرارة الهزائم التي لا تقل خيالية، والسخرية العامة بالكاتب الذي أراد بالأمس أن يكون عبقرياً فلم يصبح. ثم الانضمام إلى حلقة بتراشيفسكي الذي كان واحداً من أوائل أتباع الاشتراكي الطوباوي فورييه، الراديكاليين في روسيا، ثم التقارب مع «الرجل الخيالي» سبيشنيف الذي نادى بالاستيلاء على السلطة بالقوة المسلحة وحاول الإعداد لتنفيذ فكرته. وبعد ذلك كان القضاء على الحلقة، وقرابة عام من السجن في زنزانة منفردة، وبداية علامات الصرع الذي أصبح «قرينه الدائم» وأخيراً منصة الإعدام والحكم بالإعدام، وبضع دقائق قبل تنفيذه. «من قال إن الطبيعة الإنسانية تستطيع أن تحتمل تعذيباً كهذا التعذيب دون أن تهوي إلى الجنون؟» - تساءل دوستويفسكي فيما بعد على لسان الأمير في «الأبله». أما هو نفسه فقد احتمل. احتمل الحكم بالإعدام، والتحضيرات التي سبقت تنفيذ الحكم، ثم إلغاء الحكم في اللحظة الأخيرة واستبداله بالأشغال الشاقة في سيبيريا، والرحلة

الطويلة عبر البلاد كلها، مقيداً بالأصفاد، إلى هناك، ثم عشر سنوات من الأشغال الشاقة وحياة الجندية (وسيقول عن نفسه فيما بعد: لقد وضعوني في التابوت حياً وأغلقوه عليّ). ولكنه لم ينكسر، وعاد، ووجد لديه من القوة والشجاعة الروحية ما جعله يصمد لضربات القدر دون أن يتشكى من المصير ولا حتى من الواقع. لقد وعى مأساة مصيره الفردي من خلال المأساة التاريخية العامة للبشرية في سعيها الأزلي إلى العدالة والسعادة عبر صنوف العذاب والمظالم ورغماً عنها. وقد صهر الأديب خبرته الحياتية هذه وخبرة الوجود البشري في كلمات رواياته المأساوية التي تدعو البشر ألا يصدقوا بدوام ومشروعية المأساة والفوضى، وتعزز فيهم اليقين بإمكانية وضرورة التغلب عليها هنا، على ظهر الأرض، لا في مكان ما هناك في الأبدية.

لقد عانى دوستويفسكي في حياته الكثير من الخسائر والآلام والعذاب وخيبة الأمل، ولكنه ذاق أيضاً فرحة اللُقيا والحب الحقيقي والاعتراف الشعبي، والشيء الرئيسي: تلك الانتصارات العظيمة لروحه الإبداعية ولعبقريته المتمثلة في رواياته الخالدة ونبوءاته عن العالم والإنسان، تلك الخلاصات المكثفة المدهشة للطاقة الروحية الخلاّقة.

هذا الجانب الخارجي، الحدثي، من حياة الكاتب الرائد العظيم أصبح اليوم مدروساً بما فيه الكفاية، ويكاد يكون الباحثون قد تتبعونه بكل تفاصيله ودقائقه يوماً بيوم، بل وربما ساعة بساعة. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يكتب السيرة الداخلية، الروحية، لعبقري من طراز دوستويفسكي؟ لا أعتقد أن هناك أحداً يقدر على ذلك.. باستثناء شخص واحد.. هو دوستويفسكي نفسه. إن رواياته التي تبدو بعيدة

كل البعد عن روايات السيرة الذاتية أو العائلية أو السردية الوصفية (رواية «الأخوة كارامازف» هي أكبر رواياته، أي إن «مساحتها» تتسع بما فيه الكفاية لملحمة كاملة تتناول حياة عدة أجيال، لا نجدها مع ذلك تتناول سوى يومين اثنين من حياة أبطاله).. هذه الروايات هي «السيرة» الوحيدة - والتي ستبقى كذلك فيما يبدو إلى الأبد - لحياته المُعَّبر عنها روحياً، هي نوع من التاريخ لروح العبقري وقلبه.

قال دوستويفسكي ذات مرة متحدثاً عن رواية «دون كيخوت» لسرفانتس، وهي من أحب الكتب إليه: «أوه، هذا كتاب عظيم، ليس مثل الكتب التي يكتبونها الآن. إن أمثال هذه الكتب تُرسل إلى البشرية كتاباً واحداً كلّ بضع مئات من السنين». ولا شك أن دوستويفسكي يقدم لنا بذلك أيضاً مفهومه العام لرسالة الأديب السامية على وجه الأرض: «... ولو أن الحياة انتهت على ظهر الأرض، وسئل الناس في مكان ما هناك: «ماذا، هل أدركتم حياتكم على الأرض، وما خلاصة رأيكم فيها؟».. لكان في وسع الإنسان أن يقدم «دون كيخوت» قائلاً: «هذه هي خلاصة رأيي في الحياة، وهل يمكنكم أن تدينوني على ذلك؟»».

وأعتقد أنه يمكننا دون تردد وضع روايات دوستويفسكي في عداد مثل تلك الروائع، وربما في المقام الأول روايته «الإخوة كارامازوف» التي أعتبرها أكمل خلاصة «دوستويفسكية» عن رأيه في الحياة.

ولا بد من الإشارة إلى أن دوستويفسكي يعد من أعقد الكتّاب. فالكلمة لدى دوستويفسكي دائماً ذات أغوار، وهي متعددة الجوانب، ودائماً على صلة لا تكاد تُحس بمجمل النظام الفكري والصوري لرواياته وفي تفاعل معه، وتكشف مختلف مستويات الإدراك والتقدير لنفس الواقعة أو الحدث.. إلخ. وفي هذا الصدد فليس من السهل

فهم دوستويفسكي فهماً عميقاً وليس من النادر أن تُفسَّر تفسيراً سطحياً، وأحياناً تفسيراً خاطئاً، روح إبداع العبقري الروسي ونظرته إلى العالم. وربما لهذا السبب ما يزال الكثيرون يستوعبون دوستويفسكي على مستوى الحدوتة والحبكة الروائية، باعتبار رواياته قصص مغامرات جنائية، تجمع بين الموعظة والتسلية، رغم أنها ثقيلة بعض الشيء محشوة بالمشاهد «المقحمة» وبالحوارات الفلسفية العديدة.

وهل يا ترى سيتمكن القارئ، والقارئ الأجنبي خاصة، من النفاذ ولو إلى «الطبقة العليا السطحية» من العالم الفكري الصوري لرواية «الإخوة كارامازوف»؟ وهل سيرى مثلاً في الاسم «أليكسي»، لذلك الشاب «الواقعي» الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هل سيرى فيه مثله الداخلي، ذلك المدعو «أليكسي حبيب الله» الذي تتحدث عنه السير الدينية للقرون الوسطى (وهو الشخصية الشعبية المحبوبة)، البطل المُقرَّب من قلب دوستويفسكي؟ وهل سيحس القارئ الأجنبي في اسم سميردياكوف برائحة ذلك التحلل والتعفن المتمثلة بصورة ساطعة في فكرة هذه الشخصية بصفة عامة (الاسم مشتق من فعل «سميرديت» ويعني: يطلق رائحة عفنة)؟ وهل سيفطن القارئ إلى الرابطة، التي تبدو حتى غير واعية ولكنها حتمية، بين اسم ديمتري وبين الأرض ديمترا، آلهة الخصب الإغريقية، وليس مجرد أرض، بل الأرض الأم؟ إن فهم جوهر مثل هذه الصور الشعبية التي تحدد مجمل البناء الفكري - الأخلاقي للمؤلفات والتي تمثل نوعاً من المراكز العصبية المتميزة لجسد الروايات الحي.. هذا الفهم هو وحده الذي سيتيح للقارئ أن يدرك الفكرة الرئيسية للكاتب، - المتجسدة في لغز أسلوبه ذاته - الفكرة القائلة بأن

المَخرَج الوحيد من فوضى الواقع يمر عبر الانبعاث في الشعبية.. هذه الفكرة التي نادى بها دوستويفسكي وتنبأ بها في مؤلفاته.

إن الكلمة لدى دوستويفسكي تتطلب من القارئ أقصى الاهتمام والإنصات والتأمل.. عندئذٍ تبدأ في الكشف عن قوانين علاقاتها الداخلية وعن الحقيقة الكامنة في أعماق الوقائع.

تُرى أين هي، في خاتمة المطاف، «حقيقة» دوستويفسكي؟ إنه سؤال مخاتل، كتبت في محاولات الإجابة عليه مؤلفات عديدة أكثر بمئات، إن لم يكن بآلاف المرات، مما كتبه دوستويفسكي نفسه.

ولذا سنكتفي بمثال واحد.

ثمة ضابط شاب، ليس ممتازاً على الإطلاق، بل بالأحرى على العكس من ذلك إنسان طائش، عربيد بل وحتى سكّير وزير نساء، ثم إنه بالطبع مقامر. وباختصار فهو ذو اندفاعات وتهور.. وقد قامر من دون حساب فخسر دفعة واحدة ثلاثة آلاف روبل.. هي فوق ذلك أموال أمانة... والأمل كله معقود على أموال الوالد، وإلا فسيُحكم عليه بالأشغال الشاقة في سيبيريا. ولكن الوالد لن يعطي، فهو نفسه بحاجة إلى هذه النقود ليعيش بها على هواه حياة يؤمّل أن تمتد به. وهكذا لا يبقى لدى الابن التعيس من رجاء سوى موت والده.. ليس موته تماماً.. ومع ذلك ففي ذهنه تدور فكرة سيئة إلى حدٍ ما حول «تغيير الوضع».

هذا الموضوع لا يبدو بعيداً عن الذهن. فمن هو هذا الشخص؟ أهو ميتينكا (دمتري) كارامازوف بطل رواية دوستويفسكي؟ كلا إنه بيتينكا (بيتر) ابن يهوذا جولوفليوف، بطل رواية «السادة آل جولوفليوف» للأديب سالطيكوف - شيدرين، أحد كبار الكتاب الروس في القرن التاسع عشر. ومع ذلك لا يسعنا إلا أن نعترف بأن

بيتينكا وميتينكا يكادان يكونان أخوين شقيقين بل وحتى توأمين حسب الخط الروائي. بيد أن بيتينكا قد استُوعب كله في هذا الخط، وليس هناك ما يقال عنه أكثر مما قيل حسب تقدير الكاتب. أما ميتينكا فلا يتسع له الخط الروائي، وفي هذا يتجلى جوهر دوستويفسكي. صحيح أن بطله عربيد، وزير نساء، وقد خسر في القمار، وفكر في موت أبيه، وحُكِم عليه بالأشغال الشاقة في سيبيريا لأنه كان مع ذلك شقياً. . وكان الوالد المرحوم محقاً على الأرجح حين قال عنه إنه شقي. ولكن يا له من شقي! في هذا العربيد تحيا روح الأرض الأم، وفي هذا الضابط الصغير التعيس توجد مهاوٍ بلا قرار للروح والوعي. وليست النقود هي ما يحتاج إليه، بل يعذبه ويمزق روحه شيء آخر. .

«رهيب مصير الإنسان، شديدة آلام الإنسان. . . - يقول ميتينكا مخاطباً أخاه أليوشا - لا تحسبنّ أنني امرؤ فظ برتبة ضابط، لا يعنيه إلا أن يشرب الكونياك ويمارس الفجور. . . ألا فلأكن ملعوناً، ألا فلأكن منحطاً سافلاً، ولكنني أريد، أنا أيضاً، أن أقبل ذيل الثوب الذي يتدثر به إلهي. لئن اتبعت الشيطان في الوقت ذاته يا رب، فإنني، مع ذلك، أظل ابنك، وأحبك، وفي نفسي سبيل إلى الفرج الذي لولاه ما وجد الكون. . .

الجمال شيء رهيب مخيف! هو رهيب لأنه لا يُحددّ. . . ولا يمكن تحديده لأن. . . الله ملأ الأرض ألغازاً وأسراراً. الجمال هو الشطآن تتقارب، هو الأضداد تتحد. لستُ على جانب كبير من الثقافة يا أخي، لكنني فكرت ملياً في هذا الأمر. ما أكثر الألغاز! ما أكثر الألغاز التي تضني الإنسان في هذا العالم!. . . أفظع ما في الجمال ليس أنه مخيف، بل إنه سر لا يُفهم».

في عالم دوستويفسكي الفني يتصارع الرحمن مع الشيطان والخير مع الشر، والحقيقة مع الزيف صراعاً لا يعرف المهادنة. ويدور هذا الصراع في جميع المجالات.. وعلى جميع المستويات.. من البناء الهيكلي لرواية «الأخوة كارامازوف» إلى العبارات الرمزية المحمّلة بالدلالات. وجميع هذه المجالات والمستويات للبناء الفكري - الصوري للرواية ترتبط فيما بينها بعلاقات متبادلة ضرورية يشترط بعضها البعض، وجميعها تميل بهذا الشكل أو ذاك نحو المركز، نحو قلب الرواية - نحو أسطورة المفتش الأكبر. وهذه العلاقات ليست علاقات خارجية، حدثية، بل داخلية، تكاد تكون روحية. فدمتري كارامازوف مثلاً، وهو يتحدث في «اعتراف قلب حار» عن الهويتين والحقيقتين، وعن صراع الرحمن والشيطان، دون أن يعرف شيئاً، حسب سياق الرواية، عن الأسطورة أو عن الشيطان في كابوس إيفان الليلي، إنما يكرر حرفياً تقريباً أفكارهما الرئيسية المفصلية: إن ما يجري في نفس الإنسان - سواء كان دمتري كارامازوف أم بطل آخر من أبطال دوستويفسكي - هو دائماً على صلة بما يجري في كل مكان، على الأرض وفي السماء، اليوم ومنذ ألف عام.

إن أبطال دوستويفسكي ليسوا على صلة بعصرهم وبيئتهم فحسب بل وبحياة العالم كله. وفي هذا الصراع الأزلي والشامل بين «ما للأمر» و «ما عليه» في عالم دوستويفسكي يفتش الباحثون عن مفتاح شخصية دوستويفسكي وإبداعه. ويركز معظمهم اهتمامهم بهذا الصراع. وكأنما عالم الكاتب لا يمثله سوى الأضداد المتصارعة، وكأنما لا يوجد هناك وسط، بل مجرد فراغ. ولكن علامَ يدور إذن هذا الصراع؟ إن دوستويفسكي لا يجعل من ذلك سراً: الصراع يدور

على روح الإنسان. وسؤال الكاتب الرئيسي هو: ما الذي يحدث لنفس الإنسان في تلك اللحظة؟

إذا كان دمتري كارامازوف يبدو مستعداً في الفصول الأولى من الرواية لقتل أبيه (ولولا الصدفة لقتله فعلاً) دون أن يشعر بذنب في ذلك أو يقرّ به، لأن أباه وغد، فإن وعي دمتري نفسه في نهاية الرواية (هل يمكننا أن نقول إنه بقي «نفسه»؟ هل لم يصبح شخصاً آخر تماماً من الناحية الروحية؟) يمكن التعبير عنه بعبارة: لم أقتله، ولكنني مذنب لأنني أردت وكان بوسعي أن أقتله. وبين هذين القطبين للوعي الذاتي يمتد دهر كامل، بينما في الرواية لدى دوستويفسكي تمضي عدة أيام فقط. ولكنها أيام من تلك التي تشهد فيها نفس البطل صراعات آلاف السنين. حتى سميردياكوف، الذي بدا في الظاهر أنه لم يندم، قد أقدم على الانتحار. ولم يقدِم على ذلك بدافع الخوف من اكتشاف جريمته. وإذن فقد حدث شيء ما، بخلاف الصراع نفسه بين المتناقضات، شيء فجّر من الداخل حتى نفس سميردياكوف؟

وحين يتحدثون عن مواعظ دوستويفسكي ونبوءاته ينسون أحياناً الأمر الرئيس: إن نبوءاته لا تتجلى في عبارات معينة أو بيانات بل في «حسم» الصراعات في نفوس أبطاله. ففي الحركة الداخلية لعالم الكاتب وفي اتجاه هذه الحركة ذاته تظهر إمكانية وضرورة الانبعاث الروحي للإنسان وللبشرية. وفي هذا يتجلّى ما أراد دوستويفسكي قوله وتتجلّى ونبوءته.

في «الأسطورة» يقول المفتش الأكبر للمسيح:

«ألغيت القانون القديم الذي كان وطيداً راسخاً، فأصبح على الإنسان أن يميّز الخير والشر بنفسه، مستلهماً حكم قلبه. كنت تريد

أن يهبوا لك محبتهم أحراراً لا أن ينصاعوا لك عبيداً أذهلهم جبروتك».

إن هذه الفكرة - صورة الضمير الحر (لا بمعنى انعدامه، بل بمعنى حرية الاختيار وفقاً لما يمليه الضمير و«القلب الحر» وليس حب «القانون»).. فكرة الشخصية هذه قد عبّر عنها دوستويفسكي حتى بأشكال بناء رواياته النبوئية. فهي لا تصور الحيرة والتردد بين الخير والشر ولا تقدم مواعظ تعليمية، بل ترسم في صور حية كلتي الهوّتين وكلتي الحقيقتين، وقمم السمو البشري ومهاوي الانحطاط. فهل رأيت؟ فلنختر إذن هذا أو ذاك، ولكن فليكن قلبك الحر معينك في الاختيار، بدون إكراه من الكاتب. وأن يسمح الكاتب لنفسه بهذا الموقف معناه أنه كان مؤمناً إيماناً راسخاً بقدرة كلمته الفنية وقيمتها الروحية والأخلاقية وواثقاً من أنها لا تصنع الشر بل الخير.

لقد قال دوستويفسكي وهو بعدُ شاب في أول طريقه الإبداعي: «الإنسان لغز». ولم يكف أبداً عن البحث حتى في «أحقر إنسان» عن الإنسان ذي الروح، القادر على الانبعاث.

هناك من قال إن الدورة الدموية للثقافة العالمية تجري الآن بواسطة دوستويفسكي. وهذه بالطبع مبالغة. لكن الأمر المحقق أن قلب هذا العبقري الروسي الكبير على صلة قرابة بنبض البشرية حالياً. ونحن جميعاً كالأنابيب المستطرقة: أين ينتهي دوستويفسكي وأين نبدأ نحن؟ وكما قال الكاتب نفسه: «فلتحاولوا أن تنقسموا، ولتحاولوا أن تحددوا أين تنتهي شخصيتكم وأين تبدأ الأخرى؟».



إهداء

إلى آنا جريجوريفنا دوستويفسكايا[1]

«الحق الحق أقول لكم:

إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتَمُتْ فهي تبقى وحدها.

ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير».

(إنجيل يوحنا، الإصحاح الثاني عشر، 24)[2]

إلى القارئ

حين أشرع في قص حياة بطلي، ألكسي فيدوروفتش كارامازوف، أشعر بشيء من الارتباك، وهو ارتباك له ما يبرره: إنني أسمي ألكسي فيدوروفتش هنا باسم البطل، وأنا أعرف حق المعرفة أنه رجلٍ ليس فيه من العظمة كثير ولا قليل، لذلك أتوقع أن تُطرح عليَّ حتماً أسئلة من هذا القبيل: «ماذا في صاحبك ألكسي فيدوروفتش هذا من أمر فذ، حتى اتخذته بطلاً؟ ما الذي قام به من أعمال نادرة. بماذا أصبح ذائع الصيت، وأين؟ ولماذا يجب عليَّ أنا القارئ أن أضيّع وقتي في دراسة وقائع حياته؟».

وهذا السؤال الأخير هو الطامة الكبرى، لأنني لا أستطيع أن أجيب عليه بغير قولي: «إقرأوا الرواية، فلربما ترون». وما عسى أن يكون موقفي إذا قرأ القارئ الرواية، فلم يرَ، ولم يشأ أن يسلّم بأن صاحبي ألكسي فيدوروفتش شخصية فذة؟ إنني مضطر أن أتساءل هذا التساؤل، لأنني أتوقع، بكثير من الأسف، أن الأمر سيكون كذلك. فهذا الرجل يبدو لي فذاً، ولكنني أشك أقوى الشك في أن أصل إلى إقناع القارئ بذلك بل إنني لأراه بطلاً فعالاً، بمعنى من المعاني، رغم أن فعله يظل غامضاً، يصعب تحديده. وقد يكون الغريب، على كل حال، أن يطلب إلى الناس أن يكون سلوكهم واضحاً مفهوماً في عصر كهذا العصر الذي نعيش فيه على أن هناك أمراً يبدو ثابتاً، هو أن هذا الرجل غريب، شاذ! والغرابة والشذوذ تسيئان إلى

السمعة أكثر مما تدفعان إلى العطف والاهتمام؛ وخاصة في عصر يجهد فيه الجميع أن يوحدوا الخصوصيات، التماساً لشيء من المعنى العام في هذا التشوش الشامل. والشذوذ، في أغلب الأحيان، سبيل إلى الخصوصية والتفرد. أليس كذلك؟

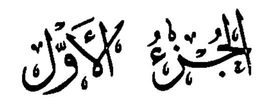
أما إذا لم توافقوا على هذا الرأي الأخير كل الموافقة، وأجبتم بأن «الأمر ليس كذلك»، أو بأنه «ليس كذلك دائماً»، فقد يردُّ إليّ هذا شيئاً من الثقة ببطلي ألكسي فيدوروفتش. لأن الإنسان الشاذ ليس حتماً - ليس دائماً - ذلك الذي يسلك سبيل الخصوص والتفرد، حتى لقد يتفق، خلافاً لهذا، أن يحمل في ذاته حقيقة عصره، بينما يكون الناس، جميع الناس، من معاصريه، قد ابتعدوا عن هذه الحقيقة إلى حين، كأنما دفعتهم عنها ريح هبت عليهم على حين فجأة. . .

كان في وسعي، على كل حال، أن أستغني عن محاولة هذه التعليلات المربكة التي ليس لها قيمة، وأن أدخل في الموضوع راساً بلا مقدمات: فإذا حظيت قصتي برضى القارئ، قرأها دونما حاجة إلى هذا التمهيد، ولكن مصيبتي في الأمر أنني أعرض تاريخ حياة واحدة بعينها، في روايتين اثنتين مستقلتين، الثانية منهما أخطر شأناً من الأولى، لأنني أقص فيها أعمال بطلي في العصر الذي نعيش فيه، في الأيام التي نجتازها. أما الأولى فقد جرت أحداثها منذ ثلاثة عشر عاماً، وليست في حقيقة الأمر رواية، وإنما هي فصل بسيط يصور حياة بطلي في صدر شبابه. وكان يستحيل عليَّ أن أعدل عن هذه الرواية الأولى، ولو فعلت، لاستحال فهم الأمور في الرواية الثانية. وهذا ما يفاقم حيرتي الأولى كثيراً: إذا كانت رواية واحدة تبدو لي، أنا الذي أكتبها، كثيرة على حياة بطل بلغ هذا المبلغ من

التواضع والغموض، فكيف أستطيع أن أتقدم إلى الناس بروايتين اثنتين؟ كيف أبرر لهم مثل هذا الادعاء العريض؟

أشعر بأن الجهود التي أبذلها للإجابة على هذه الأسئلة تضيّعني، لذلك أعدل عدولاً حاسماً عن محاولة أي تعليل. وواضح أن القارئ الذي أوتي نفاذ البصيرة قد أدرك منذ وقت طويل أنني ما سعيت إلا إلى ذلك منذ البداية، وأحنقه تضييعي الوقت الثمين في كلام عقيم ولكن جوابي على هذه النقطة الأخيرة ماثل في ذهني. لقد استرسلت في كلام عقيم، وأضعت في ذلك الوقت الثمين، لسببين اثنين: أولهما اللياقة، وثانيهما المكر: فبهذا أكون، كما يقال، قد حذَّرت القارئ مسبقاً بصورة من الصور. ثم إنني حتى لمسرور أن روايتي تنقسم قسمين، مع الاحتفاظ بما في «مجموعها من وحدة أساسية». إن القارئ يستطيع، بعد قراءة القصة الأولى، أن يعرف بنفسه هل ينبغي له أن يحمِّل نفسه عناء قراءة الثانية، وواضح أن لكل إنسان حريته في هذا كله، بل إن في وسع المرء أن يرمي الكتاب منذ قراءة الصفحات الأولى، وأن يعقد النية على أن لا يعود إليه أبداً. على أن هناك قرّاءً أوتوا حظاً من الرهافة، فهم يريدون من كل بد أن يمضوا في قراءة الكتاب إلى آخره، ذلك من أجل أن يستطيعوا الخلوص إلى رأي يتصف بالحياد، ويتفادى الزلل. وهذا هو شأن النقاد الروس عامة، على سبيل المثال. وإليهم إنما أرتاح الآن: لقد قدمت لهم، رغم ما يتصفون به من الحرص على الدقة والنزاهة، حجة مشروعة للتوقف عن القراءة عند الفصل الأول. هذه إذن مقدمتي بكاملها. وإني لأعترف أنها زائدة لا محلَّ لها. ولكنني ما دمت كتبتها فلأحتفظ بها. لا بأس.

ولننتقل الآن إلى الموضوع.


الجزء الأول

الباب الأول

قصة أسرة صغيرة

- 1 -

فيدور بافلوفتش كارامازوف

كان ألكسي فيدوروفتش كارامازوف الابن الثالث لمالك الأطيان فيدور بافلوفتش كارامازف[3] الذي اشتهر جداً في مقاطعتنا في زمانه (وما يزال الناس يتحدثون عنه إلى يومنا هذا) بسبب نهايته الفاجعة التي ظلت بلا تفسير ووقعت منذ ثلاثة عشر عاماً على وجه الدقة[4] والتي سأروي قصتها متى آن الآوان، أما الآن فسأقتصر مؤقتاً على الإشارة إلى أن هذا «الإقطاعي» (كما كان يسمى عندنا، رغم أنه لم يكد يعيش أبداً في أراضيه) كان إنساناً عجيباً. إنه ينتمي إلى ذلك النوع من الأفراد الشاذين - وهو نوع منتشر انتشاراً كافياً والحق يقال - الذين يجمعون بين طبيعة سيئة رديئة منحطة وبين قدر كبير من السخف، ولكن سخفهم سخف خاص، فهم يعرفون حق المعرفة كيف يصرِّفون أعمالهم المادية الصغيرة، ويركزون اهتمامهم على هذه الأعمال وحدها. من ذلك أن فيدور بافلوفتش هذا قد بدأ من الصفر إن صح التعبير. لقد كان مالكاً صغيراً جداً، يعيش على موائد الناس، ويسعى إلى أن يحيا حياة إنسان طفيلي تماماً؛ ولكن وُجدت عنده، حين مات، ثروة ضخمة تبلغ مائة ألف روبل عداً

ونقداً. هذا لا ينفي أنه كان بين سكان منطقتنا من أكثرهم شذوذاً وغرابة. أعود فأكرر أن شذوذه لم يكن هو الغباوة، فإن أكثر هؤلاء الشاذين لا يعوزهم الذكاء ولا يعوزهم الدهاء والمكر، وإنما الأمر أمر سخف، سخف خاص، سخف وطني إن صح التعبير.

لقد تزوج هذا الرجل مرتين وأنجب ثلاثة أبناء، فأما الأكبر فهو دمتري فيدوروفتش الذي ولد له من زواجه الأول، وأما الآخران فهما إيفان وألكسي اللذين ولدا له من زواجه الثاني. كانت امرأته الأولى من أسرة ميوسوف الغنية العريقة في نبالتها التي كان أفرادها ملاكين أيضاً في مقاطعتنا. فإذا سألتني كيف أمكن لفتاة تملك بائنة كبيرة بل وتتمتع بالجمال وتنعم إلى ذلك بذكاء متفوق ذكاء من هذا الذكاء الذي نلقاه كثيراً بين نساء جيلنا ولكنه لم يكن نادراً كذلك في الماضي - أقول إذا سألتني كيف أمكن لفتاة هذه مزاياها أن تتزوج «طِرْحاً» تافهاً هذه التفاهة (كذلك كان يلقبه جميع الناس) قلت إن هذا أمر لا أحب أن أحاول تعليله وتفسيره. لقد أتيح لي أن أعرف على كل حال فتاةً - هي من الجيل القديم «الرومانسي» - ظلت خلال سنين طويلة هائمة هياماً عجيباً بحب رجل كان في وسعها أن تتزوجه بسهولة كبيرة، ولكنها مع ذلك انتهت إلى أن تتخيل بنفسها جميع العوائق والعقبات الكأداء، التي تحول بينها وبين تحقيق سعادتها فإذا هي في ذات ليلة عاصفة ترمي بنفسها من أعلى شاطئ وعرٍ يشبه أن يكون جُرْفاً إلى نهر عميق وسريع، وإذا هي تقضي نحبها على هذه الصورة ضحيةً لنزواتها الخاصة، دون أن يكون لها هدف إلا أن تشبه أوفيليا بطلة شكسبير[5]، حتى أن في وسع المرء أن يتصور أنه لو كان هذا الجرف الذي اختارته منذ زمن طويل متحمسةً له أشد التحمس، لو كان أقل جمالاً وروعة، ولو كان في

مكانه شاطئ منبسط عادي مبتذل، إذن لأمكن أن لا يقع حادث الانتحار هذا. هذه قصة واقعية صادقة وهناك من الدلائل ما يبيح لنا أن نعتقد بأن الوقائع التي من هذا النوع كانت كثيرة في حياتنا الروسية منذ جيلين أو ثلاثة أجيال. فلعل زواج آديلائيدا إيفانوفنا ميوسوفا قد كان هو أيضاً ثمرة مؤثرات غريبة وخيال جامح[6]: لعلها أرادت بذلك أن تؤكد استقلالها النسوي، وأن تخرق الأحكام الاجتماعية السائدة، وأن تتحرر من طغيان أسرتها وتسلط أقربائها. لعل خيالاً طيّعاً قد أقنعها، ولو خلال لحظة، بأن فيدور بافلوفتش رغم ما استقر في أذهان الناس عنه من أنه إنسان طفيلي، هو واحد من أشجع الرجال وأكثرهم سخرية في هذا العصر، عصر الانتقال الانتقال إلى الأفضل، في حين أن الرجل لم يكن في حقيقة الأمر إلا مهرّجاً شريراً لا أكثر من ذلك. وقد أضيفَ إلى هذا أمر يؤثر في النفس ويلهب الخيال هو أن الزواج قد سبقه اختطاف، فذلك ما سحر آديلائيدا إيفانوفنا وفتنها. أما فيدور بافلوفتش فقد كان متهيئاً تهيؤاً خاصاً، بحكم وضعه الاجتماعي، لحلٍ من هذا النوع، لأنه كان يتمنى بكثير من الحماسة والحرارة في ذلك الوقت أن تعرض له فرصة نجاح في الحياة بأية وسيلة من الوسائل. فلا شك أن التسلل إلى أسرة ممتازة والحصول على بائنة كانا يغريانه أيما إغراء.. وأغلب الظن أن الحب لم يكن له أي شأن في هذا الزواج، سواء من جهة الخطيبة أو من جهة الخطيب، رغم ما كانت تنعم به آديلائيدا إيفانوفنا من جمال لا يجحد. ولعل ذلك كان حالة فريدة في حياة فيدور بافلوفتش الذي ظل طوال حياته إنساناً تلتهب عواطف الحب عنده التهاباً شديداً، لأنه بطبيعته شهواني يمكن أن تجذبه في طرفة عين أيّ امرأة يقع عليها بصره، شريطة أن يشجِّع. ومع ذلك

كانت آديلائيدا إيفانوفنا المرأة الوحيدة التي لم تستثر هواه ولا أضرمت عواطفه.

ولم تلبث آديلائيدا إيفانوفنا أن أدركت، بعد الاختطاف رأساً، أنها لا تشعر نحو زوجها إلا بالاحتقار. ولم تلبث عواقب مثل هذا الزواج بعد مدة قصيرة للغاية أن ظهرت. فرغم أن أسرة المرأة قد سارعت تذعن للأمر ولم ترفض أن تمهر الرجل بائنة الهاربة، فإن حياة الزوجين أصبحت مضطربة عاصفة تتخللها المشاكل ولا تنقطع فيها المناقشات. وقد قيل إن الزوجة الشابة عرفت كيف تبرهن في هذا الظرف على نُبل ورفعة لم يبرهن على مثلهما فيدور بافلوفتش الذي استطاع، كما نعرف اليوم، أن يدبر أموره منذ البداية بحيث يأخذ منها ثروتها دفعةً واحدة، وهي ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل، فما كادت تقبض هذه الآلاف حتى فقدتها إلى الأبد. إما القرية وإما المنزل الرخي الذي كانت تملكه في المدينة، وهما جزء من البائنة، فقد ظل الرجل زمناً طويلاً يحاول بجميع الوسائل أن ينقلهما إلى ملكيته بسند قانوني، وكان يمكن أن يظفر بذلك لأن ما كانت تشعر به المرأة نحو زوجها من احتقار واشمئزاز ونفور من توسلاته الوقحة التي لا حياء فيها، ومطالباته المستمرة التي لا تنقطع، كان قد حضّها على أن تتنازل له عن القرية والمنزل سأماً وضجراً ورغبةً في التخلص منه، لولا أن أسرة آديلائيدا إيفانوفنا قد تدخلت في الأمر في الوقت المناسب فوضعت حداً لمكائد هذا الرجل الجشع. وقد عُرف من مصدر موثوق أن معارك حقيقية قد نشبت بين الزوجين، وادعى بعضهم أن الغالب المنتصر في تلك المعارك لم يكن فيدور بافلوفتش بل آديلائيدا إيفانوفنا، المرأة السمراء ذات الطبع الحاد والإرادة الجريئة والمزاج النزق والجسم

القوي قوة مدهشة. وقد انتهى الأمر بالزوجة إلى هجر المنزل والفرار من عند فيدور بافلوفتش مع طالب كان يعمل مربياً ويعيش في فقر مدقع وبؤس مهلك، تاركةً لزوجها أمرَ الاهتمام بالصغير ميتيا الذي كان يومئذٍ في السنة الثالثة من عمره. وسرعان ما استغل فيدور بافلوفتش هذه الفرصة فأسكن في منزله نساءً من كل نوع، وأخذ يتعاطى الشراب بغير رادع ولا قصد. وفي أثناء ذلك أخذ يطوف في أرجاء الإقليم متباكياً شاكياً من أن آديلائيدا إيفانوفنا قد هجرته، حاكياً شقاءه لجميع الناس. وكان وهو يفعل ذلك لا يتورع أن يقصَّ عن حياته الزوجية تفاصيل لا بد أن يحمرّ الزوج خجلاً من قصّها. وأغرب ما في الأمر أنه كان يجد نوعاً من اللذة في أن يمثّل أمام الملأ هذا الدور المضحك، دور الزوج الذي خانته زوجته؛ وكأنما كان يسره أن يكون وضعه هذا الوضع، فهو يصف النازلة التي ألمَّت به مضيفاً إليها مزيِّناً لها، حتى لقد كان بعضهم يقول له في معرض السخر منه والتهكم عليه: «لكأنك يا فيدور بافلوفتش قد نلت ترقية، فأنت تبدو مسروراً كل السرور رغم ألمك الشديد». وزعم الكثيرون أن فيدور بافلوفتش يسره أن تتيح له هذه المناسبة فرصة العودة إلى تمثيل دور المهرِّج، وأنه يتظاهر عامداً بأنه لا يلاحظ ما في وضعه من أمور تبعث على الضحك، وذلك من أجل أن يزيد ما يتصف به هذا الوضع من طابع هزلي مضحك. ومن يدري مع ذلك؟ لعل جانباً من السذاجة كان له شيء من تأثير أيضاً! انتهى الرجل إلى اكتشاف أثر امرأته الهاربة. لقد كانت المسكينة في بطرسبرج، ذهبت إليها مع صاحبها الطالب، وتحررت فيها تحرراً لا يخطر ببالها أن تتراجع عنه. اضطرب فيدور بافلوفتش لهذا النبأ اضطراباً شديداً، وقرر على الفور أن يسافر إلى بطرسبرج دون أن يعرف طبعاً هو نفسه

الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه بهذا السفر. وكان يمكن فعلاً أن يسافر إلى بطرسبرج لولا أنه حين اتخذ هذا القرار قد شعر بأن من حقه الأكيد أن يسكر سكراً قوياً بغية أن يتشجع على القيام بهذه الرحلة. وفيما كان يسكر هذا السكر. لقد توفيت المرأة فجأة في غرفة حقيرة تحت السطح من أحد المنازل، فبعضهم يقول إنها ماتت بمرض التيفوس وبعضهم يقول إنها ماتت من الجوع. فلما تناهى خبر وفاتها إلى مسامع فيدور بافلوفتش كان في حالة سكر شديد، فأخذ يركض في الشوارع رافعاً ذراعيه إلى السماء صائحاً بأعلى صوته: «الآن حررت عبدك يا رب!» ذلك ما رواه بعضهم، ولكن في رواية أخرى أنه حين علم بالنبأ أخذ ينتحب انتحاب طفل صغير، فإذا رآه الرائي أخذته به شفقة رغم ما يوقظه في النفس من اشمئزاز. وقد تكون الروايتان كلتاهما صحيحتين على كل حال، فلعل الرجل قد اغتبط بما ظفر به من حرية، ولكنه في الوقت نفسه بكى صادقاً على تلك التي وهبت له هذه الحرية. إن في البشر - وحتى في أعتى المجرمين - من السذاجة والطيبة فوق ما قد نتخيل. وهذا يصدق علينا نحن أيضاً.



- 2 -

كيف تخلص من ابنه الأول

ليس من الصعب طبعاً أن نتخيل كيف يقوم مثل هذا الرجل بواجباته أباً ومربياً. لقد تصرف، من حيث هو أب، التصرف المُتوقّع منه: أي أنه لم يعبأ قط بالطفل الذي ولد له من آديلائيد إيفانوفنا، وجهله جهلاً تاماً. لا لأنه يضمر للصغير كرهاً ويحمل له حقداً من حيث إنه زوجٌ خانته امرأته، بل لسبب بسيط جداً هو أنه قد نسيه نسياناً تاماً. وبينما كان الأب يزعج الناس بشكاواه وبكائه، مع اتخاذه منزله مكاناً للفسق في الوقت نفسه، فإن خادماً وفياً أميناً اسمه جريجوري قد حنا على الصغير ميتيا[7] الذي كان عمره عندئذٍ ثلاث سنين، وضمَّه إليه وعنى به، فلولا أن هذا الخادم قد تولى أمر الصبي لما وُجد حتى من يغيّر له ملابسه. زد على ذلك أن أسرة أم ميتيا قد بدا أنها نسيت الصبي هي أيضاً في الآونة الأولى. كان جدُّ الصبي، وهو الشيخ ميوسوف، أبو آديلائيد إيفانوفنا، قد بارح هذا العالم إلى العالم الآخر، وكانت أرملته، جدة الصبي، التي انتقلت إلى موسكو، تعاني من وطأة المرض. أما أخوات آديلائيد إيفانوفنا فكن قد تزوجن. وهكذا لبث الصبي ميتيا سنةً كاملةً مقيماً مع الخادم جريجوري في كوخ يسكنه الخدم. وأغلب الظن أن الأب لو تذكر ابنه في مناسبة من المناسبات (وهو لا

يمكن أن يجهل وجوده على كل حالٍ) لأسرع يطرده إلى ذلك الكوخ، حتى لا يكون الصبي عقبةً في طريق فجوره. ولكن حدث أن أحد أبناء عمومة المتوفاة آديلائيدا إيفانوفنا، واسمه بيتر ألكسندروفتش ميوسوف، قد رجع في ذلك الأوان من باريس. إن بيتر هذا، الذي سيعيش في المستقبل سنين طويلة خارج روسيا، كان عندئذٍ شاباً في شرخ الشباب، وكان رجلاً من نوع خاص يختلف كل الاختلاف عن أفراد أسرة ميوسوف: لقد كان مثقفاً نشأ وترعرع وتربى في العاصمة وفي الخارج فكان أوروبياً إلى أن أصبح في أواخر حياته ليبرالياً على طراز 1840 - 1850، كان على صلة بأكثر المفكرين ليبرالية وأشدهم تطرفاً في زمانه، سواء في روسيا أم في الخارج، حتى لقد عرف برودون وباكونين[8] معرفة شخصية. فلما بلغ خاتمة المطاف من تجواله وترحاله كان يحلو له كثيراً أن يستحضر ذكرى مشاعره أثناء الأيام الثلاثة من ثورة شباط (فبراير) 1848[9] التي قامت في باريس، وأن يُفهم سامعيه في هذه المناسبة أنه أوشك أن يشارك في تلك الثورة، حتى لقد وجد نفسه فوق المتاريس. وكانت هذه الذكرى من أحلى ذكريات شبابه. كان هذا الرجل يملك ثروة مستقلة يمكن أن تُقدَّر في ذلك العصر بألف نفس. وكانت أراضيه الممتازة تقع على مقربة من مدينتنا الصغيرة وتتاخم أراضي ديرنا الشهير الذي أقام عليه ميوسوف منذ صدر شبابه، أي بعد أن آلت إليه هذه الأراضي فوراً، قضيةً طال أمدها فما تنتهي. والقضية تتعلق بحقوق الصيد في النهر أو حقوق قطع الأشجار في الغابات، أو غير ذلك مما لم أعد أذكره، وهي قضية تافهة في ذاتها، ولكن صاحبنا قدَّر أن من واجبه كمواطن صالح وإنسان متنوِّر أن يقاضي هؤلاء «الإكليركيين». فلما علم بمصير آديلائيدا إيفانوفنا التي

لا شك أنه كان يتذكرها حتى لقد لاحظها في الماضي، ولما علم بوجود الطفل الصغير قرر أن يتدخل في الأمر رغم ما كان يحمله لفيدور بافلوفتش من احتقار، ورغم ما كان يحسه إزاء سلوكه من شعور الاستياء والاستنكار، وهو شعور طبيعي في شاب. ففي هذه الظروف إنما التقى لأول مرة بفيدور بافلوفتش فأبلغه صراحةً بغير لف ولا دوران أن في نيته أن يأخذ على عاتقه تربية الصبي. وقد روى فيما بعد، خلال سنين طويلة، كأنما ليبرز أخلاق فيدور بافلوفتش، أن فيدور بافلوفتش هذا، حين سمع كلامه، بدا عليه في أول الأمر أنه لا يفهم أيَّ صبيٍ يعني، وظهر عليه الاندهاش من أن يكون له ابن صغير يسكن في مكان ما من المنزل. وهَبْنا سلّمنا بأن فيما رواه بيتر ألكسندروفتش شيئاً من مبالغة، فمما لا شك فيه أن فيدور بافلوفتش كان طوال حياته يحب أن يمثّل وأن يظهر على حين فجأة في دور ليس متوقعاً، دون أن يكون هناك داعٍ إلى ذلك، ودون أن يجني من ذلك نفعاً، بل ربما لحقه منه ضرر في كثير من الأحيان كما حدث مثلاً في هذه الحال. وتلك صفة نقع عليها لدى كثير من الناس قد يكونون على جانب عظيم من الذكاء خلافاً لفيدور بافلوفتش. وصرَّف بيتر ألكسندروفتش الأمور بهمة وحزم وحماسة، فعيَّن آخر الأمر وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش)، لأن هناك بقية من ميراث خلفَّته الأم هو منزل وأرض صغيرة. هكذا مضى ميتيا يعيش في منزل ابن عم أمه، الذي لم يكن له أسرة فأسرع يعود إلى باريس فيقيم فيها إقامة طويلة بعد أن رتب أموره وتقاضى ريع أراضيه، وعهد بالصبي إلى إحدى بنات أعمامه وهي سيدة من موسكو. وانتهى به الأمر، أثناء حياته الباريسية الطويلة، إلى أن ينسى الصبي هو أيضاً، ولا سيما بعد ثورة شباط (فبراير) تلك الشهيرة التي أثرت في خياله

تأثيراً كبيراً حتى أصبح فكره مشدوداً إليها حتى نهاية حياته. وماتت السيدة الموسكوفية، فانتقل الصبي إلى منزل إحدى بناتها المتزوجات. ويظهر أنه غيَّر عشه بعد ذلك مرةً رابعة، ولكنني لا أريد أن أفيض في ذكر هذه التفاصيل الآن، لا سيما وأنني سأتحدث كثيراً عن هذا الابن الأول من أبناء فيدور بافلوفتش، وحسبي أن أسوق بعض الإشارات التي لا غنى عنها، والتي بدونها يستحيل عليَّ أن أشرع في قصِّ هذه الرواية.

فأولاً: كان دمتري فيدوروفتش هذا الابن الوحيد من أبناء فيدور بافلوفتش الثلاثة الذي شبَّ على الاعتقاد بأنه يملك ثروة لا بأس بها ستؤول إليه حينما يبلغ سن الرشد[10] فتكفل له الاستقلال. وقد قضى مراهقته والسنين الأولى من شبابه يعيش حياةً مضطربة. لم يتم سني دراسته في المدرسة الثانوية، ثم دخل مدرسة عسكرية، وأرسل بعد ذلك إلى القفقاس، ونال هنالك ترقية. ولكنه تورط في مبارزة، فجرِّد من رتبته، ثم استرد شاراته، ثم راح يلهو ويقصف، فبدد مبالغ لا بأس بها... ومع ذلك فإنه لم يبدأ بتلقي أموال من أبيه فيدور بافلوفتش إلا حين بلغ سن الرشد، أما قبل ذلك فقد كان يعيش على ديون يتراكم بعضها فوق بعض. ولم يَرَ أباه لأول مرة منذ تركه في طفولته، ولم يعرفه إن صح التعبير، إلا بعد بلوغه سن الرشد بقليل، وذلك حين جاء إلى مدينتنا يناقش أباه في أمر ميراثه. ويظهر أنه نفر من أبيه حينذاك، فلم يمكث عنده إلا زمناً قصيراً، ثم قفل راجعاً بعد أن حصل منه على مبلغ من المال، وأبرم مع أبيه اتفاقاً غامضاً على أن يرسل إليه أبوه ريع أرضه تباعاً، دون أن يستطيع حمل أبيه على أن يعيِّن له قيمة الأرض وإيرادها (هذه نقطة يجب أن تظل ماثلة في أذهاننا). وقد أدرك فيدور بافلوفتش في تلك اللحظة، ومنذ سمع

الكلمات الأولى التي قالها ابنه (وهذه أيضاً نقطة يجب أن نسجِّلها) أن الفكرة القائمة في ذهن ميتيا عن ثروته فكرة مغالية وخاطئة. وسُرَّ الأب بذلك سروراً عظيماً، لأنه بيَّت أموراً تحقق له مصالحه. لقد استنتج أن الفتى خفيف طائش مندفع تسيطر عليه أهواؤه الجامحة، وهو نافذ الصبر متعجل، وأنه إلى ذلك يحب اللّهو والقصف وأن الشيء الذي يهم هذا الفتى خاصةً هو أن يحصل على بعض المال لإشباع حاجاته الآنية، فمتى تحقق له ذلك هدأ فوراً، ولو إلى حين طبعاً. وهذا ما راح فيدور بافلوفتش يستغله، فكان يتحرر من مطالب ابنه بدفعاتٍ زهيدة من المال يرسلها إليه متقطعةً من حين إلى حين. حتى إذا نفد صبر ميتيا أخيراً، عاد إلى مدينتنا بعد أربع سنين، ليسوِّي قضية الميراث هذه تسوية نهائية مع أبيه، فما كان أشد دهشته حين عرف أنه أصبح لا يملك شيئاً البتة، فقد قبض بتلك الدفعات المتعاقبة مبالغ يصعب تحديدها على وجه الدقة، ولكنها تتجاوز قيمة الأرض الموروثة على كل حال، حتى أنه قد يكون مديناً لأبيه الآن وأنه بحكم الصفقات التي أبرمها في التواريخ الفلانية والفلانية أصبح لا يحق له أن يطالب بشيء البتة! إلخ. إلخ... صُعق الفتى، وأحسَّ بأنه خُدع وغُرّر به، وشعر بأن أباه يكذب عليه، فثارت ثائرته حتى بدا كمن فقد صوابه. ذلك هو الظرف الذي أدى إلى الكارثة التي تتألف من سرد قصتها روايتي الأولى التمهيدية، أو قل البناء الخارجي لتلك الرواية. ومع ذلك ينبغي لي قبل أن أعالج الرواية أن أتكلم عن إبنَي فيدور بافلوفتش الآخرين، عن أخَوَيْ ميتيا، وأن أذكر كيف جاءا إلى هذه الحياة الدنيا.

– 3 –

الزواج الثاني

وابنا الفراش الثاني

بعد أن تخلص فيدور بافلوفتش من ابنه ميتيا ولمّا يكد يبلغ الرابعة من عمره، لم يلبث أن تزوج مرةً أخرى. وقد دام زواجه الثاني هذا زهاء ثماني سنين. وكانت امرأته الجديدة، صوفيا إيفانوفنا، في هذه المرة أيضاً، شابة في ريعان الصبا، من إقليم مجاور ذهب إليه فيدور بافلوفتش في صحبة يهودي حقير من أجل قضية مقاولة بسيطة. ذلك أن فيدور بافلوفتش، على استرساله في اللهو والقصف والشراب والمجون والفسق، لم ينقطع أثناء ذلك أبداً عن الاهتمام باستثمار رؤوس أمواله، وقد عرف دائماً كيف يصرّف شؤونه الصغيرة تصريفاً فيه حكمة وتدبر، ولكن بشيء من النذالة والغش في كثير من الأحيان طبعاً. وكانت صوفيا إيفانوفنا فتاة يتيمة لم تعرف أسرتها يوماً. إنها ابنة شمّاس مغمور، نشأت وترعرت في منزل ثري هو منزل ارستقراطي أرملة الجنرال فوردخوف العجوز النبيلة الأصل، التي كانت تحسن إليها وتربيها وتضطهدها في آن واحد. لست أعرف جميع التفاصيل ولكنني سمعت من يروي أن هذه البنت الصغيرة التي كانت تعيش في كنف الجنرالة وكانت مخلوقة

مسكينة عذبة دمثة، قد وُجِدَت ذات يوم تحاول أن تشنق نفسها بحبل علقته بمسمار في شونة، من فرط ما ضاقت بقسوة الفورات المستمرة والنزوات المتصلة تصبها على رأسها هذه العجوز التي لم تكن في الظاهر شريرة، ولكنها كانت في حقيقة الأمر امرأة جعلها الفراغ متسلطة تسلطاً لا يطاق، مستبدة استبداداً أحمق لا يحتمل. وقد خطب فيدور بافلوفتش الفتاة فسألوا عنه، فرفضوه. فما كان منه إلا أن فعل ما سبق أن فعله في المرة الأولى، فعرض على اليتيمة أن يختطفها. وأغلب الظن بل الأرجح أنها ما كانت لتوافق على الهروب معه أبداً لو عرفت آنذاك تفاصيل حياته خيراً مما عرفتها. ولكن السمعة السيئة التي نالها فيدور بافلوفتش لم تكن قد تجاوزت حدود إقليمنا إلى الأقاليم الأخرى، وكانت الفتاة المسكينة في السادسة عشرة من عمرها[11] لا تعرف إلا شيئاً واحداً هو أن وجودها في قاع نهر من الأنهار خير من بقائها في منزل هذه السيدة المحسنة إليها. هكذا غادرت الشقية بيت محسنة إلى بيت محسن. ولم يقبض فيدور بافلوفتش في هذه المرة كوبيكاً واحداً، لأن الجنرالة قد غضبت غضباً شديداً فلم تهب للعروسين شيئاً عدا اللعنة. على أن فيدور بافلوفتش لم يكن قد عوّل على الحصول على مال في هذه المرة، وإنما أغراه ما كانت تتمتع به الفتاة البريئة من جمال أخاذ، وفتنه ما رآه في مظهرها من صفاء صعق هذا الرجل الشهواني الذي كان لا يحفل إلا بملذات الحسّ، هذا الرجل الساقط الذي لم تجتذبه في المرأة حتى ذلك الحين إلا المفاتن الخسيسة. «إن تينك العينين الصغيرتين البريئتين قد نفذتا إلى نفسي عندئذٍ كسكين»: كذلك اعتاد أن يقول فيما بعد، وهو يضحك تلك الضحكة الكريهة المعهودة فيه. ومن الجائز أيضاً أن ذلك الافتتان بالبراءة لم يكن لدى

فاسق مثله إلا صورة من صور اللذة الحسية. وقد اعتقد فيدور بافلوفتش، لأنه لم ينل أي تعويض مالي، أنه ليس عليه أن يتحرج مع امرأته أي تحرج، واستغل شعورها بأنها «مذنبة» في حقه فهو الذي «أنقذها من الحبل»، واستغل من جهة أخرى ما يتصف به طبعها من عذوبة مفرطة وإذعان عجيب، فركل بقدميه أبسط قواعد اللياقة التي توجبها الحياة الزوجية، فكان يقيم حفلات الخلاعة والفجور على مرأى منها، وكان يجيء إلى البيت بنساء فاسقات ساقطات. ويجب أن أذكر، في هذه المناسبة، كَسِمَة من السِّمات التي تميز هذه البيئة، أن الخادم جريجوري، الإنسان المماحك المتجهم الغبي العنيد، الذي كان قد كره زوجة سيده الأولى، آديلائيدا إيفانوفنا، قد انحاز في هذه المرة إلى صف الزوجة الجديدة، ودافع عنها، وكثيراً ما اختصم مع فيدور بافلوفتش في أمرها بصورة توشك أن لا تكون مقبولة من خادم. حتى لقد اتفق له ذات مرة أن وضع حداً لحفلة خليعة، مستعملاً القوة في طرد المخلوقات الفاجرة التي تجمعت في المنزل. وفيما أصيبت هذه المرأة البائسة التي قاست من الإرهاب والعذاب ما قاست منذ طفولتها، أصيبت بنوع من المرض العصبي منتشر خاصةً بين بنات الطبقة الدنيا من الشعب وبين الفلاحات اللواتي يسميّن بسبب هذه الإصابة «كليكوشي»[12]. إن هذا المرض الذي تصحبه نوبات رهيبة من نوبات الهستيريا، كان يهوي بالمرأة الشابة في بعض الأحيان إلى حالة من الهذيان والخرف. ومع ذلك أنجبت هذه المرأة ابنين، ولد أحدهما، وهو إيفان، بعد الزواج بسنة، وولد الثاني، وهو ألكسي، بعد ولادة الأول بثلاث سنين. وحين ماتت، كان الصغير ألكسي قد دخل السنة الرابعة من عمره. وإني لأعلم، مهما يبدو لكم هذا الأمر غريباً، أن ذكرى أمه قد بقيت

ماثلة في ذهنه طوال حياته، ولو في صورة تشبه أن تكون حلماً. وقد كان مصير هذين الابنين، بعد موت أمهما، شبيهاً بمصير أخيهما الأكبر ميتيا: نسيهما أبوهما نسياناً تاماً، وهجرهما هجراً كاملاً، وضمهما إليه جريجوري في كوخه مثلما ضمّ إليه أخاهما من قبل. وهناك، في ذلك الكوخ، إنما اكتشفتهما الجنرالة العجوز المهووسة التي كانت لأمهما محسنةً ومنشّئة. كانت العجوز ما تزال على قيد الحياة، ولم تستطع خلال تلك السنين الثماني أن تغفر الإهانة التي ألحقت بها. وكانت طوال تلك الفترة تتسقط أخبار «ربيبتها صوفيا» تفصيلاً، فلما علمت بنبأ المرض الخطير الذي ألّم بها، كما علمت بأنباء البيئة الفاسدة الفاضحة التي اضطرت المسكينة أن تعيش فيها، قالت مراراً كثيرة، بصوت عالٍ، أمام من تعولهن: «لقد استحقت ذلك، فإن الله هو الذي يعقابها على نكرانها الجميل».

وبعد موت صوفيا إيفانوفنا بثلاثة أشهر تماماً، ظهرت الجنرالة ذات يوم بشخصها في مدينتنا الصغيرة واتجهت رأساً إلى منزل فيدور بافلوفتش. ولم تمكث عندنا أكثر من نصف ساعة، ولكنها لم تضيع وقتها سدى. كان ذلك في نحو المساء. إن فيدور بافلوفتش الذي لم تره منذ اختطاف صوفيا مرة واحدة خلال تلك السنين الثماني قد هبّ إلى لقائها الآن وهو في حالة سكر لطيف. فما كادت تراه حتى صفعته منذ اللحظة الأولى صفعتين قويتين ومدويتين، دون أن تسترسل في أية إيضاحات، ثم أمسكته من شعره وهزته في مكانه ثلاث مرات. ثم اتجهت إلى الكوخ الذي يوجد فيه الطفلان، دون أن تنطق بكلمة واحدة، فلما لاحظت بنظرة سريعة أنهما لم يُغسلا وينظفا، وأن ملابسهما الداخلية لم تغيّر، أسرعت تصفع جريجوري أيضاً، وأعلنت له أنها ستأخذ الصبيين إلى منزلها. ثم خرجت بهما

كما كانا، بعد أن لفتهما بغطاء، ووضعتهما في عربتها، وعادت بهما إلى مدينتها. لقد تلقى جريجوري هذه الصفعة كما يتلقاها عبد خاضع مطيع، دون أن ينطق بكلمة ودون أن يخرج عن أدبه، بل لقد رافق السيدة العجوز إلى عربتها، وقال لها وهو ينحني حتى مستوى الحزام، قال لها في اقتناع كامل وإيمان قوي: «إن الرب سيجزيها جزاءً حسناً بسبب هذين اليَتيمين»، فصرخت الجنرالة تقول له وهي تنصرف: «أنت مع ذلك أبله!» وبعد أن قلّب فيدور بافلوفتش الأمر على وجوهه المختلفة انتهى إلى أن كل شيء قد جرى على ما يرام. ثم لم يضع بعد ذلك أية عقبة تحول دون موافقته الرسمية على أن يُربَّى الصبيان في منزل الجنرالة وذيّل بتوقيعه جميع الشروط التي اقترحت عليه. أما الصفعات التي تلقاها فقد مضى يتباهى بها في المدينة كلها.

وحدث أن توفيت الجنرالة أيضاً بعد ذلك بزمن قصير، ولكنها أورثت كلاً من الطفلين في وصيتها مبلغ ألف روبل، وقد نصّت الوصية على أن هذا المبلغ «مخصص لتعليمهما، فما ينبغي أن يُنفق منه شيء إلا عليهما، ولكن على شرط أن يكفيهما حتى يبلغا سن الرشد، لأن مثل هذا المبلغ كافٍ لطفلين مثلهما، فإذا ظن بعض الناس أن هذا قليل فليتفضلوا بتدارك النقص من جيوبهم، إلخ إلخ». إنني لم أقرأ وصية الجنرالة ولكن قيل لي إنها تضمنت أموراً غريبة من هذا القبيل، وإنها قد كُتبت بعبارات طريفة عجيبة. ومن حسن الحظ أن الوارث الرئيسي الذي آلت إليه أموال الجنرالة كان رجلاً شريفاً هو إيفيم بتروفتش بولينوف سيد نبلاء هذه المقاطعة. وقد كتب إلى فيدور بافلوفتش ولكنه لم يلبث أن أدرك أن هذا لن يدفع كوبيكاً واحداً في سبيل تعليم ابنيه (رغم أن فيدور بافلوفتش ما كان

ليرفض ذلك رفضاً مباشراً، وإنما هو يقتصر في مثل هذه الحالة على المماطلة والتسويف، وربما عمد أحياناً إلى التدفق في أقوال عاطفية). قرر إيفيم بتروفتش عندئذٍ أن يهتم باليتيمين شخصياً، وتعلق تعلقاً خاصاً بأصغرهما ألكسي، فربّاه في أسرته نفسها خلال سنين. أرجو من القارئ أن ينتبه إلى هذه النقطة من البداية. لئن استطاع هذان الشابان أن ينعما في حياتهما بتربية جيدة وثقافة مناسبة، فإنما يرجع الفضل في ذلك إلى إيفيم بتروفتش هذا الذي كان إنساناً يتمتع بطيبة عظيمة وشهامة كبيرة يندر أن نقع على مثلهما في غيره. إنه لم يمسّ الألفي روبل التي ورثها الصبيان من الجنرالة، فلما بلغا سن الرشد كان كل ألف قد صار بالفوائد ألفين. لقد أخذ الرجل على عاتقه تربية الصبيين، فأنفق عل كل منهما أكثر كثيراً من الروبلات الألف طبعاً. لن أدخل هنا في قصّ تفاصيل حياتهما أثناء الطفولة والمراهقة، وإنما اقتصر مرة أخرى على إشارات لا غنى عنها. فأما عن الابن الأكبر إيفان فأقول إنه أصبح مع الأيام مراهقاً يتصف بشيء من التجهم والانطواء. صحيح أنه لم يكن خجولاً، ولكن كان يبدو أنه أدرك منذ السنة العاشرة من عمره أنه يعيش هو وأخوه في أحضان أسرة هي أسرة غرباء رغم كل شيء، وأنهما يُربيّان في هذه الأسرة من باب الرأفة والإحسان على وجه الإجمال، وأن أباهما إنسان شاذ يضيق المرء ذرعاً حتى بالكلام عنه، إلخ إلخ. وقد أظهر هذا الصبي في وقت مبكّر منذ طفولته الأولى فيما يقال مواهب عظيمة للتعلم وتفوقاً واضحاً في الدراسة. إنني لم أطلع على التفاصيل، ولكنني أعلم أن الفتى ترك أسرة إيفيم بتروفتش وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره، فدخل مدرسة ثانوية بموسكو حيث عاش في «بنسيون» عالم من علماء التربية واسع الخبرة ذائع الصيت

في ذلك الزمان، كان أحد أصدقاء إيفيم بتروفتش في طفولته. وقد روى إيفان نفسه فيما بعد أن ذلك كله إنما مردّه إلى «ما يتصف به إيفيم بتروفتش من حماسة شديدة لأعمال الخير»، لأن إيفيم بتروفتش قد استقر في ذهنه أن صبياً عبقرياً لا بد أن يتولى تربيته مربٌّ عبقري. على أن إيفيم بتروفتش والمربي العبقري كانا قد انتقلا كلاهما إلى رحمة الله حين أنهى الفتى دراسته الثانوية فانتسب إلى الجامعة. وقد تأخر استلام الروبلات الألف التي أوصت بها الجنرالة المهووسة للطفلين والتي صارت بالفوائد ألفين، تأخر استلامها نتيجةً لسوء تدوين التدابير التي اتخذها إيفيم بتروفتش، وبسبب أنواع كثيرة من الإجراءات الشكلية والمماطلة التي لا بد منها في بلادنا... لذلك كانت السنتان الأوليان اللتان قضاهما إيفان في الجامعة حافلتين بالمصاعب والمشقات. لقد اضطر الفتى أن يلتمس رزقه بنفسه أثناء تلك المدة، مع استمراره على متابعة دراسته. يجب أن نذكر هنا أنه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات أن يستنجد في ذلك الظرف بأبيه، إما عن كبرياء وشمم في نفسه، وإما عن احتقار وازدراء لأبيه، وإما لأن عقله الهادئ الرصين قد حدّثه بأنه ليس له أن يعوّل على الحصول من أبيه على معونة ذات بال. المهم أن المصاعب لم تفتّ في عضد الفتى ولا أضعفت عزيمته، واستطاع أخيراً أن يجد عملاً. أخذ في أول الأمر يعطي دروساً في المنازل بأجرٍ زهيد، ثم استطاع أخيراً بالسعي من إدارة تحرير إلى إدارة تحرير أن يكتب للجرائد اليومية مقالات مقتضبة، في حدود عشرة أسطر، عن حوادث الشارع، مُذيَّلة بتوقيع «شاهد عيان». وقد أكد المؤكدون أن تلك المقالات القصيرة كان فيها من الفكر المتوقد والفكاهة اللاذعة ما كفل لها أن تصيب نجاحاً سريعاً. بذلك استطاع هذا الشاب أن

يبرهن تفوقه على أولئك الطلاب الكثيرين من الجنسين، الذين يعيشون دائماً في عَوَز وفاقة، ويلمّ بهم في عواصمنا البؤس والفقر والشقاء، ويحاصرون إدارات تحرير شتى الجرائد والمجلات في عاصمتينا من الصباح إلى المساء. إنهم في العادة لا يحسنون أن يبتكروا شيئاً غير تكرار طلبهم الأبدي، وهو أن يكلفوا بترجمة بعض النصوص عن اللغة الفرنسية، أو أن يقوموا ببعض أعمال النسخ. فلما استطاع إيفان فيدوروفتش أن يصل إلى إدارات التحرير دبّر أموره بعد ذلك بحيث يبقى على صلة بها، ونشر أثناء السنين الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات طبية عرض فيها لأنواع شتى من المؤلفات، فأخذ يُعرف حتى في المحافل الأدبية. على أنه لم يظفر، مصادفة، بأن يلفت إليه، على حين فجأة، انتباه دائرة من القراء أوسع كثيراً من ذلك، إلا في نهاية تلك الفترة، فأصبح عدد كبير من القراء يتذكرونه منذ ذلك الحين ولا ينسونه. كان هذا في مناسبة طريفة جداً. كان إيفان فيدوروفتش قد أنهى دراسته الجامعية، وكان يتهيأ بالألفي روبل التي يملكها أن يسافر إلى الخارج، حين نشر ذات يوم، في جريدة من كبرى الجرائد اليومية، مقالاً غريباً لَفَتَ إليه حتى أنظار غير المختصين من القراء؛ والعجيب أن المقال يعالج موضوعاً لا يمت بصلة من الصلات إلى ما انصرف إليه الشاب من اختصاص علمي (ذلك أنه قد تخصص في العلوم الطبيعية). لقد تناول المقال مسألة القضاء الإكليركي[13] التي كانت تثار آنذاك في كل مكان. فبعد أن ناقش كاتب المقال مختلف الآراء التي وردت في صدد هذا الموضوع، أبدى رأيه الشخصي. وقد تميز المقال خاصةً باللهجة التي كتب بها، كما تميز بالنتيجة التي انتهى إليها، وهي نتيجة تتصف بأنها جديدة غير متوقعة. ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من

أنصار الإكليروس قد عدوا الكاتب مؤيداً لهم، بينما أخذ أنصار العلمانية، وحتى الملحدون، يعربون عن استحسانهم لما تضمنه مقاله. وأدرك بعض أهل الحصافة والذكاء أخيراً أن المقال، من أوله إلى آخره، لم يكن إلا مزحة جريئة ومهزلة ساخرة. وإنما أذكر هنا هذه النقطة التفصيلية لأن المقال قد وصل في حينه إلى الدير الشهير الذي يقع على أبواب مدينتنا، فإذا بمسألة القضاء الإكليركي تثير اهتماماً عاماً على حين فجأة. لقد قرئ المقال في المدينة فأحدث هزّة قويّة؛ حتى إذا عُرف اسم كاتبه اشتدت حماسة الناس، ذلك أن الكاتب يرجع أصله إلى مدينتنا، وهو أنه، فوق ذلك، «ليس إلا ابن فيدور بافلوفتش ذاك بعينه». وها هو ذا كاتب المقال يظهر في مدينتنا بنفسه في تلك الآونة نفسها.

تُرى ماذا كانت غاية إيفان فيدوروفتش من تلك الزيارة، ولماذا جاء إلى مدينتنا؟ أذكر جيداً أنني قد ألقيت هذا السؤال على نفسي شاعراً حتى في تلك اللحظة بشيء من القلق. إن هذه الزيارة المشؤومة التي كانت السبب في وقوع أحداث كثيرة، قد ظلت في ذهني خلال زمن طويل، بل ظلت في ذهني إلى الأبد، أمراً غامضاً. إنه لشيء غريب، على وجه العموم، أن يقرر شاب يبلغ هذا المبلغ من سعة الثقافة وشدة الكبرياء وكثرة الحذر، فيما يبدو، أن يقرر على حين فجأة، أن يجيء إلى منزل يبلغ هذا المبلغ من سوء السمعة، أن يجيء إلى أب كهذا الأب الذي جهله طوال حياته، ولم يشأ يوماً أن يعرف شيئاً عنه، حتى نسي وجوده ذاته. والفتى يعلم حق العلم مع ذلك أن أباه الذي كان سيرفض قطعاً في أي ظرف من الظروف أن يعطي ابنه شيئاً من مال لو سأله ذلك، كان في خوف متصل من أن ينتهي الأمر بإبنيه، إيفان وألكسي، أن يطلبا منه بعض

المال واحداً بعد آخر. ورغم ذلك فهذا هو إيفان يسكن منزل أب كهذا الأب، ويقضي فيه شهراً بعد شهر، وهذان هما الرجلان يتفاهمان أحسن تفاهم! إن هذا الأمر لم يدهشني وحدي، بل أدهش عدداً آخر من الناس أيضاً. وكان بيتر ألكسندروفتش ميوسوف، قريب زوجة فيدور بافلوفتش الأولى، الذي سبق أن تحدثت عنه، كان في ذلك الحين يقيم عندنا في الأرض التي يملكها بضواحي مدينتنا. فلقد جاء من باريس التي اتخذها مقراً له. إن بيتر ألكسندروفتش ميوسوف هذا كان من أشد الناس دهشة حين تعرف بالشاب إيفان الذي أثار اهتمامه الشديد، وأصبح يحس بالمنافسة بينه وبينه في شؤون العلم والثقافة العامة، على شيء من ألم يستشعره خفياً. كان يسر إلينا في كثير من الأحيان أثناء تلك الفترة حين يتحدث عنه، قائلاً: «هذا رجل ذو كبرياء. ولن يصعب عليه أن يجني رزقه، والآن أيضاً يملك مالاً للسفر إلى الخارج، فماذا جاء يفعل هنا؟ واضح أنه لم يأت إلى أبيه ليحصل على مال، لأن أباه لن يعطيه شيئاً بحال من الأحوال. أما أن يسكر وأن يسترسل في المجون فذلك ليس من أذواقه وميوله، ومع ذلك فإن الشيخ أصبح لا يستطيع الاستغناء عنه، من شدة تعلّقه به!». هذا صحيح. ولقد كان واضحاً أن الشاب يؤثر في أبيه بعض التأثير، وكان يبدو أن أباه يطيعه في بعض الأحيان، رغم أن طبعه كان نزقاً للغاية، ورغم أنه يكون في بعض المناسبات شرساً، حتى لقد أخذ الأب يحتشم في سلوكه قليلاً.

ولم يعلم أحد إلا بعد ذلك بزمن طويل أن إيفان فيدوروفتش قد كان من أسباب مجيئه أن أخاه الأكبر دمتري فيدوروفتش قد طلب منه ذلك ليهتم بمصالحه. وفي هذه الفترة بعينها، أثناء إقامته تلك

بمدينتنا، إنما عرف ذلك الأخ الذي لم يكن قد رآه من قبل في يوم من الأيام، رغم أنه قد أخذ يراسله قبل سفره إلى موسكو في موضوع قضية هامة تتعلق خاصة بدمتري فيدوروفتش. وسأشرح للقارئ بالتفصيل ماذا كانت تلك القضية، حين يجيء أوان الكلام عليها. ومع ذلك يجب أن أقول إنني حتى بعد أن اطّلعت على هذه الظروف الخاصة، ظللت أجد سلوك إيفان فيدوروفتش سراً محيّراً، وظللت أعد زيارته لمدينتنا أمراً لا أجد له تعليلاً ولا تفسيراً.

أضيف إلى هذا أن إيفان فيدوروفتش كان يُشعر الناس بأنه يتدخل وسيطاً ومصلحاً بين أبيه وأخيه الأكبر دمتري فيدوروفتش الذي دخل منازعة كبيرة مع الأب بل أقام عليه دعوى قضائية.

أعود فأقول إن هذه الأسرة الصغيرة قد وجدت نفسها تجتمع آنذاك لأول مرة، فإذا ببعض أفرادها يرى البعض الآخر لأول مرة في الحياة. إن الابن الأصغر، ألكسي فيدوروفتش، هو الوحيد الذي كان يقيم منذ سنة في مدينتنا التي وصل إليها قبل أخويه. ما أصعب أن أتحدث عن ألكسي هذا في هذه القصة التي هي تمهيد للرواية، قبل أن أدخله إلى مسرح الأحداث! ومع ذلك لا بد أن أعزم أمري على قول بضع كلمات تكون مقدمةً للدخول في موضوعه أيضاً، ولو لأوضّح، منذ الآن، طابعاً غريباً جداً تتصف به هذه القصة: إنني مضطر في الواقع إلى أن أقدم بطلي للقارئ منذ أول لحظة لظهوره في الرواية في مسوح فتى يتأهب للترهب. إنه يعيش في ديرنا منذ قرابة سنة، متهيئاً لأن يعتكف فيه إلى آخر حياته فيما كان يبدو.

– 4 –

أليوشا، الابن الثالث

لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد (لقد دخل أخوه إيفان في الرابعة والعشرين، أما أخوهما دمتري فهو يشارف على الثامنة والعشرين). أريد أن أقول على وجه الإجمال إن الفتى أليوشا لم يكن فيه شيء من تعصب ديني، لا ولا كان غبياً إطلاقاً في رأيي، وإذا شئت أن أكشف عن جوهر رأيي فيه قلت: إنه، بكل بساطة، إنسان يفيض قلبه حباً للبشر، وذلك منذ السنين الأولى من حياته. فلئن اختار طريق الاعتكاف في الدير، فما ذلك إلا لأن هذا الطريق وحده اجتذبه في تلك الآونة وبدا له السبيل المثالية التي يجب أن تسير فيها حتى النهاية نفسه المشتاقة إلى نور الحب ضدّ ظلمات الكره والبغض في هذا العالم. أضف إلى ذلك أن هذا الطريق لم يجتذبه إلا بفضل التقائه فيه بذلك الراهب الشيخ من رهبان ديرنا، وهو الشيخ[14] زوسيما. الذي عدّه الشاب إنساناً فذاً وتعلق به عندئذٍ تعلقاً شديداً فيه كل الحرارة الأولى التي تتدفق في قلبه الظامئ. على أنني لن أنكر أن هذا الشاب كان منذ تلك الآونة غريب الأطوار جداً، حتى لقد كان كذلك منذ المهد. سبق أن ذكرت، في هذا الصدد، أنه بعد أن فقد أمه في السنة الرابعة من عمره، قد ظلت ذكراها ماثلة في خياله طوال حياته، فهو يرى وجهها ويرى ملاطفاتها

«كأنها حاضرة في هذه اللحظة نفسها أمامي». ذلك ما كان يقوله. إنكم تعلمون أن ذكرياتٍ من هذا النوع قد ترسخ في النفس، حتى في سن أصغر، وحتى منذ السنة الثانية من العمر، ولكنها لا تكون في مثل هذه الحالة إلا نقاطاً مضيئة تبرز من وسط الظلام، أو زاوية منفصلةً من لوحة كبيرة انطفأ سائرها وبلعته الظلمات، باستثناء تلك الزاوية. وذلك بعينه ما حدث له: لقد احتفظ الفتى بذكرى أمسية ساجية من أماسي الصيف، ونافذة مفتوحة، وأشعة مائلة ترسلها الشمس الغاربة (وهذه الأشعة المائلة هي ما يتذكره خيراً مما يتذكر أي شيء آخر)، وأيقونة في ركن من الغرفة، وسراجٍ صغير يشتعل أمام الأيقونة، والأم راكعة على ركبتيها ناشجة منتحبة قد ألمّت بها الهستيريا وأخذت تطلق صرخات حادة وأنّات موجعة، ثم إذا هي تمسكه بذراعيها على حين فجأة وتشده إلى صدرها شداً قوياً يؤلمه، وتبتهل إلى السيدة العذراء أن تحميه، وأن ترعى هذا الطفل الذي كانت تمده إلى الأيقونة كأنما لتضعه في حمى أم الرب... وتظهر خادمة الطفل فجأة في الغرفة، فيبدو في وجهها ذعر شديد، وتسارع تنتزع الطفل من بين يدي أمه. يا لها من لوحة! لقد انحفرت صورة وجه الأم في ذاكرة أليوشا في تلك اللحظة. وهو يؤكد أن الوجه كان مروّعاً حتى الجنون ولكنه كان جميلاً جداً، هذا على قدر ما يستطيع أن يتصوره. ولكن كان يندر أن يعزم أليوشا أمره على الكلام عن هذه الذكرى. لقد كان أليوشا أثناء طفولته ومراهقته قليل الإفصاح عن نفسه، بل لقد كان صموتاً، لا عن شك وحذر طبعاً، ولا عن خجل أو وجل، ولا عن تجهّم في الطبع والمزاج... أبداً... بل بسبب شيء خاص في نفسه، بسبب همّ داخلي، شخصي تماماً، لا شأن له بالآخرين، يبلغ عنده من خطورة الشأن أنه ينسيه حتى وجود الناس.

ومع ذلك كان أليوشا يحب البشر. وكان مظهره يدل على أنه عاش حياته كلها في اندفاعة ثقة بالناس، ومع ذلك لم يعدّه أحد في يوم من الأيام امرءاً غراً أو ساذجاً. كان في نفسه شيء لا أدري ما هو، شيء يُشعر الآخرين شعوراً واضحاً (وعلى مدى حياته فيما بعد) بأنه لا يريد أن يحكم على أخيه الإنسان، بأنه يأبى أن يتهم أو يُدين، وبأنه لن يدين أبداً. حتى لقد كان يبدو أنه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه، ولكن بمرارة حزينة في كثير من الأحيان. ووصل من ذلك إلى أن لا يدهشه شيء، وأن لا يخيفه شيء، وذلك منذ غضارة صباه. وحين بلغ العشرين من عمره ووصل إلى منزل أبيه، الذي كان حقاً ماخور فحش وعهر، كان هذا الفتى المحافظ على عفته وطهارته يقتصر على الابتعاد صامتاً إذا شعر بأنه لا يستطيع أن يحتمل رؤية هذا المشهد أو ذاك، ولكن دون أن يظهر عليه شيء من الاحتقار أو النقد لأي إنسان. أما أبوه، الطفيلي القديم الذي كان لهذا السبب سريعاً إلى إدراك الإهانة والشعور بها، فقد استقبله في أول الأمر بشك وحذر وريبة، وشعر نحوه بعواطف ليس فيها ود كثير («إنه مسرف في الصمت تجاهي، مسرف في التفكير دون أن يقول شيئاً»)، ولكنه أصبح بعد أسبوعين في أكثر تقدير يعانقه ويضمه إلى ذراعيه في كل لحظة. صحيح أنه كان يفعل ذلك بدموع السكران وعواطف المخمور. ولكن كان واضحاً مع ذلك أنه يحبه حباً صادقاً عميقاً، كما لم يحب رجل من نوعه أحداً...

وكان جميع الناس يحبون أليوشا على كل حال. لقد أيقظ هذا الشاب عواطف المحبة والمودة له في نفوس كل من عرفوه، وذلك منذ طفولته. وأيام كان يعيش في منزل المحسن إليه والمربي له، إيفيم بتروفتش بولينوف، بلغ من رضى جميع أفراد الأسرة عنه ومن

إعجابهم به أنهم كانوا يعدونه ابناً من أبناء الأسرة تماماً، رغم أنه قد دخل ذلك المنزل طفلاً صغيراً عاجزاً عجزاً تاماً عن أي مكر أو حساب، لقد دخل أليوشا ذلك المنزل وهو في سن لا يمكن الافتراض فيه شيئاً من فن الممالأة والتملق والإرضاء، أي فن إجبار الآخرين على حبه. لقد أوتي أليوشا موهبة حمل الآخرين على حبه حباً شديداً بحكم طبيعته، فالناس يحبونه من تلقاء أنفسهم، دون أن يحتال هو لذلك. هكذا كان شأنه في المدرسة أيضاً، رغم أنه كان في ظاهره من أولئك الأطفال الذين لا بد أن يوقظوا في رفاقهم الحذر والشك، وأن يجلبوا لأنفسهم سخريات زملائهم، بل وعداوتهم في كثير من الأحيان. لقد كان يتفق لأليوشا كثيراً أن يعتزل رفاقه في فترات الراحة ببني الدروس، فيغرق في التأمل. كان أليوشا يحب كثيراً، منذ طفولته، أن ينزوي في ركن من الأركان يقرأ كتاباً من الكتب؛ ومع ذلك فقد أحبه التلاميذ حباً عظيماً، حتى لقد ظل طوال حياته المدرسية أثير رفاقه من دون منازع. كان لا يتحمس إلا نادراً، بل وكان لا يبدو في العادة مرحاً، ولكن يكفي أن تنظر إليه حتى تدرك أن ذلك لا يرجع إلى تجهمه، وإنما هو إنسان ذو نفس هادئة صافية رائعة. وكان لا يرغب أبداً في أن يظهر قيمته لرفاقه، ولعل هذا هو السبب في أنه كان لا يخشى أحداً. ولكن الصبية لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يزهو بشجاعته ولا يتباهى بها، بل يظل بسيطاً كأنه لا يشعر بشجاعته وجسارته. وكان لا يحتفظ أبداً بذكرى إساءة نالته أو إهانة أُلحقت به. وكثيراً ما كان يتفق له أن يبادر إلى مخاطبة الشخص الذي ناله بالإساءة، وذلك بعد وقوع الحادثة بساعة واحدة، فكان يبدو في كلامه عندئذٍ من الثقة والصفاء ما يُشعر المرء بأن شيئاً لم يحدث بين الرفيقين. كان لا يبدو عليه،

في مثل تلك المناسبات، أنه كان ينسى الإساءة عرضاً أو يغفرها عامداً، وإنما هو يرى أن الإساءة لم تحدث، فكان ذلك يفتن الصبية ويسحرهم فوراً. ولم يكن فيه إلا صفة واحدة أغرت رفاقه، في جميع فصول المدرسة، من أولها إلى آخرها، بأن يمازحوه، لا عن رغبة خبيثة في السخرية بل لأن ذلك كان يفرحهم ويشيع في نفوسهم المرح، ذلك هو حياؤه الشديد المفرط وعفته. إن الأحاديث التي يتبادلها التلاميذ عن النساء، والتعابير التي يستعملونها في هذا المجال، كانت أموراً لا يطيق الصبي أليوشا أن يسمعها. ومن المؤسف أن هذه الأحاديث وهذه التعابير لا تنفصل عن الحياة المدرسية ولا يمكن استئصالها منها. ورُبَّ تلاميذ أطهار النفس والقلب، رُبَّ تلاميذ ما يزالون أطفالاً صغاراً، يجدون لذة كبيرة في أن يتحادثوا في هذه الأمور، بصوت عالٍ في كثير من الأحيان، وأن يصفوا صوراً أو مشاهد قد يستحي حتى الجنود في الثكنات أن يتكلموا فيها. الجنود؟ إلا إن هؤلاء ليجهلون أو لا يفهمون كثيراً من الأمور التي أصبحت في أيامنا هذه مألوفة أو شبه مألوفة عند الأطفال الصغار من أبناء الطبقات المثقفة والطبقات العليا من الشعب. والحق أن ذلك لا يجب أن يُعدّ فجوراً، أو حتى استهتاراً، لأنه ليس لديهم صادقاً ولا عميقاً، وما هو إذن بالخروج عن الأخلاق حقاً، وإنما هو نوع من الإباحية الكلامية السطحية التي يحلو للتلاميذ أن يعدوها علامة رهافة في الذوق، ودليل جرأة خليقة بأن تُقلّد. فلما لاحظ التلاميذ أن هذا «الفتى الشهم أليوشا كارامازوف» يسارع إلى سدّ أذنيه حين يدور الحديث على «هذه الأمور»، أصبح يلذ لهم أن يتحلقوا حوله، ينطقون بعبارات بذيئة وهم يبعدون يديه عن أذنيه بالقوة. فكان الفتى عندئذٍ يتخبط بينهم، ويرتمي على الأرض، ويخفي

وجهه، ولكن دون أن ينطق بكلمة، ودون أن يثور، وإنما هو يتحمل الإساءة صامتاً. وانتهى الأمر بالتلاميذ إلى أن تركوه وشأنه، وعدلوا عن معاملته معاملة «بنت»، حتى أن السخرية حول هذا الموضوع قد حلّ محلها نوع من الرأفة به والعطف عليه. وكان أليوشا من جهة أخرى تلميذاً ممتازاً، ولكنه لم يكن أول تلاميذ صفه في يوم من الأيام.

ظل أليوشا يواظب على مدرسة المقاطعة سنتين بعد موت إيفيم بتروفتش. إن أرملة إيفيم بتروفتش الحزينة التي لا يجد العزاء إلى قلبها سبيلاً قد سافرت بعد وفاة زوجها فوراً إلى إيطاليا، وأقامت هنالك زمناً طويلاً مع أسرتها كلها التي تتألف من نساء فقط. فانتقل أليوشا إلى منزل سيدتين تَمُتّان إلى أسرة بولينوف بقربى بعيدة، ولم يكن قد رآهما قبل ذلك، حتى لقد كان يجهل هو نفسه ما هي الترتيبات التي استقبلته هاتان السيدتان على أساسها. تلك سِمة بارزة من سِمات طبعه، هي أنه كان لا يهمه أبداً أن يعرف بأي مال يعيش وعلى نفقة من يعيش! كان من هذه الناحية يختلف كل الاختلاف عن أخيه الأكبر إيفان فيدوروفتش الذي عاش حياة شديدة البؤس والفقر والعَوَز خلال السنتين الأوليين من دراسته الجامعية، وعمل عملاً مضنياً من أجل أن يجني رزقه، وشعر منذ الطفولة بكثير من المرارة والمذلّة والهوان لأنه كان يأكل خبز البر والإحسان في منزل الرجل الذي كفله. على أننا لا نستطيع أن نقسو في الحكم على هذه السِّمة الغريبة في طبع ألكسي، إذ يكفي أن نعرفه ولو قليلاً حتى نقتنع فوراً بأنه كان في شؤون المال واحداً من أولئك الشبان المجانين الذين إذا هبط على أيديهم مبلغ ضخم من المال عرضاً لم يترددوا في أن يهبوه لأول قادم أو أن ينفقوه في عمل من أعمال الخير، أو حتى أن

يسلّموه لوغد حاذق متى سألهم ذلك. وفي وسعنا أن نؤكد أن أليوشا كان يجهل قيمة المال بوجه عام، وإنما يجب أن نفهم هذا الكلام على المجاز لا على الحقيقة طبعاً. كان أليوشا إذا أعطى شيئاً من المال ليكون في جيبه ينفق منه عند الحاجة (وهو لا يطلب شيئاً من ذلك في يوم من الأيام) كان يتفق له إما أن يظل المال في جيبه أسابيع طويلة لا يعرف ماذا يصنع به، وإما أن ينفقه بلا حساب فإذا بكل شيء يختفي في غمضة عين. إن بيتر ألكسندروفتش ميوسوف، وهو رجل من أكثر الناس دقة في شؤون المال، ومن أشدهم تقديساً للأمانة البرجوازية، قد قال عن ألكسي يوماً بعد أن لاحظه عن كثب: «لعل هذا الفتى هو الإنسان الوحيد في هذا العالم الذي يمكنك أن تتركه وحيداً بلا مَوْرِد في وسط مدينة كبرى لا يعرفها، ثم إذا هو لا يهلك من الجوع والبرد أبداً لأنه سيأخذه فوراً أحدهم فيطعمه ويدبر أموره... فإذا لم يوجد مثل هذا الشخص فسيدبر أموره بنفسه عندئذٍ بأيسر طريقة... ولن يكلفه ذلك أي جهد ولن يحمّله أي مذلّة.. والشخص الذي سيضمه إليه لن يشعر بعبئه، بل لعله سيجد في ذلك لذة كبرى».

لم يتم أليوشا دراسته في مدرسته الثانوية. كان قد بقي عليه أن يقضي في المدرسة سنة أخرى حتى يتم دراسته فيها، حين أعلن في ذات يوم للسيدتين اللتين كان يقيم في منزلهما أنه سيذهب إلى أبيه لأمر ينتويه. ندبت السيدتان حظه كثيراً، حتى لقد حاولتا أن تصداه عن عزمه. ولم تكن الرحلة تكلف نفقة باهظة، وإذ خشيتا أن يرهن ساعته - وهي هدية أهدتها إليه أسرة المحسن إليه قبل سفرها إلى الخارج - فقد زوّدتاه بمبلغ وافر من المال، وأعطيتاه ثياباً جديدة وملابس داخلية. ولكنه رد إليهما نصف المبلغ قائلاً إنه يحرص

حرصاً مطلقاً على أن يسافر في الدرجة الثالثة من القطار. فلما وصل إلى مدينتنا أبى أن يجيب عن الأسئلة الأولى التي ألقاها عليه أبوه («ماذا دهاك، يا بنيّ، حتى جئت إليّ قبل أن تتم دراستك؟»)، حتى لقد أظهر من الشرود والتأمل أكثر مما عُهد فيه. ذلك ما قيل. وسرعان ما عُرف أنه كان يحاول أن يعرف مكان قبر أمه. وقد اعترف آنذاك هو نفسه، على كل حال، بأن ذلك هو السبب الوحيد الذي دفعه إلى المجيء. ولكنني لا أعتقد أن هذا السبب كافٍ لتعليل رحلته هذه. ولعله كان يجهل هو نفسه في تلك الآونة الأسباب العميقة التي حملته على المجيء، ولعلّه لا يستطيع أن يقول ما هي تلك القوى التي أنبجست فجأة في كيانه ثم صعدت إلى سطح نفسه فدفعته دفعاً لا سبيل إلى مقاومته في هذه الطريق الجديدة التي كان يجهلها ولكنه لا يملك أن يتجنبها. لم يستطع فيدور بافلوفتش أن يدله على المكان الذي دفنت فيه زوجته الثانية. إنه لم يزر قبرها مرة واحدة منذ شيّع جنازتها، وقد أصبح بعد انقضاء ذلك العدد كله من السنين لا يتذكر أين دُفِنت. . .

هنا يجب أن أقول كلمة عن فيدور بافلوفتش. لقد أقام فيدور بافلوفتش قبل هذه الأحداث التي نصفها الآن مدة طويلة بعيداً عن مدينتنا. إنه بعد وفاة زوجته الثانية بثلاث سنين أو أربع، قد سافر إلى جنوب روسيا، واستقر في أوديسا حيث عاش عدة سنين متصلة. وهناك، في أوديسا، تعرف بعدد كبير من «أنواع اليهود» على حد تعبيره، حتى أصبح يُستقبل «لا في منازل يهود فحسب، بل في منازل عبريين أيضاً». فمن حقنا إذن أن نقدِّر أنه في تلك الفترة من حياته إنما نمّى وحسّن وجوّد فنه في تصريف الأعمال وإرباء الأموال. ولم يعد إلى مدينتنا ليستقر فيها تماماً إلا قبل وصول أليوشا

بثلاث سنين. وقد لاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه قد شاخ كثيراً، رغم أنه لم يبلغ سن الشيخوخة بعد، كما اكتسب عادات فيها مزيد من الاستهتار والوقاحة من ذلك مثلاً أن هذا المهرّج القديم أصبح يحاول الآن في كثير من الغطرسة والعجرفة أن يجعل من الآخرين مهرجين مثله؛ وأصبح يتعاطى الفحش والفجور والغش لا كما كان يتعاطى ذلك في الماضي، بل بطريقة أدعى إلى مزيد من النفور. ولم يلبث أن فتح في مديريتنا عدة دكاكين لبيع الخمرة. وواضح أنه كان يملك رؤوس أموال ربما كانت تبلغ مائة ألف روبل أو شيئاً قريباً جداً من ذلك. وسارع كثير من سكان مدينتنا ومديريتنا يقرضونه أموالاً، لقاء رهون ثابتة بطبيعة الحال. وقد ضعف وتراخى في الآونة الأخيرة، وأصبح فيما يبدو لا يملك من الاتزان ما كان يملكه منه في الماضي؛ وأصبح سلوكه أقل تروياً وتأنياً ووعياً، فهو ما يكاد يشرع في أمر حتى يتركه إلى غيره، وهو يبعثر جهوده يمنة ويسرة بلا رابط يربط بينها. وأصبح يسكر مزيداً من السكر، فلولا خادمه الأمين جريجوري الذي دلف إلى الشيخوخة كثيراً هو أيضاً، والذي كان يسهر عليه سهر المربي تقريباً، إذن للقي فيدور بافلوفتش كثيراً من المتاعب والهموم. على أن مجيء ألكسي قد أثر فيه من الناحية النفسية تأثيراً حسناً فيما يظهر، فكأنه أيقظ في نفس هذا الرجل الذي شاخ قبل الأوان عواطف كانت مخنوقة منذ زمان طويل. كان كثيراً ما يقول لابنه أليوشا: «هل تعلم يا أليوشا أنك تشبه كليكوشا كثيراً؟» (كذلك كان يسمي امرأته المتوفاة، أمّ ألكسي). واستطاع أليوشا أخيراً، بفضل جريجوري، أن يهتدي إلى قبر كليكوشا. لقد قاده الخادم في ذات يوم إلى مقبرة المدينة ودلّه على صفيحة من الحديد غير غالية ولكنها أنيقة، كانت مهجورة في ركن بعيد، وقد نُقِش

عليها اسم المتوفاة وأصلها وسنها وتاريخ وفاتها، بل لقد كُتبت عليها في أسفل هذه الوقائع بضعة أبيات مقفّاة من شعر المناسبات الذي جرت العادة أن تُزَيِّن به قبور أبناء الطبقة المتوسطة من الناس. والأمر المدهش أن هذه الصفيحة إنما كانت قد وُضعت في ذلك المكان بعناية جريجوري الذي أمر بها للمرحومة كليكوشا ودفع ثمنها منه، وذلك بعد أن سافر فيدور بافلوفتش إلى أوديسا. لقد حاول جريجوري أن يذكّر مولاه مراراً بهذا الضريح، ولكنه لم يظفر منه بطائل، وسافر فيدور بافلوفتش غير عابئ بالقبور، وغير حافل بالذكريات. لم يُظهر أليوشا انفعالاً خاصاً أمام قبر أمه فاكتفى بأن استمع إلى ما رواه جريجوري جاداً متعالماً متحذلقاً عن اللوح المعدني كيف صنعه، وانطوى على نفسه بضع لحظات خافضاً رأسه ثم انصرف دون أن ينطق بكلمة، ثم لم يعد إلى زيارة المقبرة مرة أخرى ربما خلال سنة كاملة. على أن تذكّر هذا الحادث قد أثر في فيدور بافلوفتش بعض التأثير، فتصرف تصرفاً لم يكن يُتوقع منه. أخذ ألف روبل دون أن ينبئ أحداً بذلك، ومضى بها إلى ديرنا يسأل أن تُتلى صلوات على روح زوجته، لا زوجته الثانية، أم ألكسي، المسكينة كليكوشا، بل زوجته الأولى آديلائيدا إيفانوفنا، تلك التي كانت تضربه. وفي مساء ذلك اليوم سكر سكراً شديداً وسبّ الرهبان أمام أليوشا. لا شك أن فيدور بافلوفتش كان قليل التدين إلى أقصى حد، ومن المشكوك فيه أن يكون قد أشعل طوال حياته شمعة بخمسة كوبيكات أمام أيقونة. غير أن أفراداً من هذا النوع قد يتفق لهم أن يغزوهم اندفاع عجيب من عواطف مفاجئة وآراء غريبة.

سبق أن قلت إن وجهه قد تراخى وتغضن. والحق أن وجهه كان يحمل في تلك الآونة آثاراً تدل دلالة واضحة على طراز الحياة التي

عاشها وأنواع الأهواء التي عصفت به، فإلى الجيوب الطويلة المنتفخة التي كانت قد تشكلت تحت عينيه الصغيرتين اللتين تظلان دائماً مرتابتين وقحتين ساخرتين، وإلى الغضون الصغيرة العميقة الكثيرة التي كانت تخدد وجهه الذي كان صغيراً ولكنه مليء بالشحم، قد أضيف الآن، تحت ذقنه الدقيقة غدّة كبيرة من لحم سميك مستطيل كأنه كيس صغير، تضفي على وجهه سيماء حيوانية شهوانية منفرّة. وكان له أيضاً فم كبير نهم منتفخ الشفتين، تظهر فيه بقايا أسنان صغيرة سوداء توشك أن تكون قد نُخِرت تماماً. فكلما فتح فاه للكلام تناثر منه اللعاب. ولقد كان يحب أن يتندر على وجهه، ولكنه كان راضياً عنه على كل حال، فيما يظهر؛ كان يلح في كلامه خاصة على شكل أنفه الذي كان صغيراً دقيقاً ولكنه شديد التقوس. كان يقول: «هو أنف روماني حقاً، فإذا ضممت إليه غدّتي رأيت وجه نبيل من نبلاء روما في عصر الانحطاط». كان فيدور بافلوفتش يبدو معتزاً بذلك.

بعد أن اهتدى أليوشا إلى قبر أمه بزمن قصير أعلن لأبيه فجأة أنه ينوي أن يدخل الدير وأن الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئاً. وأضاف إلى ذلك قوله إن ذلك هو أعظم أمنياته، وإنه في هذه اللحظة الخطيرة من حياته يسأله بصفته أباه أن يأذن له بدخول الدير. وكان الشيخ يعلم من قبل أن الراهب العجوز زوسيما الذي انزوى في الدير واعتكف فيه قد أثر تأثيراً قوياً في «ابنه الوديع الطيّب».

قال بعد أن أصغى مطرقاً صامتاً إلى شروح أليوشا الذي لم يدهشه قراره هذا مع ذلك:

- لا شك أن هذا الشيخ زوسيما[15] هو خير أولئك الرهبان... هِمْ!... ذلك إذن ما تصبو إليه نفسك يا بني الوديع! (كان قد شرب، فهذا فمه يتسع فجأة في ضحكة سكران عريضة لا تخلو من

مكر وخبث)... هِمْ!... لقد تنبأت أنا بأنك ستنتهي إلى حيث انتهيت، هل تعلم؟ ها أنت ذا قد عزمت أمرك الآن. إنك تملك ألفي روبل هما لك وحدك... تلك ذخيرة طيبة... أما أنا يا ملاكي فلن أتركك قط، حتى إنني مستعد، إذا لزم الأمر، أن أدفع للدير الآن كل ما سيطلبه مني. ولكن إذا لم يطلبوا شيئاً، فلن نجبرهم إجباراً لن نزعجهم... أليس كذلك؟ ثم إنك لا تحتاج من المال إلى أكثر مما يحتاج طائر من طيور الكناري... تكفيك حبتان في الأسبوع... إنني أعرف ديراً يملك، في خارج المدينة، دوراً صغيرة. وجميع الناس يعلمون أن هذه الدور تضم «زوجات الدير»... ذلك هو الاسم الذي تُسمّى به تلك النسوة هناك... إن عدد هاته الزوجات ثلاثون فيما أعلم... لقد ذهبت إلى هناك، وأعترف أن الأمر شائق، في نوعه طبعاً، من ناحية التنوع. ليس ثمة إلا عيبٌ وحيد، هو التعصب القومي، فالنساء جميعاً روسيات ليس بينهم فرنسية واحدة، مع أن من السهل استقدام أجنبيات، لأن المال لا يعوز رهبان الدير، ومتى عرفت الفرنسيات ذلك جئن زرافات ووحدانا... أما هنا فلا شيء من ذلك! ليس للدير زوجات... وعددهم مائتان هؤلاء الرهبان! لا شيء هنا إلا العفة والشرف. وهم أناس أطهار... أعترف أن... هِمْ... أتريد، إذن، أن تكون راهباً؟ إنني أرثي لحالك حقاً يا أليوشا، صدقني! هل تعلم أنني تعلقت بك؟.. على كل حال، رُبّ ضارة نافعة، مصائب قوم عند قوم فوائد: سوف تدعو لنا الله على الأقل نحن الضالين، ذلك أننا قد أثمنا كثيراً على هذه الأرض. إنني أتساءل منذ زمن طويل: تُرى من ذا الذي سيصلي لي في يوم من الأيام؟ هل في العالم كله إنسان يمكن أن يصلي لي؟» يا ولدي المسكين، إنني غبي جداً في هذه

الأمور، لو علمت... غبي جداً، صدقني!... ولكن مهما أكن غبياً في هذه الأمور فقد فكرت فيها مع ذلك، فكرت فيها طويلاً. صحيح أنني لم أفكر فيها أحياناً كثيرة، ولكنني مع ذلك فكرت فيها. قلت لنفسي: «يستحيل أن تنسى الشياطين التقاطي بخطاطيفها حين أموت»، ثم تساءلت: «خطاطيف؟ من أين لها الخطاطيف؟ وممّ صنعت هذه الخطاطيف؟ ألعلها صنعت من جديد؟ فأين صنعت إذن؟ ألعل عندهم إذن مصنعاً؟» إن الرهبان، هناك، في الدير، يؤمنون مثلاً بأن في الجحيم سقفاً. أما أنا فلا مانع عندي من أن أعتقد بوجود الجحيم، ولكن شريطة أن لا يكون له سقف. إنني أؤثر على إيمانهم إيماناً ألطف، إيماناً أكثر ضياء، إيماناً أقرب إلى مذهب لوثر بمعنى من المعاني. ثم ألا يستوي أن يكون للجحيم سقف وأن لا يكون له سقف؟ هذه هي المسالة الأزلية اللعينة! ولكن إذا لم يكن ثمة سقف. لم يكن ثمة خطاطيف أيضاً؛ وبدون خطاطيف لا تجري الأمور، فنعود إلى ذلك السؤال نفسه... من عسى يلتقطني بعد موتي بخطاطيف؟ وما عسى يحدث إذا لم تلتقطني الشياطين؟ أين تكون «الحقيقة» عندئذٍ في هذا العالم؟[16] Il faudrait les inventer، من أجلي أنا خاصة[17]، من أجلي وحدي، لأنني مذنب خالع العذار يا أليوشا، لو علمت!..

قال أليوشا بصوت عذب جاد وهو يتفرس أباه بانتباه:

- لا ليس هناك خطاطيف.

- صحيح، هي أطياف خطاطيف فحسب؟ فهمت! فهمت! أعرف هذا يذكرني بفرنسي وصف الجحيم كما يلي:

J'ai vu l'ombre d'un cocher, qui avec l'ombre d'une bross
.[18]frottait l'ombre d'une carrosse)

من أين عرفت يا طائري الصغير أن ليس ثمة خطاطيف؟ إن عشت عند الرهبان لتقولنّ غير هذا الكلام. إذهب إليهم على كل حال. إبحث لديهم عن «الحقيقة»، فإذا وجدتها فتعال إليّ وحدثني عنها، فيكون الرحيل عن الحياة بعد ذلك أسهل عليّ، لأنني أكون قد عرفت ما ينتظرني في الآخرة! ثم إن الدير مكان يناسبك أكثر من منزلي الذي يعيش فيه أب عجوز سكير مع هاته النساء... رغم أنك بما لك من عفة وطهارة لن تتسخ يوماً بهذه الأشياء، كما لا يمكن أن يتسخ بها ملاك. وإن شاء الله هناك أيضاً لن تتسخ بأي شيء، لا أدري هل تستطيع البقاء مع هؤلاء الرهبان؟ لذلك آذن لك أن تلتحق بالدير لأنني أعتمد على ذلك. ليس الذكاء ما يعوزك. إن النار تشتعل ثم تنطفئ. فمتى شفيت رجعت إليّ. لسوف أنتظرك. أنت الإنسان الوحيد في هذا العالم الذي لم يتهمني ولم يُدِنّي، ذلك أشعر به يا صغيري الطيب الشهم، وهل يمكن أن لا أشعر به؟

قال الأب ذلك وأخذت دموعه تهطل. كان عاطفياً: كان خبيثاً وعاطفياً معاً.

- 5 -

مشايخ الرهبان

قد يميل بعض قرائي إلى الاعتقاد بأن الشاب الذي أتحدث عنه إنسان مريض شديد الاندفاع ذو طبيعة فقيرة، وأنه واحد من أولئك الحالمين الشاحبة وجوههم الضعيفة صحتهم الضاوية أجسامهم. الواقع أن أليوشا كان في تلك الآونة عكس ذلك: مراهقاً في التاسعة عشرة من عمره فياض العافية مورّد الخدين مضيء النظرة؛ بل لقد كان شديد الجمال قوي البنية. وهو مربوع القامة بنّي الشعر، له وجه متسق القسمات على شيء من الاستطالة، تسطع فيه عينان رماديتان قاتمتان متباعدتان تفيضان حياة. إنه يبدو شارد الذهن كثير التفكير، وهو في الظاهر هادئ هدوءاً كبيراً. رُبّ قائل يقول إن تَوَرُّد الخدين لا ينفي شدة التعصب الديني ولا ينفي الميل إلى الصوفية. ولكنني أعتقد أن أليوشا كان واقعياً أكثر من أي إنسان آخر. صحيح أنه اكتسب في الدير إيماناً بالمعجزات وأنه كان صلباً جداً في هذه الناحية، ولكن المعجزات لا تستطيع في رأيي أن تزعزع فكر إنسان واقعي. ذلك أن المعجزات ليست هي التي تولد الإيمان لديه. إن الواقعي الحقيقي إذا كان غير مؤمن يستطيع دائماً أن يجد في نفسه القوة والقدرة على إنكار معجزة من المعجزات، فإذا أكدت هذه المعجزة نفسها بحادثة لا سبيل إلى جحودها آثر أن يشك في

صدق حواسه على أن يسلم بالواقع. حتى إذا قرر أخيراً أن يعترف بهذا الواقع عدّه ظاهرة طبيعية كانت إلى ذلك الحين مجهولة له لا أكثر. إن المعجزات لا تولد الإيمان لدى الواقعي. بالعكس: فإن الإيمان هو الذي يستدعي لديه المعجزات. فمتى أصبح مؤمناً سلّم بالمعجزات حتماً، بحكم واقعيته نفسها. لقد أعلن الرسول توما[19] أنه لن يؤمن بشيء قبل أن يرى، ولكنه حين رأى قال: «أنت ربي وإلهي». فهل المعجزة هي التي أدت به إلى الإيمان؟ أغلب الظن أن لا... وأنه إنما آمن لأنه كان يريد أن يؤمن، بل لعله كان مؤمناً إيماناً عميقاً، من قبل، في سره منذ كان يقول: «لن أؤمن ما لم أشاهد».

وقد يُظنّ أن أليوشا كان محدود العقل قليل الذكاء، فهو لم يتم دراسته في الكلية، إلخ. فأما أنه قطع دراسته فذلك أمر لا أنكره، غير أن حسبانه رجلاً غبياً أو محدوداً أمر فيه ظلم كبير. ولا أستطيع هنا إلا أن أكرر ما سبق أن قلته: وهو أنه لم يختر هذه الطريق إلا لأنها السبيل الوحيدة التي كانت تجتذبه في تلك الآونة وبدت له السبيل المثالية لخلاص روحه المشتاقة إلى النور من عالم الظلمات دفعة واحدة. تذكروا أيضاً أن هذا الشاب كان من أبناء عصرنا الأخير بعض الشيء، أي كان إنساناً ذا طبيعة صادقة شريفة تريد «الحقيقة» وتسعى إليها وتؤمن بها. فلما اهتدى إليها أصبح يرغب رغبة عارمة في أن يقف على خدمتها كل روحه، وأن يقوم بمآثر من غير إبطاء أو تلكؤ، يحرقه الشوق إلى التضحية بكل شيء من أجلها، ولو كان هذا الشيء هو الحياة ذاتها. من المؤسف أن الشباب الذين من هذا النوع لا يدركون أن التضحية بالحياة قد تكون بين جميع أنواع التضحيات أقلها صعوبة في كثير من الأحوال، وأن التضحية بخمس

سنين أو ستة من حياتهم في معمعان الشباب، من أجل الدراسة الشاقة والتعلم الصعب، ولو لمضاعفة قواهم بغية أن يخدموا بعد ذلك العقيدة التي يريدون أن ينذروا أنفسهم لها، وبغية أن يحققوا مآثرهم التي يحلمون بها تحقيقاً أتم وأكمل أقول إن التزامهم أنفسهم ببذل هذا الجهد يتطلب شجاعة أكثر من الشجاعة التي تتطلبها التضحية بحياتهم... تلك صورة أخرى من التضحية قد تفوق في كثير من الأحوال قوى هؤلاء الشباب. صحيح أن أليوشا قد اختار طريقاً تعارض الطريق التي كان يسلكها في ذلك الزمان أكثر معاصريه، ولكنه اندفع في هذه الطريق برغبة قوية حارة في اجتراح المأثرة من غير إبطاء لا تقل عن رغبة الآخرين. إنه منذ فكر تفكيراً عميقاً فأذهله الإيمان بوجود الله وخلود الروح، قال لنفسه على نحو طبيعي تماماً: «إنني أريد أن أعيش للخلود، وإنني أرفض التسويات وأنصاف الحلول». ولو قد انتهى إلى نتيجة أخرى فاقتنع بأنه لا وجود لله ولا وجود للخلود لما اختلف الأمر، ولأصبح على الفور ملحداً واشتراكياً (لأن الاشتراكية ليست مسألة الطبقة العاملة فحسب أو ما يطلق عليه اسم «الفئة الرابعة»، وإنما هي قبل كل شيء نظرة إلحادية وتجسيد حديث للكفر بالدين. إنها مسألة برج بابل التي يحاول البشر أن يشيّدوه بلا إله بالضبط، لا ليرتفعوا من الأرض إلى السماوات، بل لينزلوا السماء إلى الأرض). ما كان لأليوشا أن يتصور أن يظل يعيش كما كان يعيش في الماضي. لقد قيل: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء... وتعال اتبعني»[20]. فحدَّث أليوشا نفسه قائلاً: «هل في وسعي أن أهب روبلين فحسب، بدلاً من أن أهب «كل شيء»؟ وإذا أردت أن أستجيب لنداء «اتبعني» فهل أكتفي بالذهاب إلى الصلاة؟» من الجائز

أن يكون الدير المجاور لمدينتنا قد احتل مكاناً في ذكريات طفولته، وأن تكون أمه قد مضت به إلى الدير في الماضي للصلاة، ومن الجائز أن تكون رؤيا الأشعة المائلة ترسلها الشمس الغاربة أمام الأيقونة التي كانت ترفع أمه ذراعها نحوها وتمده إليها، من الجائز أن تكون هذه الرؤيا قد أثرت عليه أيضاً. ومهما يكن من أمر فقد جاء إلى مدينتنا في ذلك الوقت مفكراً حالماً، ربما للاستطلاع وحده، ربما ليرى هل يعطي «كل شيء» أم يعطي روبلين فحسب. وفجأة التقى في الدير بشيخ الرهبان ذاك...

إنه شيخ الرهبان زوسيما، كما سبق أن أشرت إلى ذلك. وقد آن لي أن أقول هنا بضع كلمات عن الدور الذي يمثله، على وجه عام، شيوخ الرهبان في أديرتنا، سوف أحاول، رغم أنني أشعر، على أسف، بأنني لست بالعالِم الكُفْء في هذا المجال، وبأن معارفي ليست راسخة جداً في هذه الشؤون، سأحاول أن أشرح الأمر شرحاً موجزاً سطحياً. ويجب أن أذكر قبل كل شيء أن المختصين في هذه الأمور والمطّلعين عليها يؤكدون أن شيوخ الرهبان والمؤسسة التي يمثلونها لم تظهر لدينا في الأديرة الروسية إلا في عهد متأخر بعض التأخر، في عهد لا يكاد يرجع إلى أكثر من مائة سنة، على حين أنها وجدت في الشرق الأرثوذكسي كله، وخاصة على جبل سينا وجبل آثوس منذ أكثر من ألف عام. ويقال إن شيوخ الرهبان هؤلاء قد وُجِدوا في روسيا في أزمنة بعيدة، أو لعلهم وُجِدوا فيها، ولكن ما أحاق ببلادنا بعد ذلك من مصائب، وما حل بها من الغزو التتري والاضطرابات الداخلية وانقطاع الصلات بالشرق بعد سقوط القسطنطينية[21]، قد قضى على هذه المؤسسة فلم يبق لشيوخ الرهبان وجود. ثم لم تقم هذه المؤسسة مرة أخرى بعد ذلك في بلادنا إلا

في نهاية القرن الماضي على يد أحد كبار المناضلين في سبيل الإيمان، ألا وهو بائيسي فيلتشكوفسكي(*)(22)، الناسك (كما يسمونه)، وعلى يد مريديه، غير أنها لم توجد خلال تلك المدة كلها، وهي تقارب مائة عام، إلا في عدد صغير من الأديرة، بل لقد أثارت عداوة شديدة لها وصلت أحياناً إلى حد الاضطهاد بصفتها بدعةً خارقة. ويقال إن هذه المؤسسة قد نَمَت خاصة عندنا في روسيا في المنسك الشهير، منسك كوزلسكايا أوبتينا(23). أما متى دخلت الدير المجاور لمدينتنا، ومَنْ أدخلها إلى هذا الدير، فذلك أمر أعترف بأنني أجهله، ولكني أعرف أنه قد تعاقب على هذا الدير ثلاثة شيوخ، آخرهم زوسيما. كان زوسيما يحس أنه يوشك أن يموت من الضعف والمرض، وكان لا يُعرف من الذي سيحل محله إذا مات. إن لهذه المسألة شأناً خطيراً بالنسبة إلى ديرنا الذي لم يكن يملك شيئاً يمكن أن يكفل له الشهرة: فلا رفات قديسين، ولا أيقونات لها معجزات مُعْتَرَف بها، بل ولا أساطير جميلة تضمن للدير أن يرتبط بتاريخنا القومي. إن هذا الدير لم يشارك في أي عمل باهر، ولم يسهم في أي عمل وطني. إنه لم يحصل على المجد ولم يصبح شهيراً في روسيا كلها إلا بفضل مشايخه الذين كانوا يجتذبون الحجاج زرافات من جميع أنحاء البلاد، من مناطق تبعد عن مدينتنا آلاف الفراسخ، رغبة في رؤية هؤلاء الرجال والاستماع إليهم. فما هو الشيخ على وجه التحديد؟ إنه إنسان يأخذ نفس المرء وإرادته وحريته ويُدخلها إلى نفسه وإرادته ويحتوي في ذاته جميع ما تجيش به نفوس مريديه من صبوات وأفكار. فحين يختار المريد شيخاً لنفسه يتنازل عن حريته، ويلزم نفسه بطاعة مطلقة، ناسياً ذاته كل النسيان. والذي يجتاز هذا الامتحان القاسي، ويرتضي تعلم الحياة على هذه

الطريقة الرهيبة، إنما يفعل ذلك بإرادته، أملاً في أن يصل، بعد مِحَنٍ طويلة، إلى التغلب على ذاته، وإلى أن يكتسب هكذا، بالطاعة المتصلة المستمرة، الحريّة الحقيقية، المطلقة! أي يتخلص من ذاته ويفلت من مصير أولئك الذين يطوفون في طريق الحياة دون أن يصلوا إلى معرفة أنفسهم، ودون أن يستطيعوا اكتشاف حقيقتهم. ونظام المشايخ هذا لم ينشأ من تأمل مجرد نظري، وإنما نشأ في الشرق من ممارسة يرجع عهدها إلى أكثر من ألف عام، قبل أن يدخل إلى بلادنا. إن الواجبات التي تشد الراهب إلى شيخه تمضي إلى أبعد من مجرد «الطاعة» التي كانت سائدة على الدوام في أديرتنا الروسية أيضاً. فإن الرابطة التي تربط الراهب بشيخه في هذا النظام تفترض ثقة دائمة لا حدود لها، هي نوع من الاعتراف المستمر للشيخ واتصال روحي بينهما أصبح لا يقبل الانفصام بحال من الأحوال. يُحكى مثلاً أن راهباً مبتدئاً من رهبان هذا النظام، في القرون الأولى من المسيحية، أبى أن يخضع لقاعدة فرضها عليه شيخه، فترك الشيخ والدير وذهب إلى بلد آخر، ذهب من سوريا إلى مصر، فاشتهر هناك بمزايا وأعمال عظيمة، واستطاع أخيراً أن يظفر بمجد الاستشهاد حين مات في سبيل الدين. وأخذت الكنيسة تستعد لدفنه على أنه قديس من القديسين، فما كاد الكاهن يعلن: «يا كفار، اخرجوا من المعبد»، حتى ارتفع التابوت الذي يضم رفات الشهيد فجأة وخرج من الكنيسة مسرعاً، وتكرر ذلك ثلاث مرات. وعُرف أخيراً أن هذا القديس الذي استشهد إنما خالف في الماضي أوامر شيخه وخرج على طاعته وهجره، فلذلك لا يمكن أن ينال الغفران، رغم جميع أعماله العظيمة، ما لم يأذن بذلك شيخه. واستدعى الشيخ، ولم يمكن دفن الراهب إلا بعد أن أعفاه شيخه من واجب

طاعته، تلكم مجرد أسطورة قديمة طبعاً، ولكن إليكم قصة حديثة صادقة: اعتكف راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون في عصرنا، اعتكف في دير بجبل آثوس، وهذا شيخه يأمره فجأة بأن يترك جبل آثوس هذا الذي ارتبط به الراهب ارتباطاً شديداً وتعلقت به نفسه تعلقاً عظيماً وأصبح يؤثره على كل ما عداه من أرجاء، لأنه وجد فيه شاطئ الأمان؛ أمره الشيخ أن يذهب أولاً إلى بيت المقدس فيحج إلى الأماكن المقدسة، وأن يعود بعد ذلك إلى شمال روسيا، إلى سيبيريا. قال له الشيخ: «هنالك مكانك لا هنا». حزن الراهب حزناً شديداً، واستبد به كرب خانق وبأس مضنٍ، فمضى إلى القسطنطينية، وسعى إلى رئيس البطاركة، وتوسل إليه أن يعفيه من واجب الطاعة. ولكن البطريرك أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، رغم رتبته، وبأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد في العالم أية سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب، إلا شيخه الذي فرضه عليه وألزمه به. هكذا يتمتع المشايخ بسلطة يمكن أن تصبح في بعض الأحوال مطلقة غير ذات حدود. وذلكم هو السبب في أن أنصار هذا النظام قد تعرضوا في كثير من أديرتنا في أول الأمر لمعارضة شديدة أوشكت أن تستحيل إلى اضطهاد. ولكن الشعب أصبح على الفور يجل المشايخ إجلالاً كبيراً ويقدسهم تقديساً عظيماً. من ذلك مثلاً أن مشايخ ديرنا كانوا يستقبلون زواراً يتوافدون عليهم حشوداً غفيرة من صغار الناس أو من عِلْية القوم، يظهرون لهم إكبارهم وإعجابهم ويُسرون إليهم، في مذلة، بما يساور نفوسهم من ريب وشكوك، وبما ارتكبوا من خطايا وآثام، وبما يقاسون من عذاب وآلام، طالبين إليهم أن يسدوا إليهم بالنصح وأن يمدوهم بالتوجيه والإرشاد. وقد استاء خصوم المشايخ من هذه الحظوة التي نالوها وهذه الثقة التي

اكتسبوها فادعوا فيما ادعوا أن هذه الطريقة مستبدة طائشة تفسد قداسة الاعتراف، مع أن ما كان يبوح به الرهبان المبتدئون أو الأشخاص العاديون باستمرار لهؤلاء المشايخ لم يكن يتم على أسلوب الاعتراف. غير أن نظام المشايخ هذا قد استقر أخيراً في بلادنا، وامتد شيئاً فشيئاً إلى أديرتنا. يجب أن نعترف، مع ذلك، أن هذا الأسلوب الذي يرجع عهده إلى أكثر من ألف عام، والذي كان الهدف منه تحقيق إصلاح روحي للإنسانية يرفعها من العبودية إلى الحرية، ويحقق لها كمالاً أخلاقياً، يمكن أن يصبح في بعض الأحوال سلاحاً ذا حدين، وأن يخلق لدى بعضهم، لا تواضعاً وسيطرة كاملة على الذات، بل غطرسة خبيثة وعنجهية شيطانية، أي أن يؤدي إلى القيود بدلاً من الحرية.

إن الشيخ زوسيما هو الآن في حوالي الخامسة والستين من عمره، كان أصلاً من الإقطاعيين، وانخرط في سالف الزمان، في صدر شبابه في العسكرية، وعمل ضابطاً في القفقاس. لا شك أن شيئاً ما كان ينبع من روحه، فأحدث في نفس أليوشا تأثيراً قوياً. كان أليوشا يعيش في الحجرة نفسها التي كان يعيش فيها الشيخ، وقد عطف الشيخ على أليوشا عطفاً كبيراً، فارتضى أن يكون له ولياً حميماً. يحسن أن نذكر هنا أن أليوشا، رغم أنه يعيش الآن في الدير، لم يكن قد ارتبط بعد بأي قاعدة، ولم يكن قد تقيد بأي أصول، فهو يستطيع أن يغيب عن الدير ما شاء له هواه أن يغيب، وربما غاب عن الدير أياماً بكاملها. ولئن ارتدى مسوح الرهبان، فلقد فعل ذلك بإرادته، حتى لا يتميز عن الرهبان في شيء. على أن من الواضح أنه كان يجد في ذلك رضى وغبطة أيضاً. ولعل خيال أليوشا المراهق قد افتتن افتتاناً قوياً بهالة السلطة ومهابة المجد اللتين

كانتا تحيطان بشيخه. ويقال إن زوسيما هذا كان قد اكتسب من طول ما استقبل خلال هذه السنين الكثيرة كلها جميع أولئك الذين كانوا يجيئون إليهم فيفتحون له قلوبهم راغبين رغبة قوية عنيفة في أن يسدي إليهم بنصائحه أو أن يشفيهم بأقواله، قد اكتسب قدرة غريبة على معرفة النفوس، وموهبة عظيمة في النفاذ إلى أعماق القلوب؛ حتى لقد أصبح فيما يقال، بعد الذي سمعه من اعترافات وعرفه من أسرار وما أفضى به إليه ذلك العدد الغفير من الناس من شجون قلوبهم ولواعج ضمائرهم الخفية المستترة، قد أصبح قادراً منذ أول نظرة يلقيها على وجه زائر مجهول على أن يحزر الغاية من مجيئه والرغبة التي تجيش في نفسه وحتى الآلام الخبيثة التي تعذب ضميره، فكان بهذه القدرة على التنبؤ يوقظ الدهشة ويبعث الاضطراب فيمن يلقونه لأول مرة، حتى ليكاد يرمي في قلوبهم الذعر حين يكتشف سر قلوبهم من قبل أن يفتحوا أفواههم بكلمة واحدة. وقد لاحظ أليوشا مع ذلك أن أكثر الأشخاص الذين كانوا يدخلون على الشيخ دون أن يعرفوه، من أجل أن يتحدثوا معه حديثاً حميماً لأول مرة، كان يبدو عليهم عند وصولهم اضطراب وخوف، حتى إذا خرجوا بعد ذلك من عنده كان جميعهم أو جميعهم تقريباً يخرج مطمئن البال متهلل الأسارير، وأن أشد الوجوه ظلاماً وجهامة في أول الأمر كان عندئذٍ يشع بضياء السعادة. ومما خطف بصر أليوشا من جهة أخرى أن الشيخ لم يكن قاسياً البتة. بالعكس: لقد كان حين يتحدث إلى الناس أميل إلى الفرح والمرح. وكان الرهبان يؤكدون أن الشيخ يحب خاصة أولئك الذين تحمل ضمائرهم عدداً أكبر من الآثام، وأن عاطفته تنصرف إلى من هم بين الناس أكثرهم خطايا. صحيح أنه كان بين رجال الدير، حتى في نهاية حياة الشيخ،

رهبان يحملون له كرهاً، ويشعرون نحوه بحَسَد، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة، وكانوا يلزمون الصمت، رغم أن بينهم شخصيات شهيرة كان لها في الدير نفوذ كبير، كذلك الراهب الذي كان من أقدم رهبان الدير، والذي اشتهر بما كان يأخذ به نفسه من صيام عن الطعام والكلام. غير أن أكثر الرهبان قد انحازوا إلى الشيخ نهائياً، وكان بينهم من يحبونه حباً عميقاً من صميم القلب، بل إن منهم من أخلصوا له إخلاصاً يوشك أن يكون تعصباً، فكان هؤلاء لا يترددون أن يعلنوا، خافضين أصواتهم مع ذلك، أن هذا الشيخ قديس، وأنه لا يجوز أن يتطرق إلى الأذهان أي شك في أنه قديس؛ وإذ كانوا يتوقعون موته قريباً، فقد كانوا يتوقعون أن تحدث معجزات مباشرة، وأن ينال الدير شهرة عظيمة في المستقبل القريب بفضل المرحوم.
وكان أليوشا أيضاً يؤمن إيماناً جازماً بما للشيخ من قدرة على المعجزات، مثلما كان مقتنعاً اقتناعاً قاطعاً بصدق حكاية التابوت الذي اندفع إلى خارج المعبد. لقد شهد أليوشا مراراً استقبال زوار يصطحبون أولادهم أو أهلهم المُقْعَدين، جاءوا يسألون الشيخ أن يضع يديه عليهم وأن يدعو الله لهم، فما هو إلا زمن قصير قد لا يتجاوز يوماً واحداً فإذا هم يعودون فيرتمون على قدمي الشيخ شاكرين له أنه شفى مرضاهم! لم يخطر على بال أليوشا أن يتساءل هل تمّ الشفاء بمعجزة أم كان الشفاء تحسناً طبيعياً في حالة أولئك المرضى، لأن إيمانه بما يملكه الشيخ من قدرة فوق طبيعية كان إيماناً عميقاً، ولأن مجد شيخه قد أصبح في نظره نصراً شخصياً له. كان قلبه يشعر بفرح عميق، وكان وجهه يضيء بسعادة عظيمة، حين كان الشيخ يقترب من جمهرة الناس البسطاء الذين ينتظرونه عند مدخل المنسك، حاجّين إليه من جميع أرجاء روسيا، بغية أن يروه

وأن ينالوا مباركته: كانوا ينطرحون أرضاً أمامه، ويبكون، ويقبِّلون يديه، بل ويقبلون الأرض التي سار عليها ويصيحون صيحات الوجد والنشوة. وكانت النساء يمددن إليه أطفالهن أو يجئنه بالكليكوشات المريضات ليشفيهن. فكان الشيخ يحدثهن، ويتلو دعاء قصيراً، ويباركهن قبل أن يصرفهن. وقد أصبحت نوبات المرض في الآونة الأخيرة تبلغ من إضعافه في بعض الأحيان أن لا يملك من القوة ما يمكنه من ترك حجرته، فكان الحجاج ينتظرون أحياناً خروجه أياماً بكاملها. ولم يخطر على بال أليوشا أن يتساءل لماذا يحب الحجاج هذا الشيخ حب العبادة، لماذا يرتمون على قدميه ويبكون حناناً حين يرون وجهه. كان أليوشا يشعر شعوراً قوياً بأن نفساً مذعنة كنفس الشعب الروسي، نفساً يرهقها العمل والعذاب، ويضنيها الظلم الأبدي والخطايا اليومية خاصة خطاياه هو وخطايا العالم كان أليوشا يشعر أن نفساً كهذه لا يوجد بالنسبة إليها حاجة أقوى ولا عزاء أعظم من أن تملك مقدّساً أو قديساً تستطيع أن تركع أمامه متعبدة قائلة: «إنا نعيش في الخطيئة والكذب والغواية، ولكن لا ضير... ما دام يوجد في مكان ما على هذه الأرض قديس وإنسان هو خير منا؛ فهذا الإنسان يملك الحقيقة على الأقل، ويعرف أين هي الحقيقة، فلا يمكن إذن أن تهلك الحقيقة في هذا العالم، ولسوف نعرفها نحن أيضاً في ذات يوم، لأنها ستسود العالم، كما وُعدنا». كان أليوشا يعلم أن الشعب يحس ويفكّر على هذا النحو، وكان هو يفهم ذلك. فإما أن الشيخ هو القديس وهو الإنسان الذي عهد إليه الرب بالحفاظ على الحقيقة للشعب، فذلك أمر كان أليوشا لا يشك فيه لحظة واحدة، وكان يؤمن به إيماناً لا يقل عمقاً عن إيمان الفلاحين الباكين وزوجاتهم المريضات أو عن إيمان الفلاحات اللواتي يمددن صغارهن

إلى الشيخ؛ ولعل يقينه من أن الشيخ سيهب للدير بعد وفاته مجداً خارقاً كان أرسخ وأقوى من يقين أي راهب آخر. ثم إن قلبه قد أصبح منذ زمن يزخر بمزيد من حماسة عميقة تلهبه يوماً بعد يوم. وكان لا يقلقه أن يتصور أن قداسة هذا الشيخ أمر استثنائي في هذا العالم رغم كل شيء. كان يقول لنفسه: «أي بأس في هذا! إنه قديس، وإن قلبه يضم سر بعث جميع البشر، فيه تكمن القدرة التي ستكفل انتصار الحقيقة على هذه الأرض في آخر المطاف، وسيصير جميع الناس قديسين وسيحب بعضهم بعضاً، فلا فقراء ولا أغنياء، ولا متكبرين ولا مستذلين، لأنهم جميعاً سيصبحون كأبناء الرب، وسيسود ملكوت يسوع المسيح». ذلك كان الحلم الذي يملأ قلب أليوشا.

ويظهر أن وصول أخويه اللذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الحين قد أحدث في نفس أليوشا أثراً كبيراً في تلك الآونة. لقد تفاهم مع أخيه غير الشقيق، دمتري فيدوروفتش، تفاهماً أسرع وأعمق من تفاهمه مع أخيه الشقيق إيفان فيدوروفتش، رغم أن إيفان قد وصل قبل دمتري. كان يرغب رغبة قوية في أن يعرف أخاه إيفان عن كثب، ولكن رغم أن إيفان يقيم بالمدينة منذ شهرين، ورغم أنهما يلتقيان كثيراً، لم يحدث بينهما أي تقارب حقيقي، فأما أليوشا فكان يظل صامتاً لا يتكلم، ويبدو أنه ينتظر شيئاً ما أو ينطوي على نفسه في نوع من الخشية أو من الحرج الداخلي، وأما إيفان الذي لاحظ أليوشا نظراته الطويلة المتفرسة في البداية، فقد بدا أنه سرعان ما عزف عنه فأصبح لا يهتم به. ولاحظ أليوشا ذلك بشيء من الارتباك. وكان يعزو قلة اكتراث أخيه إلى ما بينهما من فرق في السن والثقافة. غير أن تعليلاً آخر كان يساور فكره أحياناً، فكان

يتساءل: ألا يمكن أن تكون قلة اكتراث إيفان ناشئة عن سبب ما يزال يجهله، عن سبب لا يدركه البتة؟ لقد كان يبدو له أن إيفان مشغول البال دائماً بشيء ما، بمسألة نفسية لعلها خطيرة جداً، وأنه يتطلع إلى بلوغ هدف لعله صعب جداً، فما يتسع وقته كثيراً لأن يلتفت إلى أخيه وأن يفكر فيه. أفلا يكون هذا هو السبب الحقيقي الوحيد لموقفه منه، وذهوله عنه؟ وكان هنالك أمر آخر يقلق أليوشا: ألا يمكن أن يشتمل هذا الموقف على شيء من الاحتقار يشعر به عالم ملحد تجاه راهب مبتدئ غبي؟ لقد كان أليوشا يعرف تماماً أن أخاه لا يؤمن بالله. إن مثل هذا الاحتقار إذا وجد قد لا يكدّر أليوشا، ومع ذلك كان أليوشا ينتظر، بقلق غامض تخالطه خشية، اللحظة التي يقرر فيها أخوه أن يقترب منه. أما دمتري فيدوروفتش فقد كان يتحدث عن أخيه إيفان بكثير من الاحترام، ويتكلم عليه بلهجة فيها تأثر خاص. ومن دمتري إنما عرف أليوشا جميع تفاصيل القضية الهامة التي خلقت بين الأخوين في الآونة الأخيرة هذه الصلة الحميمة وشدت أحدهما إلى الآخر شداً وثيقاً. وكانت الحماسة التي يظهرها دمتري في تقدير أخيه إيفان تكتسب مزيداً من الدلالة في نظر أليوشا لأن دمتري كان بالقياس إلى إيفان رجلاً لا يكاد ينعم بأي حظ من ثقافة، فإذا قارنا بين الأخوين وجدناهما يبلغان من عمق اختلاف أحدهما عن الآخر في الطبع والشخصية أن من الصعب على المرء أن يتصور إنسانين بينهما من شدة التفاوت ما بين هذين الأخوين.

وفي تلك الفترة بعينها إنما تم اللقاء العائلي أو قل الاجتماع العائلي في حجرة الشيخ زوسيما بين جميع أفراد هذه الأسرة المتنافرة، وذلك حادث كان له في أليوشا تأثير كبير. الحق أن

الحجة التي اتخذت ذريعة لهذا اللقاء كانت باطلة. إن الخلاف الناشب بين دمتري فيدوروفتش وأبيه فيدور بافلوفتش حول الميراث وتصفية الحساب كان قد بلغ في تلك اللحظة أوجه، وأن العلاقات المتوترة إلى أقصى حدود التوتر بين الأب وابنه كانت قد أصبحت لا تُطاق. وأن فيدور بافلوفتش هو الذي اقترح - مازحاً فيما يظهر - أن يُعقد اجتماع في حجرة الشيخ زوسيما بغية الوصول إلى التفاهم بروح أقرب إلى اللياقة دون اللجوء إلى تدخل الشيخ في الأمر بالضرورة: ذلك أن منزلة هذا الإنسان المحترم وشخصيته كفيلتان بأن تؤثرا في الجميع تأثيراً يهدئ النفوس ويصالح القلوب. وقد تخيل دمتري فيدوروفتش، الذي لم يسبق له أن زار الشيخ يوماً والذي لم يكن يعرفه حتى بالنظر، تخيل طبعاً أن الغرض من هذا الاجتماع إنما هو تخويفه بمهابة هذا الشيخ. ومع ذلك قَبِل دمتري هذا التحدي، لأنه كان في سره يلوم نفسه على الحدة العنيفة والنزق الشديد فيما كان يوجهه إلى أبيه من قارص الكلام وهاجر القول أحياناً كثيرة في الآونة الأخيرة. ويحسن أن نذكر هنا أنه كان لا يسكن في منزل أبيه. كأخيه إيفان فيدوروفتش، وإنما كان يقطن وحيداً في الطرف الآخر من المدينة. وقد حدث أثناء هذه الظروف أن بيتر ألكسندروفتش ميوسوف الذي كان يقيم في مدينتنا آنذاك، تبنى الرأي الذي اقترحه فيدور بافلوفتش. إنه، وهو الليبرالي على طراز سنوات 1840 - 1850، المتحرر من العقائد، الكافر بالأديان، قد ساهم في هذه القضية مساهمة فعالة، ربما عن ضجر وسأم، وربما عن رغبة طائشة في السخرية والاستهزاء. وقد اشتهى فجأة أن يرى الدير وأن يرى «قديس» الدير. وإذ كانت الدعوى القائمة بينه وبين الدير قد طال عليها الأمد، وإذ إن النزاع بينه وبين الدير على تعيين حدود

أراضيه وحدود أراضي الدير، وعلى الحقوق الغامضة في قطع أشجار الغابات وصيد أسماك النهر وغيرها، لم يكن قد حُسم حتى ذلك الحين، فقد أسرع ينتهز هذا الظرف متعللاً بأنه يريد أن يكلم كبير الرهبان شخصياً، فعسى أن يكون ذلك وسيلة لتصفية الخلاف بالود دون احتكام إلى القضاء. وقد ذكر في تأييد رأيه هذا أنه إذا دخل الدير على هذه النية الحميدة فيمكن ان يُستقبل استقبالاً ألطف وأكرم من الاستقبال الذي سيُستَقْبَل به، لو ذهب إلى الدير بدافع الاستطلاع والفضول لا أكثر. وقد أتاحت هذه الاعتبارات كلها تحريك بعض المؤثرات في داخل الدير، وفعلت فعلها في الشيخ المريض الذي أصبح منذ زمن لا يكاد يبارح غرفته، وأصبح يرفض بسبب حالته استقبال زائريه الذين ألفوا أن يفدوا إليه. لقد وافق الشيخ على الاجتماع، وحُدد موعد للّقاء، واقتصر الشيخ على أن يقول لأليوشا وهو يبتسم: «من أقامني عليكما قاضياً أو حكماً؟»[24].

حين علم أليوشا بأمر هذا الاجتماع قلق قلقاً شديداً واضطرب اضطراباً عظيماً. لا شك أن أخاه دمتري، من بين سائر ذويه الذين تقسمهم هذه المنازعات والمشاجرات، هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يأخذ هذا الاجتماع مأخذ الجد. أما الآخرون فلعلهم لا يذهبون إلى الدير إلا لبواعث طائشة وأسباب سخيفة قد تسيء إلى الشيخ وتجرح شعوره. كان أليوشا يدرك ذلك حق الإدراك. فأخوه إيفان والسيد ميوسوف لن يأتيا إلى الدير إلا بداعي حب الاستطلاع، وربما بداعي الفضول الفظ الغليظ. أما أبوه فليس بالمستبعد أن يكون في نيته تمثيل مهزلة ساخرة مهرّجة. ذلك أن أليوشا إن كان يحسن الصمت، فلقد كان يعرف أباه، بل كان يعرفه معرفة عميقة. يجب أن أكرر أن هذا الفتى كان أذكى فؤاداً وأنفذ بصيرة مما كان يتخيل

أكثر الناس. لذلك أخذ ينتظر يوم اللقاء واجف القلب مهموم النفس. صحيح أنه كان في قرارة نفسه يتمنى كثيراً أن تنتهي هذه المنازعات العائلية على نحو من الأنحاء. غير أن اهتماماته الأساسية كانت منصرفة إلى الشيخ، فكان يرتعد قلقاً عليه، وحرصاً على مجده، وكان يخشى أن يلحقوا به إهانة أو أن يمسوه بسوء، وكان يخشى خاصة السخريات اللطيفة المهذبة التي يمكن أن يعمد إليها ميوسوف، وغمزات الاحتقار التي يمكن أن يدسّها أخوه العالم إيفان، وكان يتخيل هذا كله سلفاً. خطر على باله في لحظة من اللحظات أن يُنذِر الشيخ، أن يقول له كلمتين عن أهله هؤلاء الذين يستعدون لزيارته، ولكنه بعد أن فكر في الأمر آثر أن يصمت فلا يقول شيئاً، واقتصر في عشية اليوم المحدد للزيارة أن يبلّغ أخاه دمتري بواسطة أحد معارفهما أنه يحبه كثيراً وأنه يعتمد على وعده. واحتار دمتري في أمر هذه الرسالة وأخذ يفرض الفروض ويخمّن التخمينات في فهم معناها، ذلك أنه لا يتذكر أنه قطع على نفسه لأليوشا أي عهد، ثم أجاب أخاه في رسالة مكتوبة بأنه سيبذل قصارى جهوده في سبيل أن يسيطر على نفسه وفي سبيل أن يتجنب أي «صَغار»، وأضاف إلى ذلك قوله إنه على احترامه العميق للشيخ وأخيه إيفان، واثق ثقة عميقة بأن الأمر لا يعدو أن يكون إما فخاً يُراد له أن يقع فيه، وإما مهزلة منحطة يُراد تمثيلها، وختم رسالته بقوله: «ومع ذلك فإنني أؤثر أن أبلع لساني على أن أقول كلاماً يؤذي هذا الإنسان المقدس الذي تُجلُّه وتعظمه». غير أن هذه الرسالة لم تكن كفيلة بأن تطمئن أليوشا.



الباب الثاني

اجتماع في غير محله

- 1 -

الوصول إلى الدير

كان ذلك في صبيحة يوم من أواخر شهر آب (أغسطس)، يوم مضيء حار. إن لقاء الشيخ قد حُدِّدت له الساعة الحادية عشرة والنصف تقريباً، بعد نهاية الصلاة الثانية فوراً. ولكن أصحابنا الزائرين لم يروا أن من الضروري أن يحضروا الصلاة، فوصلوا إلى الدير لحظة انتهاء القداس. كانوا قد ركبوا عربتين. فأما الأولى فهي مركبة أنيقة يجرها حصانان جوادان، فيها بيتر ألكسندروفتش ميوسوف، وفتى يصحبه في نحو العشرين من عمره، اسمه بيتر فومتش كالجانوف، وهو يمتّ إلى ميوسوف بقربى بعيدة. إن على هذا الشاب أن يدخل الجامعة قريباً، ولكن ميوسوف الذي كان الشاب يعيش في تلك الفترة عنده، يريد أن يصطحبه إلى الخارج حيث يستطيع أن يتم دراسته بمتابعة المحاضرات في جامعة زوريخ أو جامعة فيينا. لم يكن كالجانوف قد عزم أمره واتخذ قراره بعد. فهو الآن واجم مفكر يبدو ذاهلاً. هو فتى قوي البنية طويل القامة حلو الوجه، ولكن نظرته تجمد في بعض الأحيان جموداً غريباً: كان يتفق له في بعض الأحيان، كما يتفق ذلك لجميع كبار الذاهلين، أن يحدق إلى الناس تحديقاً طويلاً دون أن يلمح حتى وجودهم. وهو في العادة كثير الصمت قليل الكلام، لا يخلو من شيء من خراقة،

ولكنه يتحمس في بعض الأحيان إذا خلا إلى أحد على انفراد فينطلق عندئذٍ على سجيته، ويفصح عن نفسه، ويضحك دون تحرج، بل ودون سبب ظاهر. على أن هذه الحماسة تزول بسرعة كما شبَّت بسرعة. والفتى حسن الهندام دائماً، على شيء من تأنق. وكان يملك آنذاك ثروة لا بأس بها تكفل له الاستقلال، ولكنه ينتظر مواريث أضخم وأعظم. ولقد كان صديقاً لأليوشا.

وأما العربة الثانية فقد ركبها فيدور بافلوفتش وابنه إيفان فيدوروفتش، وهي عربة عتيقة مهترئة مترنحة مقرقعة، ولكنها فسيحة، يجرها حصانان عجوزان أشهبان كانا يلقيان عناء في اللحاق بمركبة ميوسوف ويتركان لها دائما أن تسبقهما.

أما دمتري فيدوروفتش فقد تأخر، رغم أنه قد أُبلِغ يوم اللقاء وساعته، منذ الليلة البارحة.

ترك الزائرون عربتيهما قرب السور أمام الفندق واجتازوا أبواب الدير سيراً على الأقدام. يظهر أن أحداً من هؤلاء الزائرين، باستثناء فيدور بافلوفتش، لم يسبق له أن رأى الدير قبل اليوم؛ أما ميوسوف فإنه لم يضع قدميه في كنيسة منذ ثلاثين عاماً. كان ينظر حواليه بشيء من الاستطلاع، دون أن يتنازل مع ذلك عن التظاهر بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث. ولكن ما من شيء في داخل هذا الدير كان يمكن أن يلفت انتباه فكره الملاحظ، إلا تلك المباني الدينية والمباني الضرورية لحياة الرهبان المشتركة، وهي مبانٍ عادية إلى أقصى حد. كان أواخر المصلّين يخرجون من الكنيسة ويرسمون إشارة الصليب وهم ينزعون قبّعاتهم عن رؤوسهم؛ وهم أناس من عامة الناس بينهم عدد قليل من طبقة اجتماعية أعلى، وسيدتان أو ثلاث سيدات، وجنرال عجوز جداً. كان هؤلاء جميعاً قد نزلوا في الفندق.

وسرعان ما احتشد المتسوّلون حول أصحابنا الزائرين، ولكن أحداً لم يعط لهم أي صَدَقة، باستثناء بتروشكا كالجانوف، فقد أخرج من حافظة نقوده قطعة عشرة كوبكات، وسارع يدسّها خلسة مضطرباً بعض الاضطراب - لا أدري لماذا - في يد إحدى هاته الفقيرات وهو يقول لها بصوت لا يكاد يبين: «توزعوها جميعاً». لم يُبدِ له أحد ملاحظة على ما فعل، فما كان له إذن أن يضطرب، ومع ذلك فإن صمتهم هذا قد بدا أنه زاد اضطرابه.

استغربوا أن أحداً لم يجئ لاستقبالهم في الدير. يظهر أنهم كانوا يتوقعون أن يُنتظروا بل وأن يُستقبَلوا استقبالاً فيه حفاوة. ألم يتبرع واحد منهم للدير بألف روبل في الآونة الأخيرة؟ أليس الثاني منهم رجلاً غنياً جداً من أصحاب الأطيان، عدا أنه على جانب عظيم من الثقافة، وعدا أن هؤلاء الرهبان جميعاً قد يتوقف أمرهم عليه وقد يصبحون رهناً به فيما يتعلق بحقوق الصيد في النهر إذا جرت القضية مجرى يتفق ودعواه؟ ومع ذلك لم تجئ أي شخصية رسمية لاستقبال هؤلاء الزوار! أجال ميوسوف نظرة ذاهلة على أحجار القبور المجاورة للكنيسة، وهمَّ أن يقول إن أهل هؤلاء الموتى لا بد أن يكونوا قد دفعوا مبالغ طائلة من المال حتى حقَّ لهم أن يدفنوا موتاهم في مكان يبلغ هذا المبلغ من «القداسة»، ولكنه صمت ولم يقل شيئاً، ثم إذا بالسخرية الليبرالية تتحول في نفسه إلى انزعاج وغضب فقال فجأة وكأنه يخاطب نفسه:

- لا يعلم إلا الشيطان من الذي سنتّجه إليه في هذه الفوضى... وعلينا مع ذلك أن نسرع فإن الوقت يمضي...

وفي تلك اللحظة اقترب منهم سيد متقدم في السن، أصلع، متلطّف النظرة. إنه يرتدي معطفاً فضفاضاً من معاطف الصيف. رفع

الرجل قبعته، وقدّم نفسه إليهم جميعاً، بصوت متعاذب مترقق ينطق الجيم زايا، قائلاً إنه الملاّك ماكسيموف من إقليم تولا. وسرعان ما أدرك حيرة القادمين فقال:

- إن الشيخ زوسيما يقطن الصومعة في مكان منزوٍ على مسافة أربعمائة قدم من الدير. فيجب للذهاب إليه اجتياز الغابة الصغيرة، هذه الغابة الصغيرة...

فأجاب فيدور بافلوفتش:

- أعرف أن مسكنه يقع وراء الغابة الصغيرة، ولكننا نسينا الطريق إليه. لأننا لم نأتِ إلى هنا منذ زمن طويل.

قال الرجل:

- يجب اجتياز هذا الباب، ثم السير رأساً في الغابة... الغابة الصغيرة.. هيا بنا.. هل أستطيع أن.. إنني أنا أيضاً، أنا أيضاً.. الطريق من هنا، من هنا...

خرج الجميع من الباب وساروا في الغابة. كان مالك الأطيان ماكسيموف، وهو رجل في نحو الستين من عمره يسير إلى جانبهم، بل قل يكاد يركض إلى جانبهم ركضاً، وهو يتفرس فيهم بنوع من استطلاع متشنّج لا يُطاق، وقد اتسعت عيناه اتساعاً يدعو إلى الدهشة.

قال ميوسوف بلهجة صارمة:

- يجب أن أقول لك إننا ذاهبون إلى هذا الشيخ لأمور تتعلق بنا وحدنا، وقد فزنا بالحصول على موعد لمقابلة هذه «الشخصية»، فلعلك تدرك إذن أننا مع شكرنا لك على أن تدلنا على الطريق نسألك أن لا تصحبنا في الدخول عليه.

- لقد كنت عنده... كنت عنده... إنه فارس حقيقي

(بالفرنسية في الأصل Un chevalier parfait . .[25].

قال الرجل ذلك وهو يفرقع بأصابعه في الهواء.

سأل ميوسوف:

- مَنْ؟ مَنْ هذا الذي تصفه بأنه فارس؟

- الشيخ، الشيخ العظيم، هذا الشيخ... شرف هذا الدير ومجده.. زوسيما.. ذلك الشيخ...

وفي تلك اللحظة لحق بجماعة الزوار راهب قصير القامة، شديد النحول، شاحب اللون جداً، يرتدي قلنسوة، فقطع على مالك الأطيان حديثه المضطرب المفكَّك. توقف فيدور بافلوفتش وميوسوف. وخاطبهم الراهب يقول بأدب عظيم وهو ينحني أمامهم حتى ليكاد يبلغ رأسه مستوى الحزام.

- إن الأب الأكبر يرجوكم، بكثير من التواضع، أن تشرفوه، عند عودتكم من الصومعة، فهو يدعوكم جميعاً لتناول طعام الغداء.

ثم التفت نحو ماكسيموف، فأضاف يقول له:

- وأنت أيضاً مدعو.

هتف فيدور بافلوفتش يقول وقد طار لبّه فرحاً بهذه الدعوة:

- سأجيء، سأجيء حتماً... لن أتخلف عن المجيء! أعلم أننا قد تعهدنا جميعاً بأن نتصرف هنا باحتشام. هل تجيء أنت أيضاً يا بيتر ألكسندروفتش؟

- سؤال غريب! أكنت أجيء إلى هنا لولا حرصي على أن أرى جميع عاداتهم؟ ولكن الشيء الوحيد الذي يقلقني الآن هو أنني في صحبتك يا فيدور بافلوفتش...

- نعم! وما رأيكم في دمتري فيدوروفتش الذي لم يتنازل أن يصل حتى الآن؟

- ليته لا يصل أبداً! ألعلك تظن أنه يسرني أن أجد نفسي مقحماً في جميع هذه القضايا الوسخة، وأن أحتمل فوق هذا صحبتك؟

قال ميوسوف ذلك، ثم أردف يقول وهو يلتفت نحو الراهب:

- إننا نقبل الدعوة، أشكر الأب الأكبر بإسمنا. . .

فأجاب الراهب:

- أنا باقٍ معكم، لأنني مُكلَّف باصطحابكم إلى الشيخ.

قال مالك الأطيان ماكسيموف مزقزقاً:

- أما أنا قد أذهب أثناء ذلك إلى الأب الأكبر رأساً. أنا ذاهب إليه حالاً.

قال الراهب متردداً:

- الأب الأكبر مشغول الآن، ولكن إذا كنت تحرص على أن. . .

قال ميوسوف بصوت عالٍ بينما كان الملأك ماكسيموف يتجه نحو الدير بخطاه القصيرة السريعة:

- يا للعجوز الصغير المزعج!

فعقَّب فيدور بافلوفتش فجأة بقوله:

- إنه يذكرني بفون سون![26].

- كل شيء يذكرك بشيء آخر. . . أي شبه بينه وبين فون سون؟ وهل رأيته أنت، فون سون هذا؟

- رأيت صورة له. قد لا يشبهه بملامح الوجه، ولكنه يشبهه بشيء يصعب تحديده. . . هو نسخة طبق الأصل عن فون سون. أنا لا يخطئني الظن أبداً في مثل هذه الأمور. تكفيني نظرة واحدة ألقيها على الوجه.

- لعلك على حق، لا بد أن تكون لك هذه القدرة على كل

حال. ولكن لا تنسى يا فيدور بافلوفتش ما قلته أنت نفسك منذ قليل: لقد قطعنا على أنفسنا عهداً ليكوننّ سلوكنا هنا محتشماً. تذكّر هذا. راقب نفسك. إنني أطلب إليك ذلك جازماً قاطعاً. إياك أن تأخذ في تمثيل دور المهرّج. إنني أرفض أن يسوَّى هذا بيني وبينك.

قال ميوسوف ذلك ثم أضاف يقول للراهب:

- أرأيت أي نوع من البشر هو؟ يميناً إنني أخشى أن أذهب في صحبته عند أناس محترمين.

ارتسمت على شفتي الراهب الرقيقتين الذاويتين ابتسامةٌ ناعمة صامتة لا تخلو من بعض المكر، ولكنه لم يجب بشيء. لقد كان واضحاً كل الوضوح أنه إنما يتعمد الصمت اعتزازاً منه بكرامته الشخصية. قطّب ميوسوف حاجبيه مزيداً من التقطيب. وقال يحدِّث نفسه: «شيطان يأخذ جميع هؤلاء الرهبان، فليس لديهم سوى مظهر خارجي اكتسبوه عبر قرون، أما في الحقيقة فليس ذلك سوى دجل وهراء».

صاح فيدور بافلوفتش يقول:

- هذا هو المنسك! لقد وصلنا! السياج الحديدي موصد والباب مغلق!

و أخذ يرسم إشارة الصليب بحركات عريضة أمام صور القديسين التي تزيِّن المدخل فوق الباب وعلى جانبيه. وقال:

- لكل دير قواعد تجب مراعاتها[27]. هم هنا خمسة وعشرون قديساً على وجه التقريب، ينشدون الأمن والسلامة والخلاص في هذا المنسك، يتفرس بعضهم في بعض ويأكلون الكرنب. ولكن ما من امرأة واحدة يسمح لها باجتياز هذا الباب. ذلك أعجب شيء هنا، ولكنه حقيقة. فكيف تعلِّل، رغم هذا، أن الشيخ يستقبل في هذا المكان سيدات في بعض الأحيان كما قيل لي ذلك؟

بهذا السؤال ختم فيدور بافلوفتش كلامه، متجهاً فجأة إلى الراهب.

- إن نساء من عامة الشعب توجد هنا في هذه اللحظة نفسها. تستطيع أن تراهنَّ: إنهن ينتظرن قرب الرواق راقدات. أما سيدات المجتمع الراقي فقد خُصِّصت لهن في الرواق، ولكن على الطرف الآخر من السياج، غرفتان صغيرتان هذه نوافذهما تراها من هنا. فالشيخ يذهب إليهن من ممر داخلي متى أحس بأنه قادر على ذلك، من دون أن يجتاز السياج في هذه الحال طبعاً. وثمة سيدة من مالكات الأطيان في مقاطعة خاركوف هي الآن هناك مع ابنتها المريضة تنتظر الشيخ: إنها السيدة خوخلاكوفا. أغلب الظن أن الشيخ قد وعد بلقائهما رغم أنه قد بلغ من الضعف منذ زمن أنه أصبح لا يكاد يخرج.

- هناك إذن ممرّ يؤدي من المنسك إلى السيدات. لا يذهبنَّ بك الظن أيها الراهب المحترم إلى أن في كلامي هذا شيئاً من غمز! حاشا... فأنا إنما أقول هذا الكلام بغير نية البتة! هل تعلم أن زيارات النساء، في جبل آثوس، ولا شك أن ذلك قد ذُكر لك، ليست وحدها ممنوعة، وإنما يُمنع هناك أيضاً وجود الإناث من أي نوع من أنواع الحيوان... فلا دجاجة ولا أوزة ولا أي عجلة صغيرة يمكن أن يحتمل وجودها هناك...

- فيدور بافلوفتش، إذا استمررت فسأنصرف وأتركك وحدك! ولئن انصرفت أنا ليُخرجُنَّك من هنا جراً من كتفيك! إنني أحذرك.

- وددت لو أعرف ما الذي يزعجك مني يا بيتر ألكسندروفتش؟

كذلك قال فيدور بافلوفتش، ثم صاح يقول فجأة وهو يجتاز سياج المنسك:

- انظر إلى وادي الورود هذا الذي يعيشون فيه!..

حقاً... إن الناظر يرى أزهاراً خريفية رائعة نادرة، وإن لم ير وروداً في هذا الأوان. لقد زُرعت أزهاراً في كل ركن خال. وكان واضحاً أن يداً ماهرة هي التي تُعنى بالأزهار في كثير من الحب. إن هناك أحواض أزهار بين القبور وعلى طول الجدران. والبيت الصغير الذي يضم صومعة الشيخ، والذي كان مبنياً بخشب ومؤلَّفاً من طابق واحد مع رواق أمام المدخل، يزدان هو أيضاً بالأزهار تطوِّقه من كل جهة.

- قل لي: هل كان الأمر على هذه الحال في عهد الشيخ السابق، الشيخ فارسونوف يُقال إنه كان يكره الترف والأناقة كانت تغضبه كثيراً حتى ليتفق له أن يرفع عصاه على سيدات.

كذلك قال فيدور بافلوفتش وهو يصعد درجات المدخل.

أجاب الراهب الصغير قائلاً:

- كان مظهر الشيخ فارسونوف يوهم حقاً في بعض الأحيان أنه إنسان بسيط، ولكن ما أكثر السخافات والأكاذيب التي قيلت في حقه ورُوِيَت عنه! إنه على كل حال لم يرفع عصاه على أحد في يوم من الأيام. انتظروا هنا لحظة يا سادة. سأبلِّغ الشيخ قدومكم.

اتسع وقت ميوسوف لأن يدمدم قائلاً لفيدور بافلوفتش:

- أحذرك آخر مرة يا فيدور بافلوفتش... أَحْسِن التصرف، وإلا جعلتك تندم...

فأجابه فيدور بافلوفتش ساخراً:

- لا أستطيع أن أفهم ما الذي يجعلك ثائر الأعصاب إلى هذه الدرجة. أهي خطاياك تعذب ضميرك؟ أأنت خائف من قدرة هذا الشيخ؟ يقال إن هذا الشيخ يقرأ في أعين الناس. ويستشف كل ما

يجيش في الضمائر وكل ما يثوى في قرارة النفوس. هل يجوز لرجل باريسي تقدمي مثلك أن يقيم هذا الوزن كله لرأي هؤلاء الرهبان؟ ألا إن هذا ليدهشني منك قليلاً، هل تعلم؟

لم يتسع وقت ميوسوف للرد على هذه السخريات، لأنهم قد دُعوا إلى الدخول. وكان يشعر، وهو يدخل، بنوع من الانزعاج...

قال يحدث نفسه:

«إنني أعلم ما سيحدث الآن. أنا أعرف نفسي. سوف تثور أعصابي، سوف أغضب... سوف أتحمس، فبذلك أخفض قدري وأغض من قيمة آرائي».

– 2 –

المهرّج العريق

دخلوا الحجرة في نفس الوقت الذي ظهر فيه الشيخ على عتبة مهجعه تقريباً. كان في الحجرة كاهنان من رهبان المنسك ينتظران فيها خروج الشيخ إليهما. إن أحدهما هو الأب القيّم على مكتبة الدير، والثاني هو الأب بائيسي. إن الأب بائيسي رجل مريض جداً مع أنه غير طاعن في السن كثيراً، وهو يُعَدّ على جانب عظيم من العلم. وكان هنالك فتى يرتدي زياً مدنياً، يبدو في الثانية والعشرين من عمره، قد وقف في ركن من الحجرة (ولقد ظل واقفاً حتى نهاية الاستقبال). إنه طالب سيصبح في المستقبل لاهوتياً، والدير وهذه الفرقة الدينية يهتمان به لسبب من الأسباب ويشملانه بالرعاية والحماية. هو شاب طويل القامة، نضر المُحيّا، عريض الوجنتين، تضيء وجهه عينان شهباوان طويلتان ضيقتان تعبّران عن ذكاء وانتباه. وكان وجهه يفصح عن كثير من الاحترام والتوقير، ولكن بغير غضاضة ولا مذلة. إنه لم يسلّم على الزائرين الذين دخلوا الحجرة، دالاً بهذا الامتناع على أنه لا يعد نفسه نداً لهم، بل شخصاً ثانوياً مرؤوساً.

دخل الشيخ زوسيما يصحبه أليوشا ومترهب مبتدئ. نهض الراهبان الكاهنان فسلّما على الشيخ مُنْحَنِيين له انحناءة عميقة حتى

لامست أصابعهم الأرض، ثم تباركا بالشيخ وقبّلا يديه، فباركهما الشيخ أولاً ثمّ ردّ عليهما التحية منحنياً أمام كل منهما تلك الانحناءة نفسها لامساً بيديه الأرض، ولقد تم هذا الاحتفال بكثير من الوقار والمهابة، لا كما يتم طقس من الطقوس المألوفة اليومية، حتى لقد كانت الحركات التي قاموا بها مشبعة بانفعال صادق وعاطفة حقيقية. ومع ذلك أحسَّ ميوسوف أنهم يفعلون كل ذلك بغية أن يتركوا انطباعاً لدى المحيطين بهم. وكان ميوسوف في مقدمة صحبه. وكان يقول لنفسه - وذلك أمر فكَّر فيه طويلاً منذ الليلة البارحة - إن عليه من باب اللباقة وحدها، مهما تكن آراؤه الخاصة، أن يقترب من الشيخ وأن يتلقى مباركته (ما دامت السُنّة قد جرت بذلك في هذا المكان)، أن يتلقى مباركته على الأقل ما دام لا يريد أن يقبّل يده. ولكنه حين رأى هذه التحيات الاحتفالية وهذه القبلات التي طبعها الرهبان على يدي الشيخ لم يلبث أن تراجع عن قراره، فاكتفى بأن حيّا الشيخ تحية هادئة رصينة منحنياً له الانحناءة الكبيرة إلى حد ما كالتي ينحنيها رجل مهذب من رجال المجتمع الراقي ثم تقهقر نحو كرسيه هادئاً رصيناً وَقوراً واقتفى فيدور بافلوفتش أثره فحاكاه في كل حركة من حركاته حتى لقد بدا أنه يقلده تقليداً، ولعله فعل ذلك عامراً. وسلَّم إيفان فيدوروفتش هو أيضاً سلاماً رصيناً مهذباً ولكنه أيضاً أبقى يديه مشدودتين إلى جانبيه؛ أما كالجانوف فقد بلغ من الاضطراب أنه نسي أن يسلّم. وأنزل الشيخ يده التي كان قد رفعها مباركاً؛ وبعد أن حيّاهم مرةً أخرى رجاهم أن يجلسوا. صعد الدم إلى خدي أليوشا. لقد كان يشعر بالخجل والخزي من ذويه، إن ما أوجسه وتنبأ به قد تحقق.

جلس الشيخ على أريكة صغيرة من خشب الآكاجو، قديمة الطراز

جداً، مغطاة بجلد؛ وأجلس ضيوفه، باستثناء الراهبين الكاهنين، صفاً واحداً أمام الجدار المقابل مشيراً لهم إلى مقاعد أربعة من خشب الأكاجو مغطاة بجلد أسود رَثّ جداً. وجلس الراهبان الكاهنان على الجانبين، أحدهما قرب الباب والثاني أمام النافذة. أما الطالب وأليوشا والمترهب المبتدئ فقد ظلوا واقفين. إن الحجرة ضيقة قليلة الاتساع تُشعر بأنها عتيقة بالية كل البلى، والأثاث الذي فيها عادي فقير يقتصر على ما هو ضروري لا غنى عنه. وهذان أصيصان للزهر يزينان حافة النافذة، وهذه طائفة كبيرة من الأيقونات تتكدس في ركن من الغرفة، إحداها للسيدة العذراء، وهي أيقونة كبيرة جداً يرجع تاريخها، في أغلب الظن، إلى عهد سابق على الانشقاق الديني[28]. وعلى جانبي العذراء صور مقدسة أخرى في إطارات من معدن لامع محفور؛ وبعدها بقليل يرى الرائي تماثيل صغيرة لملائكة، وبيضاً من خزف، وصليباً كاثوليكياً عاجياً مع Mater dolorosa[29] أم محزونة تضم الصليب بذراعيها، وعدداً من نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الطليان في القرون الخوالي؛ وهذا كله قد اختلط بعضه ببعض فوضى وإلى جوار تلك الصور الفنية التي لها قيمة كبيرة يرى الناظر عدّة صور ليتوغرافية روسية شعبية تافهة تمثّل قديسين وشهداء وكهنة كباراً وإلخ. . .، هي من تلك الصور التي تباع في جميع أسواق البلاد بكوبك واحد. وهناك صور ليتوغرافية أخرى هي وجوه أساقفة من الروس قدماء أو حاليين تُزيّن الجدران الأخرى من الغرفة. طاف ميوسوف على هذه الأشياء «التفاهات» بنظرة سريعة، ثم حدَّق إلى الشيخ. إن ميوسوف يُعدّ نفسه ثاقب النظرة، غير أن ذلك ضعف يمكن أن نغفره له حتماً إذا نحن تذكرنا أنه قد بلغ الخمسين من عمره، وهي سنٌ يكون فيها

الإنسان الذكي الذي ينتمي إلى المجتمع الراقي وينعم بمركز وطيد قد تعود أن يحترم نفسه كثيراً، على غير شعور منه في بعض الأحيان.

لم يعجبه الشيخ في الوهلة الأولى. والحق أن في وجه الشيخ شيئاً يمكن أن لا يرضي كثيرين غير ميوسوف أيضاً. هو رجل قصير القامة محدودب الظهر مترنح الساقين، عمره خمسة وستون عاماً فحسب، غير أنه يبدو أطعن في السن بسبب مرضه الذي يُظهره أكبر من عمره بعشر سنين في أقل تقدير. وإن وجهه النحيل الضامر المعروق مخدَّد كله بغضون صغيرة تكثر حول العينين خاصة. وليست عيناه الفاتحتان بالكبيرتين غير أنهما واضحتان حافيتان، فيهما كثير من الحركة والسطوع، بحيث لا يرى المرء منهما إلا نقطتين مضيئتين. ولم يبق من شعره إلا خصلتان شائبتان على الصدغين. أما لحيته المدببة فهي صغيرة دقيقة؛ وأما شفتاه اللتان كثيراً ما تعبِّران عن الدهاء فإنهما تشبهان خيطين؛ وأما أنفه فهو دقيق على غير طول، يشبه منقار طائر صغير...

حدَّث ميوسوف نفسه قائلاً: «إن كل شيء فيه يدل على أن له طبيعة كالحة شرسة، وعلى أن فيه زهواً سخيفاً وكبرياء مسكينة». وأحس ميوسوف باستياء من نفسه.

ودقت الساعة تقطع الصمت. إن ساعة صغيرة بخسة الثمن كانت معلقة بالحائط ومزوَّدة بنواس، قد ترجع صوتها يدق اثني عشرة دقة متتابعة سريعة. فصاح فيدور بافلوفتش يقول:

- هو الموعد المحدد ولمّا يصل ابني دمتري فيدوروفتش. أرجو المعذرة عنه أيها الراهب المقدس جداً (ارتعش أليوشا حين سمع قول أبيه هذا «أيها الراهب المقدس جداً»). لقد تعودت أنا أن أكون

دقيق المواعيد، فلم أتأخر عن موعد في يوم من الأيام دقيقة واحدة، لأنني أتذكر أن دقة المواعيد هي من آداب الملوك[30]...

- ولكنك لست ملكاً فيما أعلم...

كذلك دمدم يقول ميوسوف الذي كان منذ ذلك الحين لا يكاد يستطيع السيطرة على نفسه. فأجابه فيدور بافلوفتش بقوله:

- صحيح. لست ملكاً. ثق يا بيتر ألكسندروفتش إنني أعلم حق العلم أنني لست ملكاً، والله! ولكن هذا شأني دائماً: أقول كلاماً في غير محله!

قال فيدور بافلوفتش هذا ثم صاح يضيف بانفعال مفاجئ غريب:

- يا صاحب القداسة، إن أمامك رجلاً هو مهرِّج عريق! كذلك أقدِّم إليك نفسي. هذه عادة قديمة راسخة واأسفاه! ولكن لئن كنت أكذب أحياناً كذباً في غير محله، فإنني أفعل ذلك عامداً، في سبيل أن أضحك الناس وأن أبهجهم. أليس من واجب الإنسان أن يبهج أخاه الإنسان؟ اسمع... منذ سبع سنين مثلاً ذهبت إلى مدينة صغيرة لعقد بعض الصفقات، فلم ألبث أن انعقدت الصِّلات بيني وبين بعض المَهَرة من تجار المدينة. قررنا أن نزور الإيسبرافنك رئيس الشرطة[31] الذي كنا نأمل أن نفوز بمساعدته وكان علينا من جهة أخرى أن ندعوه إلى الغداء. استقبلنا الإيسبرافنك. إنه رجل ضخم طويل، أشقر، متجهِّم المظهر؛ والأفراد الذين هم من هذا النوع هم أخطر الناس حين يكون الأمر أمر أعمال وصفقات. إن أكبادهم مريضة، نعم أكبادهم، هل تفهمون؟ قررت أنا أن أهجم عليه مجابهةً إن صح التعبير، قلت له بلهجة منطلقة هي لهجة رجل من رجال المجتمع. «هلاً تنازلت يا سيدي الإيسبرافنك، فكنت لنا نابرافنك[32] بمعنى من المعاني؟»، فما كان منه إلا أن أجاب قائلاً: «ماذا؟ كيف؟

أي نابرافنك؟» فأدركت فوراً أن كل شيء قد ضاع. صمت الرجل قاسي النظرة كالح الهيئة صعب المراس. حاولت أن أعتذر. قلت: «لقد سمحت لنفسي بمزحة بريئة بغية أن أشيع المرح في الجو. وأنت تعلم أن نابرافنك هو اسم أكبر رئيس أوركسترا عندنا، ونحن إن كنا في حاجة إلى شيء فإلى نوع من رئيس أوركسترا يحقق لمشروعنا الاتساق والانسجام...» ظننت أني قدمت له بهذا الكلام تفسيراً معقولاً قائماً على تشبيه سليم، أليس هذا صحيحاً؟ فأجابني قائلاً: «عفواً، أنا إيسبرافنك، ولست أقبل أي تلاعب بالألفاظ في موضوع وظيفتي». قال ذلك وأدار لي ظهره وانصرف. ركضت وراءه صائحاً: «أنت الإيسبرافنك! أنت إيسبرافنك لا نابرافنك!» ولكنه هزّ كتفيه ببرود وقال: «لا تحاول.. لقد سميتني نابرافنك، فحسبنا هذا!» هكذا غرقت صفقتنا في الماء.. فهل رأيت كيف أنا؟ إن رغبتي في أن أكون لطيفاً تسيء إليّ دائماً في هذه الحياة. من ذلك أنني قلت في ذات يوم، منذ سنين كثيرة، لشخصية لها نفوذ وتأثير: «زوجتك يا سيدي حسّاسة إذا دغدغت»، وكنت أقصد بهذه الكلمة معناها المجازي، كنت أقصد أنها سريعة التأذي إذا أسيء إلى كرامتها، إلى مبادئها الأخلاقية. ولكن الرجل أسرع يسألني فجأة: «أأنت دغدغتها إذن؟» ولم أملك أن أقاوم رغبتي في المزاح، فما كان مني إلا أن قلت له: «والله... دغدغتها قليلاً»،... فليتك رأيت ما أصابني في ذلك اليوم من دغدغة!.. غير أن هذه الحادثة قديمة جداً، بعيدة العهد جداً، بحيث لا أستحي الآن أن أرويها. فانظر كيف أسأت إلى نفسي دائماً في هذه الحياة!

دمدم ميوسوف يقول باحتقار:

– وإنك لتستأنف ذلك في هذه اللحظة أيضاً.

وكان الشيخ يتفرس فيهما صامتاً، واحداً بعد آخر.

- هل يمكن؟ تصور يا بيتر ألكسندروفتش أنني كنت أعرف ذلك، وقد تنبأت به منذ فتحت فمي. وكنت أعلم أيضاً أنك ستكون أول من يلاحظ هذا. وفي مثل هذه اللحظات، يا صاحب القداسة، حين أُدرك أن المزحة لم تنجح، يتصلب خداي فكأنهما يلتصقان بالفكين، حتى لأشعر من ذلك بتشنجات! ذلك يرجع عهده إلى أيام شبابي، إلى الأيام التي كنت فيها طفيلياً أعيش على موائد النبلاء أصحاب الأملاك، وألتمس رزقي بتلك المهنة! أنا مهرِّج يا صاحب القداسة، أنا مهرج حقيقي، مهرج مفطور على التهريج، وإن شئت فقل يا صاحب القداسة إنني إنسان بسيط أبله!... قد تكون الروح التي تحركني غير طاهرة، أنا لا أجحد ذلك، ولكنها روح صغيرة. فلو كانت روحاً كبيرة قوية إذن لاختارت لها مسكناً أفضل. على أنها ما كانت لتختارك أنت أيضاً يا بيتر ألكسندروفتش، لأنك كذلك لست بالمسكن الحسن لها! ومع ذلك فأنا مؤمن، مؤمن بالله، لم يساورني الشك إلا في الآونة الأخيرة، وها أنا ذا الآن أمامك، يا صاحب القداسة، أنتظر كلمة تحررني من أساري. أنا يا صاحب القداسة مثل الفيلسوف ديدرو. لا شك أنك سمعت أن هذا الفيلسوف، أيها الأب المقدس، قد جاء يوماً إلى المطران أفلاطون في عهد الإمبراطورة أيكاترينا[33]، فما أن دخل عليه حتى أعلن يقول في برود: «الله غير موجود». فرفع الرجل العظيم المقدس إبهامه وقال له: «الطائش يقول في سره: الله غير موجود»، فأُخذ الآخر بهذه الكلمات فإذا هو يرتمي فجأة على قدمي الكاهن صائحاً: «آمنت، آمنت، عمِّدوني!». وسرعان ما تم تعميده على الفور، فالأميرة داشكوفا[34] أصبحت عرّابته، وبوتيومكين كان عرّابه.

قاطعه ميوسوف يقول بصوت يرتعش فيه الغضب، وكان قد أصبح منذ مدة طويلة عاجزاً عن كبح جماح نفسه:

- فيدور بافلوفتش! هذا لا يطاق! أنت تعلم تماماً أنك تكذب، وأن هذه القصة السخيفة لا أصل لها، أنت تعلم ذلك، ففيم هذا التمثيل؟

فهتف فيدور بافلوفتش يقول في حماسة فَرِحة:

- كنت طول حياتي أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه القصة كاذبة لا أصل لها! والآن أيها السادة سأقول لكم الحقيقة كلها. غفرانك أيها الشيخ العظيم إن هذه النقطة الأخيرة التي ذكرتها عن تعميد ديدرو إنما اخترعتها في هذه اللحظة نفسها، وتخيلتها وأنا أرويها، ولم تكن قد خطرت ببالي مرة واحدة من قبل، وإنما أنا أضفتها رغبة في مزيد من البهجة... إنني أمثّل هذا التمثيل يا بيتر ألكسندروفتش، لأبدو أكثر لطفاً. ثم إنني لا أدري أنا نفسي في بعض الأحيان لماذا أفعل ذلك. أما عن ديدرو ذاك، وعن قول المطران: «الطائش يقول في سرّه»، فتلك قصة سمعت السادة الإقطاعيين في هذه المقاطعة يردّدونها أكثر من عشرين مرة، وذلك في شبابي أيام كنت أعيش عندهم، حتى أن عمتك نفسها يا بيتر ألكسندروفتش، عمتك المحترمة مافرا فومينشنا كانت تحب أن ترويها بين ما كانت تحب أن ترويه من أمور. وجميع الناس مقتنعون حتى هذا اليوم بأن ذلك الملحد ديدرو قد ذهب إلى المطران أفلاطون ليناقشه في مسألة وجود الله...

نهض ميوسوف نافد الصبر، شاعراً أنه فقد كل سيطرة له على نفسه. لقد جن غضباً، وأدرك أنه أصبح من ذلك مضحكاً هو أيضاً. إن ما يجري في هذه الصومعة لهو في الواقع أمر مستحيل تماماً.

فمنذ أربعين عاماً أو خمسين تتوافد على هذا المكان، حتى في عهود المشايخ السابقين، حشود كثيرة من الزائرين، ولكن أولئك الزائرين جميعاً بغير استثناء كانوا يجيئون ممتلئين بروح الاحترام والخشوع والتقديس. إن جميع أولئك الذين سُمح لهم بأن يتخطوا عتبة هذه الصومعة كانوا يدركون أنهم نالوا حظوة كبيرة وظفروا بنعمة عظيمة، وإن عدداً كبيراً منهم كان إذا دخلها ارتمى على الأرض راكعاً وظل على هذه الحال إلى آخر الزيارة. وإن أكثر الزائرين حتى أعلاهم مقاماً، وأغزرهم علماً - وقد كان بينهم أناس يتصفون حتى بالتفكير الحر، أقول كان أكثر الزائرين الذين يجيئون إلى الدير من باب الفضول أو لسبب آخر من الأسباب، يلزمون أنفسهم بواجب أولي بسيط هو أن يتقيدوا عند دخولهم إلى الصومعة جماعةً أو عند دخولهم إليها لمقابلة خاصة، أن يتقيدوا طوال مدة وجودهم في هذا المكان المقدس باتخاذ وضع يتصف بأقصى الاحترام والأدب واللباقة، لا سيما وأن الدير كان لا يطالب بأي مال، وأن كل شيء فيه يتم محبةً وإحساناً من طرف، وتوبةً وندامة من طرف آخر، وبدافع التحرق إلى حل مشكلة نفسية صعبة أو تجاوز ساعة أليمة من حياة القلب. كذلك كانت تجري الأمور دائماً، ثم إذا بفيدور بافلوفتش هذا يندفع فجأة في تهريج لا يليق بهذا المكان، تهريج لا بد أن يُحدِث في نفوس من يرون هذا المشهد أو في نفوس بعضهم على الأقل استغراباً شديداً ودهشة أليمة. فأما الراهبان الكاهنان اللذان ظل وجهاهما هادئين على كل حال فقد كانا يرقُبان ردَّ الفعل عند الشيخ بانتباه رصين وَقور، ويبدو عليهما أنهما يهمان أن ينهضا مثل ميوسوف تماماً. وأما أليوشا فقد كان خافضاً رأسه مجاهداً مصابراً باذلاً قصاراه حتى لا يبكي. إن ما يدهشه خاصة هو أن أخاه

إيفان فيدوروفتش، وهو الوحيد الذي كان أليوشا يعقد أملاً عليه والذي كان له نفوذ على أبيهما يمكنه من أن يتدخل في الأمر، قد لبث ساكناً على كرسيه، غاضاً بصره، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من استطلاع ليس في اكتراث أو اهتمام، كأنه غريب عن هذه القضية لا علاقة له بها ولا شأن له فيها. وأما راكيتين (وذلك هو اسم الطالب) الذي كان أليوشا يعرفه أيضاً حق المعرفة، ويكاد يعدّه صديقاً قريباً جداً، فإن أليوشا لم يجرؤ حتى أن ينظر إليه، لأنه كان يحزر ما يدور في فكره من معانٍ وخواطر (وهو الوحيد الذي يحزرها في هذا الدير على كل حال).

بدأ ميوسوف يقول وهو يلتفت نحو الشيخ:

- سامحني... لا شك أنك تعدّني شريكاً في هذه المهزلة الحقيرة. إن ذنبي الوحيد هو أنني تصورت أن كل إنسان، حتى ولو كان من نوع فيدور بافلوفتش، لا بد أن يحرص على أن يفهم واجباته عند زيارة شخص محترم مثلك... فلو كنت تنبأت بأنني سيكون عليّ أن أعتذر عن مجرد الدخول إلى هذا المكان في صحبته، إذن...

لم يكمل بيتر ألكسندروفتش جملته. وكان قد بلغ ذروة الاضطراب، فهمّ أن يخرج من الغرفة، ولكن الشيخ قال له وهو ينهض فجأة على ساقيه النحيلتين ويمسك بيتر ألكسندروفتش من يديه. ويجلسه على مقعده من جديد:

- لا تقلق، أرجوك... هدئ روعك، أرجوك... إن زيارتكم تسرني كثيراً وتبهجني بهجة خاصة.

وبعد أن انحنى تحيّة، التفت وعاد إلى مكانه يجلس على الأريكة الصغيرة من جديد.

صاح فيدور بافلوفتش فجأة يقول:

- تكلم أيها الشيخ العظيم، قل: هل تؤذيك حرارتي هذه أم لا؟

وكان فيدور بافلوفتش قد أمسك ذراعَيْ المقعد بيديه كمن يستعد لأن ينهض واثباً إذا جاء جواب الشيخ موجباً لذلك، فقال له الشيخ بصوت قاطع جازم:

- أرجوك مُلحّاً أن لا تقلق وأن لا تتحرج... لا تُكرِه نفسك على شيء، وتصرَّف كما لو كنت في منزلك... وإياك أن تشعر بالخزي من نفسك خاصة، فإن شعورك بالخزي من نفسك هو بعينه أصل البلاء.

- أتصرف كما لو كنت في منزلي؟ أتريد أن تقول إن عليَّ أن أطلق نفسي على سجيتها؟ إلا إن هذا لكثير، بل لأكثر مما ينبغي، ولكنني أوافق بتأثر وإعجاب! اسمع أيها الأب المبجل! لا تدفعني إلى إطلاق نفسي على سجيتها، لا تجازف فتفعل هذا... على أنني لن أمضي بعيداً هذا البعد كله. وإنني أنبِّهك لكي أحامي عنك. أما فيما عدا ذلك فإن كل شيء ما يزال غارقاً في ظلمات الجهل، رغم ما قاله بعضهم في وصف طبيعة نفسي. إنِ هذه الملاحظة تستهدفك أنت يا بيتر ألكسندروفتش! أما أنت أيها الإنسان الذي هو ضياءٌ كله، فإنني أضع عند قدميك إعجابي مندفعاً بغير حدود!

ثم نهض فرفع يديه إلى السماء وقال:

- «طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين أرضعاك»[35]، نعم الثديين على الأخص... إنك حين نصحتني منذ هنيهة بأن «لا أشعر بالخزي من نفسي، لأن هذا هو أصل البلاء»، قد نفذت إلى سريرتي وقرأت في أعماق قلبي ذلك بعينه ما أحسّه. إنني أشعر دائماً، حين أدخل على الناس، بأنني أخبث من غيري، وأن الآخرين جميعاً

يعدونني مهرِّجاً، فأخاطبهم عندئذٍ بيني وبين نفسي قائلاً: «ليكن... سأمثِّل دور المهرج طائعاً مختاراً، ولست أخشى رأيكم، لأنني أعرف أنكم جميعاً شر مني وأجدر بالاحتقار والازدراء!» ذلك هو السبب أيها الشيخ العظيم في أنني أهرِّج... إنني أهرج لشعوري بالخزي، لشعوري بالخزي وحده. إنني أعربد لإحساسي بالارتياب الدائم. آه... ليتني، حين أدخل على الناس، أستطيع أن أكون واثقاً من أن كل واحد سيعدّني على الفور خير إنسان وأذكى إنسان في العالم، إذن لأصبحت عندئذٍ رجلاً من أنبل الرجال!

قال ذلك ثم ارتمى راكعاً على حين فجأة يقول:

- يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟[36]

إنه ليصعب على المرء أن يقول في تلك اللحظة هل كان الرجل ما يزال يمثل ويهرِّج، أم كان قد استولى عليه حقاً انفعال كبير؟

نظر إليه الشيخ وقال له مبتسماً:

- تعرف أنت نفسك، منذ زمن طويل، ما الذي يجب عليك أن تعمله، فليس الذكاء هو ما يعوزك. امتنع عن الإسراف في الشراب والإفراط في الكلام، لا تستسلم للفجور، وتخلَّ خاصة عن عبادة المال. أغلق دكاكين بيع الخمرة، أغلق دكانين أو ثلاثة منها على الأقل إذا لم يسعك أن تغلقها كلها. وقبل هذا وذاك، لا تكذب... فذلك أهم شيء.

- ألعلك تشير إلى ما رويته عن ديدرو؟

- لا... ليس الأمر أمر ديدرو... فإنما الشيء الأساسي أن لا تكذب على نفسك. إن من يكذب على نفسه، ويرضى أن تنطلي عليه أكاذيبه، يصل من ذلك إلى أن يصبح عاجزاً عن رؤية الحقيقة في أي موضع، فلا يعود يراها لا في نفسه ولا فيما حوله، وهو

ينتهي أخيراً، لهذا السبب، إلى فقد احترامه لنفسه واحترامه لغيره. وإذا أصبح لا يحترم أحداً، أصبح لا يحب أحداً، فإذا هو من أجل أن يتسلى، لأنه أصبح بغير حب، يستسلم للأهواء ويندفع وراء الملذات الخسيسة، فيهوى عندئذٍ إلى قاع الرذيلة، ويصل من ذلك إلى درجة الحيوانية، وما هذا كله إلا لأنه يكذب بغير انقطاع، يكذب على غيره ويكذب على نفسه. إن من يكذب على نفسه يسرع كذلك إلى إهانة نفسه. ألا يشعر المرء بكثير من اللذة في بعض الأحيان حين يحس أنه مُهان؟ وهو يعلم مع ذلك أنه ما من أحد قال له كلمة سوء، وإنما هو اخترع الإهانة بنفسه اختراعاً في سبيل التلذذ بها، وكذب على نفسه، وبالغ وغالى تزييناً للموقف وزخرفة للوضع، وحمل كلمة من الكلمات على غير معناها، جاعلاً من الحبة قبة... هو يعلم ذلك، ولكنه يسارع إلى إهانة نفسه، ويهين نفسه متلذذاً تلذذاً يبلغ حد الفرح، فإذا هو يصل من ذلك آخر الأمر إلى الشعور بعداء حقيقي... ولكن إنهض عن الأرض، أرجوك... اجلس في مكانك، أرجوك، تلك كلها أوضاع كذب أيضاً...

- أيها المقدَّس، اسمح لي أن أقبّل يدك العزيزة اللطيفة! نهض فيدور بافلوفتش بوثبة، وطبع قبلة سريعة على يد الشيخ المعروقة. تماماً، تماماً، هذه هي الحقيقة. إن في إهانة المرء نفسه لذة. لقد أحسنت الإفصاح عن هذه الحقيقة. وتلك أول مرة أسمع فيها هذا الكلام. لقد ظللت طوال حياتي أهين نفسي، نشداناً للذة، بل وطلباً للجمال، لأن الإهانة ليست متعة فحسب، بل يمكن أحياناً أن يكون فيها جمال أيضاً. الجمال! ذلك ما نسيت أن تضيفه إلى كلامك أيها الشيخ العظيم! سوف أدوّن هذا في دفتري الصغير! لقد كذبت، كذبت بغير انقطاع عن الكذب طوال حياتي، في كل يوم، وفي كل

ساعة. أنا في الواقع كذب يحيا، أنا للكذب أبوه! لا بل لست للكذب أباه... لعلني أخطأت استعمال التعابير. والأَوْلى أن أقول إنني ابن الكذب لا أبوه... يكفيني كبراً أن أكون ابن الكذب... ولكن يا ملاكي الطيب، أحسب أن كذبة كالكذبة التي قلتها حين تكلمت عن ديدرو، أمر مباح من حين إلى حين! إن كذبة كهذه لا تسيء إلى أحد، على حين أن هناك كلمات ضارّة... بالمناسبة، أيها الشيخ العظيم... لقد أوشكت أن أنسى... إنني أنتظر منذ ثلاث سنين أن تتاح لي فرصة إلقاء سؤال عليك. كنت أريد أن أتعلم منك، كنت أريد أن أجيء إلى هنا لهذا الأمر خاصة، كنت أريد أن أعرف منك الحقيقة حول هذه النقطة تفصيلاً. ولكن أصدر أمرك أولاً إلى بيتر ألكسندروفتش بأن لا يقاطعني. إليك ما كنت أريد أن أعرفه: هل صحيح أيها الأب المبجَّل أن كتاب سِيَر الشهداء القديسين يروي في موضع من مواضعه قصة قديس قام بمعجزات واستشهد في سبيل إيمانه، أي قطعوا رأسه، فإذا هو ينهض، فيتناول رأسه من الأرض[37]، ويعانقه في حنان، ثم يسير مدة طويلة، حاملاً رأسه بيديه، حانياً عليه ملاطفاً له. قولوا لي أيها الآباء الطيبون، أهذا صحيح أم لا؟

قال الشيخ:

- بل هو غير صحيح.

وقال الراهب قيِّم المكتبة:

- لم يرد ذكر هذه القصة في أي موضع من مواضع كتاب سِيَر الشهداء. من هو القديس الذي تقصده؟

- أنا لا أعرف من هو. أنا أجهل كل شيء عن هذه الأمور. لا شك في أنني ضللت. لقد سمعت أحداً يروي هذه القصة. وهل

تعلمون من رواها لي؟ لم يروها لي أحد غير بيتر ألكسندروفتش هذا الذي ثار عليَّ منذ هنيهة بصدد ديدرو! هو الذي روى لي هذه القصة، نعم هو...

- هذا كذب. أنا لم أرو لك هذه القصة! ثم إنني لا أكلمك أبداً.

- أعترف بأنك لم تروها لي أنا. ولكنك رويتها في اجتماع كنت أنا موجود فيه. حدث ذلك منذ ثلاث سنين. ولئن كنت أتذكرها هذا التذكر الواضح فلأنك قد زعزعت إيماني في ذلك المساء، بتلك القصة المضحكة... نعم يا بيتر ألكسندروفتش! أنت لم تعرف ذلك، وما كان لك أن تتنبأ به، ولكنني عدت إلى منزلي في ذلك اليوم وأنا أشعر بأن يقيني قد ترنح، ولم يزد منذ ذلك اليوم على أن يهبط مزيداً من الهبوط. إنك يا بيتر ألكسندروفتش قد كنت السبب الحقيقي في سقوطي العظيم، واأسفاه! ليست القضية الآن قضية ديدرو!

كان فيدور بافلوفتش يتكلم بلهجة فيها لهجة الانفعال ونبرة التأثر، ولكن كان واضحاً للجميع في هذه المرة أنه عاد يمثل ويهرِّج. ومع ذلك شعر ميوسوف بأنه أوذي إيذاءاً شديداً أليماً. فدمدم يقول:

- يا للسخف! إنك لا تقول إلا حماقات! من الجائز حقاً أن أكون قد رويت هذه القصة مرة... ولكنني لم أكن أخاطبك أنت. كنت قد سمعت أنا هذه القصة... حدث ذلك في باريس. أكد لي فرنسي أن هذه القصة الواردة في كتاب سِيَر الشهداء تُتلى عندنا أثناء القداس... وكان هذا الفرنسي رجلاً مثقفاً قد تعمّق في دراسة إحصائيات روسيا تعمُّقاً كبيراً، وكان قد عاش في بلادنا زمناً طويلاً... أنا لم أقرأ كتاب سِيَر الشهداء بنفسي... ولست أنوي أن

أقرأه على كل حال... ما قيمة أحاديث تجري بها الألسن على مائدة طعام؟ لقد حدث هذا أثناء عشاء...

- أثناء عشاء... ها... ها.. يا للعشاء الجميل الذي كلفني إيماني!

كذلك قال فيدور بافلوفتش ساخراً.

فانفجر ميوسوف يصيح:

- ما شأني أنا بإيمانك؟

ولكنه ثاب إلى هدوئه فوراً فقال بلهجة احتقار:

- إنك تدنس كل ما تلمسه يداك!

فنهض الشيخ عندئذٍ مخاطباً جميع الحضور:

- معذرة أيها السادة. إنني مضطر أن أترككم لحظات. هناك زوار ينتظرونني وقد وصلوا قبلكم.

ثم أضاف يقول بمرح وهو يلتفت إلى فيدور بافلوفتش:

- أما أنت فاترك الكذب على كل حال.

وخرج. اندفع عندها أليوشا والمترهّب المبتدئ ليمسكاه ويساعداه على هبوط السلم. كان أليوشا قد نفد صبره، وقد أسعده أن ينصرف، وأسعده كذلك أن الشيخ قد استقبل الأمر مرحاً دون غضب. وكان الشيخ يتجه نحو الرواق ليبارك أولئك الذين كانوا ينتظرونه هناك، غير أن فيدور بافلوفتش وجد السبيل إلى استيقافه عند العتبة. قال بصوت مختلج:

- أيها الإنسان المقدس جداً، اسمح لي أن أقبّل يدك العزيزة اللطيفة مرة أخرى! ذلك أن المرء يستطيع أن يتفاهم معك ويتنفس بحضورك! ومن دون أن يفقد حبّه للحياة وإقباله عليها لا تظننّ أنني أكذب هكذا طول الوقت وأنني لست إلا مهرجاً. الحق أنني فعلت

هذا عامداً من البداية إلى النهاية، فعلته عامداً لأختبرك وأمتحنك! لقد أردت أن أتأكد من أنني أستطيع أن أتنفس في حضورك، ومن أن شخصي الهيِّن يمكن أن يؤكد ذاته دون أن يصدم كبرياءك. في وسعي الآن أن أشهد لك شهادة جميلة: إن في وسع الإنسان أن يتنفس بحضورك! والآن لن أتكلم قط، لن أقول كلمة واحدة. سأجلس على هذا المقعد، فألبث ساكناً حتى النهاية. الكلام الآن لك يا بيتر ألكسندروفتش! تستطيع منذ هذه اللحظة أن تمثِّل دور الشخص الرئيسي... مدة عشرِ دقائق.

– 3 –

الفلاحات المؤمنات

في الأسفل، قرب الرواق الخشبي المتاخم للجانب الخارجي من السور، كان يزدحم جمهور ليس فيه هذه المرة إلا نساء. إن عددهن نحو من عشرين فلاحة. لقد أُبلغن أن الشيخ سيخرج إليهن، فاحتشدن ينتظرنه. وقد ذهبت السيدتان خوخلاكوف أيضاً إلى الرواق، ولكنهما ذهبتا إلى المكان الموقوف على ذوات المكانة من الزائرات. هما أم وابنتها. إن السيدة خوخلاكوفا الأم، وهي امرأة غنية جداً أنيقة الهندام دائماً، ما تزال تبدو شابة، وهي لطيفة باشة، شاحبة الوجه قليلاً، لها عينان توشكان أن تكونا سوداوين على سطوع شديد وحركة قوية. إنها لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها، وقد مات عنها زوجها منذ خمس سنين. أما ابنتها، وهي في الرابعة عشرة من العمر، فهي مصابة بشلل في الساقين. لقد أصبحت الصبية المسكينة عاجزة عن المشي منذ ستة أشهر، فنقلوها الآن في كرسي متحرك. إن لها وجهاً رائعاً فتاناً، قد أضناه المرض قليلاً، لكنه على جانب عظيم من اللطف والبشاشة، بل إن شيئاً من المكر يتراءى في عينيها الواسعتين القاتمتين اللتين لهما أهداب طويلة. لقد كانت أمها تنوي منذ الربيع أن تمضي بها إلى الخارج، غير أن أعمالاً بدأت في أرضهما فأجبرتهما على البقاء في روسيا طول

الصيف؛ وهما لا تقيمان في مدينتنا إلا منذ أسبوع، لا لزيارة الدير بل لقضاء بعض الأعمال في الواقع، غير أنهما قد جاءتا إلى الشيخ مرة أولى منذ ثلاثة أيام، وهما تعودان الآن إلى الدير على غير توقع، رغم أنهما تعلمان حالة الشيخ الذي أصبح لا يكاد يستطيع استقبال الزائرين. لقد توسلتا بكثير من الإلحاح أن يمنّ عليهما «بأن تسعدا برؤية هذا الشافي العظيم مرة أخرى».

وبانتظار ظهور الشيخ اتخذت الأم مكاناً على كرسي قرب مقعد ابنتها المتحرك؛ وعلى بعد خطوتين منهما كان يقف راهب عجوز لا ينتمي إلى هذا الدير، ولكنه كان ماراً بالمدينة. لقد ترك ديره إلى حين، وهو دير غير مشهور يقع في منطقة نائية بشمال روسيا. إن هذا الراهب العجوز يريد هو أيضاً أن يحظى بمباركة الشيخ. ولكن الشيخ الذي ظهر على الرواق في تلك اللحظة إنما اتجه أولاً إلى طبقة الشعب. تدافع الجمهور نحو درجات المدخل التي لا تزيد على ثلاث؛ ومن على هذه الدرجات الثلاث إنما يطل على الحقول الرواقُ الذي لا يرتفع كثيراً عن سطح الأرض. توقف الشيخ على الدرجة العليا من هذه الدرجات، وتلفع بلفاع الكاهن وأخذ يبارك النساء اللواتي يزدحمن أمامه. قدمت إليه كليوكوشا كانت تجرها امرأتان تمسكانها من يديها، فما إن لمحت المسكينة الشيخ حتى أخذت تطلق صرخات حادة غريبة تدل على هذيان، وهي ترتعش ارتعاشاً قوياً من أخمص قدميها إلى قمة رأسها، كأنها مصابة بالصرع. وضع الشيخ لفاعه على رأس المريضة، وتلا دعاءً قصيراً، فإذا بالمرأة تصمت وتهدأ. لا أدري ماذا يحدث الآن، ولكنني في أثناء طفولتي قد أتيح لي مراراً أن أرى وأن أسمع هاته النسوة المريضات في قرانا وفي أديرتنا. كان يؤتى بهنّ إلى الصلاة معولات

أو نابحات كالكلاب، فيملأن بصرخاتهن أرجاء الكنيسة. فما إن يُقرَّبن من القربان المقدس حتى يزول عنهن «المس» فجأة، ويستعدن هدوءهن في كل مرة إلى حين. وقد أدهشني ذلك كثيراً في طفولتي وترك في نفسي أثراً قوياً. ولكنني حين سألت عن سِرّ هذا الأمر قال لي بعض الملاَّكين، وقال لي معلمو مدرستي في المدينة خاصة، إن ذلك كله ليس إلا تظاهراً كاذباً، وإن هاته النسوة كسالى لا يردن أن يعملن، وإن من الممكن دائماً ردّهن إلى الصواب بإظهار شيء من القسوة. حتى لقد رُويت حكايات في بيان صحة هذا التفسير. ومع ذلك علمت بعد ذلك من أطباء مختصين، على دهشة مني، أن الأمر ليس أمر تظاهر كاذب، وأن هذا في الواقع مرض رهيب تصاب به النساء، وأن هذا المرض منتشر انتشاراً واسعاً في روسيا خاصة، وأن مردَّه إلى ما تتصف به ظروف حياة المرأة في أريافنا من قسوة شديدة، فهذا المرض يرجع إلى أن الفلاحات في بلادنا يقمن بأعمال مرهقة بعد نفاس شاق أليم لم تحتمله أجسامهن بسبب قلة العناية الطبية بهن؛ تضاف إلى ذلك آلام من أنواع شتى، جسمية ونفسية، مردُّها إلى ما ينالهن من ضرب مبرح، وإلى ما يصيبهن من سوء المعاملة، وإلى ما يلمّ بهن تبعاً لذلك من كمد وكرب ويأس، لأن بعض النساء لا يستطعن احتمال محنٍ قد يعدها غيرهن عادية لا غرابة فيها. فأما ذلك الشفاء العجيب الذي تُنقَذ به نساءٌ مصابات بهذا المس متى أدنين من القربان المقدس - وهو شفاء يدّعي بعضهم تعليله بالتظاهر الكاذب، وحتى بخداع مقصود يخرجه «رجال الكهنوت» إخراجاً مسرحياً - فالحق أنه يرجع هو أيضاً إلى أسباب طبيعية؛ ثم إن النساء اللواتي يدنين الممسوسات من القربان المقدس، والممسوسات أنفسهن خاصة، مؤمنات إيماناً عميقاً

كإيمانهن بحقيقة راسخة ثابتة، أن الروح الخبيثة التي حلت فيهن لا تستطيع احتمال وجود القربان المقدس، فإذا هي تبارحهن متى دنون منه وانحنين له. لذلك لا بد أن يحدث اهتزاز شامل قوي في جسم هاته النسوة المصابات بمرض عصبي نفسي معاً منذ يُواجهن بالقربان المقدس؛ فهذا الاهتزاز نتيجة طبيعية لتوقع الشفاء الذي لا بد منه في نظرهن، ولانتظار البرء الذي لا محيص عنه حتماً، وهو نتيجة طبيعية لإيمانهن بالمعجزة إيماناً ليس له حدود. فلذلك كان يحدث الشفاء ويتم البرء، ولو إلى حين قصير. وهذا يعنيه هو ما وقع في الحالة الراهنة حين خلع الشيخ على المريضة لفاعه وتلا دعاءه.

كان بين الجمهور الذي ازدحم حول الشيخ نساء كثيرات أخذن يبكين حناناً وخشوعاً وحماسة بتأثير تلك اللحظة. واندفعت نساء أخريات تريد أن تقبل ثيابه على الأقل. وراحت بعضهن يرتلن بصوت خافت رتيب. باركهن الشيخ جميعاً، وتحدث مع بعضهن. وكان يعرف الكليكوشا التي قدمت إليه. إنها من قرية مجاورة تقع على مسافة ستة فراسخ من الدير؛ وما هذه أول مرة يؤتى بها إليه على كل حال.

قال الشيخ وهو يشير إلى امرأة أخرى لم تطعن في السن بعد، ولكنها نحيلة ضاوية معروقة، لها وجه ليس ملوَّحاً ولكنه مسوداً اسوداداً غريباً (كانت راكعةً على ركبتيها تحدق إلى الشيخ بنظرة ساكنة جامدة، وفي وجهها شيء من الوجد والنشوة):

- هذه آتية من مكان أبعد.

فقالت المرأة بصوت كأنه الغناء وهي ترجح رأسها ترجحاً متواتراً موقعاً، وقد أسندته إلى راحة إحدى يديها:

- نعم يا أبتي، أنا آتية من مكان بعيد، بعيد جداً، يبعد عن هنا

ثلاثمائة فرسخ. - كانت المرأة تتكلم بلهجة هي إلى الترتيل أقرب. إن بين أفراد الشعب أناساً يتألمون ألماً أخرس مذعناً، هو ألم ينطوي على ذاته ويعتصم بالصمت. غير أن هناك أناساً يتألمون ألماً متفجراً ينطلق انتحابات على حين فجأة، ثم إذا هو يعتصم بعد ذلك بالترتيل. وهذه حالة تلاحظ على النساء خاصة. وليس هذا الألم أقل أو أخفَّ من ألم الصامتين. إن الترتيل لا يخفف عن النفس إلا لأنه يحيي جروح القلب وينكؤها أعمق فأعمق. إن هذه الصورة من صور الألم لا تتطلب عزاء ولا تسعى إلى سلوى، لأنها تغتذي من الشعور باستحالة إشباعه، فالترتيل إنما يعبر عن الحاجة إلى نكء الجروح بغير توقف.

استأنف الشيخ يقول وهو يتفرس فيها بانتباه:

- لعلك من أهل المدن؟

- نعم أنا من المدينة أيها الأب الطيب، نعم... وإن أكن قروية الأصل. نحن من أهل البندر، لأننا نعيش في المدن. ومن أجل أن أراك إنما جئت إلى هنا أيها الأب الطيب. لقد حدثونا عنك، أيها الأب، فرأوا أشياء كثيرة. لقد دفنت ابني، ابني الصغير... فخرجت أضرب في الأرض حاجَّةً، فمررت بثلاثة أديرة، فقيل لي هنالك: «إذهبي إليه أيتها المسكينة ناستاسيوشكا[38]... إذهبي لرؤيته هو... يقصدون أنت... إذهبي لرؤيته... رؤية الأب العزيز...» هكذا جئت إليك. أمس حضرت صلاة الليل، وها أنذا الآن أمامك.

- لماذا تبكين؟

- أبكي صغيري أيها الأب الطيب. كان عمره ثلاثة أعوام إلا ثلاثة أشهر[39]. إنني أبكي ابني، أبكي صغيري. ذلك ما يعذبني. كان آخر أبنائي. كان لنا أنا وزوجي المسكين نيكيتوشكا[40] أربعة أبناء. إن الأطفال لا يبقون عندنا. إنهم يتركوننا يا أبانا المحترم،

إنهم يتركوننا. دفنت الثلاثة الأول، فسرعان ما تعزيت عنهم. أما ذاك، الأخير، فإنني لا أستطيع أن أنساه. يخيل إليّ أنني أراه، هنا، أمامي، أراه طول الوقت. جفّت نفسي بسببه. أنظر إلى ملابسه، إلى قميصه الصغير، إلى حذاءيه، فآخذ أنشج وأنتحب. أعرض أشياءه أمامي أتأملها. . . أستعرض جميع بقاياه التي تذكرني فأبكي. قلت لنيكيتوشكا، زوجي: «دعني أمضي. . . أريد أن أضرب في الأرض حاجّةً». زوجي حوذي. ولسنا فقراء أيها الأب الطيب. عندنا مال. حياتنا ليست رهناً بأحد. نملك خيولاً وعربة ننفق عليها من مالنا. فيم ينفعنا هذا كله الآن؟ وقد انحدر عزيزي نيكيتوشكا إلى طريق الضلال حين تركته. أخذ يشرب. أنا أعلم ذلك. وما هذه أول مرة. كان يضعف كلما حولت عيني عنه. ولكنني الآن لا أحفل بذلك. أصبحت لا أفكر فيه. تركت المنزل منذ ثلاثة أشهر. نسيته. نسيت كل شيء. أصبحت لا أريد أن أتذكره. وما عساني أفعل معه؟ لقد أنهيت صلتي به، أنهيت صلتي بجميع الناس. لا أريد أن أرى منزلي بعد الآن يوماً، لا منزلي ولا رزقي، لا أريد أن أرى شيئاً البتة!

قال الشيخ ببطء:

- اسمعي أيتها الأم الطيبة! في يوم من الأيام رأى قديس كبير من قديسي الماضي، رأى في الهيكل أماً تبكي ابنها الذي فقدته مثلما تبكين ابنك الآن. . . كان ابنها طفلاً صغيراً كابنك، وكان ابناً وحيداً أخذه الرب إليه. قال لها القديس: «ألست تعلمين إذن أن جميع الصغار الذين من هذا النوع يملكون جرأة كبيرة أمام عرش الرب؟ بل ليس في ملكوت السماء كله أحد أجرأ من هؤلاء الصغار! إنهم يقولون للرب: «لقد وهبت لنا الحياة أيها الرب، فما إن رأينا الحياة حتى استرددتها منا!» هم يكلمون الرب ويطالبونه بهذه الجرأة حتى

يرفعهم فوراً إلى مصاف الملائكة. وقال لها القديس بعد ذلك: «يا امرأة! كفي إذن عن البكاء، وابتهجي وافرحي، ما دام الأمر كذلك، لأن ابنك يسكن الآن قرب الرب بين الملائكة!» بهذا حدَّث القديس في الماضي المرأة التي كانت تبكي. ولقد كان قديساً عظيماً فلا يمكن أن يكذب على تلك المرأة. فاعلمي هذا أنت أيضاً أيتها الأم الطيبة، اعلمي أن ابنك الصغير يقف الآن قرب عرش الرب، فهو يفرح ويبتهج ويتوسل إلى الرب من أجلكِ. ولذلك عليك أن لا تبكي، ولكن افرحي أيضاً.

كانت المرأة تصغي إلى الشيخ مسندةً رأسها إلى إحدى يديها، غاضةً بصرها. وتنهدت تنهداً عميقاً.

- بمثل هذه الأقوال إنما كان يعزيني زوجي المسكين نيكيتا! كان يقول مثلما تقول: «لماذا تبكين أيتها المرأة الطائشة؟ لا شك في أن ابننا هو الآن قرب الرب مع الملائكة». كان يقول لي هذا الكلام، ويبكي هو نفسه، وكنت أنا أرى أنه يبكي مثلما أبكي... قلت له: «أعلم ذلك يا نيكيتا... أعلم أن ابننا هو الآن عند الرب، وأين عساه يكون إن لم يكن عند الرب؟ ولكنه ليس عندنا يا نيكيتا، ليس معنا، ليس جالساً إلى جانبنا كما كان يجلس إلى جانبنا من قبل!» ليتني أستطيع أن أراه مرة أخرى، مرة واحدة، مرة واحدة لا أكثر... وأن أنظر إليه، أن أنظر إليه مرة واحدة، صغيري الحبيب! لن أقترب منه، سأختبئ في ركن، وسأصمت! آه... أن أراه مرة أخرى، ولو دقيقة واحدة! ليتني أسمعه يلعب في المنزل، ثم يناديني بصوته الرقيق كما كان يفعل: «ماما! أين أنت؟» ليتني أسمعه يركض في الغرفة على قدميه الصغيرتين، ليتني أسمع وقع خطواته على الأرض: تك.. تك... ولقد كان يجيء إليّ، إنني أتذكر هذا

كثيراً، كثيراً جداً يجيء إلي راكضاً صائحاً ضاحكاً.. آه.. ليتني أسمع وقع خطواته، خطواته الصغيرة، فأعرف أنه هو... ولكن لا... يا أيها الأب الطيب... لن أسمعه بعد اليوم قط!.. انظر... هذا حزامه الصغير... أما هو فقد ذهب، ولن أراه بعد الآن في يوم من الأيام، ولن أسمعه بعد الآن في يوم من الأيام!..

- قالت المرأة ذلك وأخرجت من عبِّها الحزام الصغير المزخرف، حزام ابنها الصغير، فما إن رأته حتى هزَّها النشيج، فسارعت تخفي عينيها بيديها، وأخذت الدموع تسيل من خلال أصابعها متدفقة على حين فجأة في كل جهة من الجهات.

قال الشيخ:

- هذه راشيل، راشيل القديمة، تبكي صغارها ولا يعزيها عن فقدهم شيء[41]. ذلك هو حظكن في هذا العالم أيتها الأمهات! لا تتعزي يا امرأة، فليس العزاء هو ما أنت في حاجة إليه. لا تتعزي... بل ابكي ما استطعت إلى البكاء سبيلاً. ولكن تذكري وأنت تبكين، تذكري في كل مرة، أن صبيك الصغير هو أحد ملائكة الرب، وأنه يراك من علياء السماء، وأنه ينظر إليك، ويغتبط لدموعك، ويلفت إليها انتباه الرب. ستظلين خلال زمن طويل تسكبين هذه الدموع، دموع الأم المفجوعة بابنها. ولكن بكاءك سيستحيل أخيراً إلى فرح هادئ، وستصير دموعك المرة إلى عبرات حنان وادع، وتطهُّر روحي يخلصك من الخطيئة. أما ابنك فسأصلي من أجل راحة روحه. ماذا كان اسمه؟

- ألكسي، أيها الأب الطيب.

- اسم جميل. مولاه هو القديس ألكسي أحد أولياء الله، أليس كذلك؟

- نعم يا أبانا! ألكسي أحد أولياء الله!

- ما أعظمه من قديس! سأذكره في صلواتي[42]. وسوف أصلي من أجلك أنت أيضاً أيتها الأم الطيبة، لأنك تتألمين، وسوف أصلي من أجل زوجك كذلك حتى لا يصيبه سوء. ذلك أن هجرك إياه خطيئة، هل تعلمين؟ عودي إلى البيت لتسهري عليه وتعتني به. إن ابنك حين يرى من علياء السماء أنك تركت أباه سوف يبكي عليكما كليكما. فهل تريدين أن تدمري راحة نفسه؟ إنه حي، حي لأن النفس لا تموت أبداً. ولئن غاب عن منزلك، إنه لقريب منك ولو لم تريه. فكيف يمكن أن يجيء إليك إذا كنت قد كرهت منزلك وبيتك؟ من عساه يزور إذا لم يستطع أن يجد الاثنين، أمه وأباه معاً؟ إنه يظهر لك في المنام فتتعذبين، فعودي إلى منزلك يرسل إليك أحلاماً تهدئ روعك! ارجعي إلى زوجك أيتها الأم الطيبة، ارجعي إليه اليوم بالذات!

- سأعمل بما تقول أيها الأب، سأرجع إلى منزلي! لقد قرأت ما في قلبي! أواه يا عزيزي نيكيتا، يا عزيزي نيكيتوشكا، يا طائري الصغير، إنك تنتظر أوبتي، وإني لآيبة!

عادت المرأة ترتل كلامها ترتيلاً، ولكن الشيخ كان قد دنا من عجوز قصيرة طاعنة في السن جداً، لا ترتدي ما يرتديه الحجاج، وإنما هي تلبس ثوباً عادياً من ثياب المدينة. كان في وسع المرء أن يرى في عينيها أنها جاءت لأمر بعينه من الأمور، وأنها تريد أن تتكلّم عن هذا الأمر. قدمت نفسها للشيخ على أنها أرملة رجل كان من ضباط الصف في الجيش. إنها تسكن في مدينتنا غير بعيد. وقد خدم ابنها فاسنكا في مركز من مراكز الشرطة، ثم سافر إلى إيركوتسك بسيبيريا. كتب إليها رسالتين في البداية، ثم انقطعت عنها

أخباره منذ سنة. أرادت أن تسأل عنه وأن تتقصى أنباءه، ولكنها لا تعرف إلى من تتجه... قالت:

- إن ستيبانيدا إيلينشنا بدرياجينا، وهي تاجرة غنية، قالت لي: «هلمي فسجلي اسم ابنك في سجل المرحومين يا بروخوروفنا، واحمليه إلى الكنيسة، بغية أن تتلى صلاة الرحمة عليه، فتحن روحه إليك ويكتب رسالة. وقد أكدت ستيبانيدا إيلينشنا أن «هذه وسيلة مضمونة نجحت دائماً». غير أن في نفسي شكوكاً... فقل لي، وأنت ضياؤنا، أهذا صحيح أم لا، وهل يجب عليّ أن أتّبع نصيحتها؟

- دعيك من فكرتك هذه! ألا تستحين أن تلقي سؤالاً كهذا السؤال؟ كيف يخطر ببالك أن يُصلَّى على روح ابنك وهو ما يزال حياً؟ أتفعلين هذا وأنت أمه؟ تلك خطيئة كبرى تشبه خطيئة السحر، وستُغفر لك بسبب جهلك فقط، والأَوْلى أن تتضرعي إلى ملكة السماء، التي تسارع إلى الشفاعة والحماية، أن تسهر على صحة ابنك، وأن تغفر لك هذه الفكرة الآثمة التي خطرت ببالك. واسمعي ما سأقوله لك أيضاً يا بروخوروفنا: إن ابنك سيرجع إليك قريباً، أو سيكتب إليك حتماً. كوني على ثقة. وانصرفي الآن بسلام. إن ابنك حي. صدقيني.

- جزاك الله خيراً أيها المحسن إلينا، الشفيع لنا، يا من تصلي من أجلنا جميعاً، وتستغفر عن خطايانا...

في أثناء ذلك لاحظ الشيخ في الجمهور نظرة حادة شاخصة إليه محدقة فيه، هي نظرة فلاحة شديدة النحول يبدو عليها أنها مصابة بالسل، على أنها ما تزال شابة. كانت تنظر إليه صامتة، وكأن عينيها تسألان شيئاً من الأشياء ضارعتين متوسلتين، ولكنها تخشى أن تقترب فيما يبدو. سألها الشيخ:

- وأنت ماذا تريدين أيتها الأخت الحبيبة؟
فقالت بصوت بطيء خافت:
- أنقذ نفسي أيها الأب الحبيب!
ثم جثت على ركبتيها وانحنت ساجدة على الأرض.
- لقد أثمت يا أبتاه، وأنا خائفة من إثمي.
قعد الشيخ على الدرجة الدنيا، واقتربت المرأة منه وهي ما تزال جاثية.
بدأت تقول بما يشبه الهمس، بينما كان يهزُّها نوع من التشنج:
- ترملت منذ ثلاث سنين. كنت شقية مع زوجي. كان هرماً وكان يضربني كثيراً. ففي ذات يوم، بينما كان مريضاً متمدداً على سريره، نظرت إليه وقلت بيني وبين نفسي: «ما عسى تكون حياتي إذا شفي من مرضه ونهض من جديد؟» في تلك اللحظة إنما برقت في ذهني تلك الفكرة بالذات...
- انتظري لحظة.
كذلك قال الشيخ ثم دنا من المرأة ووضع أذنه على شفتيها. تابعت الفلاحة رواية قصتها بهمس يبلغ من الخفوت أن المرء أصبح لا يكاد يسمع كلمة مما تقوله. ولم تطل مسارَّتها.
سألها الشيخ:
- أهذا منذ ثلاث سنين؟
- نعم من ثلاث سنين. لم أكن أفكر في الأمر من قبل. أما الآن فقد صرت مريضة. إن خواطر مظلمة تملأ جوانب نفسي.
- أأنت آتية من مكان بعيد؟
- من مكان يقع على مسافة خمسمائة فرسخ من هنا.
- هل ذكرت هذا في الاعتراف للكاهن؟

- نعم. . ذكرته مرتين.
- هل قبلوا أن تتناولي القربان المقدس؟
- قبلوا. ولكنني خائفة، خائفة من الموت.
- لا تخشي شيئاً. لا تدعي للخوف أن يستولي عليك، واطردي الحزن من نفسك. اجعلي الندامة مستقرة في قلبك قويةً عميقة، فيغفر الله لك كل شيء. ليس على هذه الأرض ولا يمكن أن يكون خطيئة تبلغ من الهول أن الرب لا يمكن أن يغفرها لمن ندم عليها صادقاً. ثم إن الإنسان لا يمكن أن تبلغ خطيئته هذا المبلغ، ولا أن يقترف آثاماً كبيرة إلى حيث تستنفد رحمة الرب التي لا حدود لها. أفتظنين أن في هذا العالم ذنباً يمكن أن يفوق الحب الإلهي؟ اندمي، اندمي، بنفسك كلها، واطردي من قلبك كل خوف. ثقي أن الرب يحبك أكثر مما تستطيعين أن تتصوري، وأنه يحبك حتى في خطيئتك، ورغم هذه الخطيئة. إن الآثم الذي يندم ويتوب يكون فرح في السماء به أكثر من عشرة بررة[43]. كذلك قيل من زمن بعيد. امضي. لا تخشي شيئاً. ولا تحملي للبشر حقداً. انسي الإساءات. اغفري في قلبك للمتوفى ما ألحقه بك من سوء وما نالك به من أذى، وصالحيه في قرارة نفسك. أنت تحبين ما دمت تشعرين بالندامة. وما دمت تحبين فأنت لله. . . إن الحب قادر على كل شيء، إنه ينقذ كل شيء. لئن كنت، وأنا الخاطئ مثلك، أشاركك ألمك وأندب حظك، فما بالك بالرب! إن الحب غنى عظيم يمكن أن يهب لنا الكون كله، وأن يجعلنا نكفّر لا عن خطايانا نحن وحدها، بل عن خطايا الآخرين أيضاً. انصرفي الآن بسلام، وكوني بلا خوف.

قال الشيخ ذلك ورسم إشارة الصليب عليها ثلاث مرات، وتناول صورة مقدسة كان يحملها في عنقه فوضعها في عنق الفلاحة. حيّته

الفلاحة صامتةً وانحنت حتى الأرض. ونهض الشيخ ببطء، وأشرقت نظرته حين وقعت على امرأة تفيض صحة وسناء وهي تحمل بين ذراعيها رضيعاً.

- أنا آتية من فيشجوربيه يا أبانا الطيب.

- قطعتِ إذن ستة فراسخ حاملةً هذا الصبي على ذراعيك فيم ترغبين؟

- أردت أن أراك فقط. لقد سبق أن جئت إليك، ألا تتذكر؟ إن كنت قد نسيتني فليست ذاكرتك إذن بالقوية. لقد قالوا عندنا إنك مريض، فأردت أن أراك بعيني. وإني لأنظر إليك الآن فما ألاحظ أنك مريض. دعك من هذا! لتعيشنَّ عشرين سنةً أخرى إن شاء الله. ما أكثر الذين يدعون لك ويصلون من أجلك، فكيف يمكن أن تمرض؟

- أشكرك أيتها المرأة الطيبة، أشكرك على كل شيء!

- لي عندك رجاء آخر، وإن يكن هيناً. إليك ستين كوبيكاً فاهدها يا أبت لامرأة أخرى، لامرأة أفقر مني. لقد قلت لنفسي وأنا في طريقي إلى هنا. «سأعطي هذا المال له هو، فإنه أدرى مني بمن يستحق أن يوهب له».

- شكراً، شكراً أيها القلب الطيب. هذا يسرني. سوف أفعل ما تطلبين. هل طفلك هذا بنت؟

- بنت أيها المبارك! اسمها ليزافيتا.

- بارك الله فيكما كليكما أنت وابنتك ليزافيتا. لقد أفرحت قلبي أيتها الأم الطيبة. إلى اللقاء يا أصدقائي، إلى اللقاء يا أعزائي، يا أولادي الطيبين.

بارك الشيخ الحجاج وحيَّاهم بانحناءة عميقة.

- 4 -

السيدة الضعيفة الإيمان

كانت السيدة الإقطاعية الزائرة تبكي بكاءً رقيقاً هادئاً من تأثرها برؤية الشيخ وهو يتحدث إلى العامة ويباركهم؛ وكانت تجفف عبراتها بمنديل صغير. إنها امرأة من الطبقة العليا حساسة جداً صادقة الطيبة كثيراً. فلما اقترب الشيخ منها أخيراً، تلقته بكثير من العاطفة المتدفقة قائلة:

- ما كان أعمق انفعالي، وأشد اضطرابي حين رأيت هذا المشهد المؤثر...

وقطع الاهتياج كلامها فلم تتابعه. ثم استأنفت تقول بعد لحظة:

- إنني أفهم أن يحبك الشعب. وأنا أيضاً أحب الشعب، أنا أريد أن أحبه. وكيف لا يحب المرء شعبنا الروسي الرائع هذا، كيف لا يحب المرء هذا الشعب العظيم والبريء الساذج في آن واحد؟

- كيف حال ابنتك؟ كنت تريدين حديثاً آخر معي؟

- أوه... لقد ألححت في طلب هذه المنّة. توسّلت وتضرّعت، وكنت مستعدة لأن أجثو على ركبتَيَّ ثلاثة أيام بلياليها تحت نوافذك في سبيل أن تستقبلني. لقد جئناك، أيها الشافي العظيم، لنعبّر لك عن شكرنا الحار، لأنك قد شفيت ابنتي ليزا من مرضها، شفيتها شفاء تاماً، وبماذا؟ بأن دعوت لها يوم الخميس الماضي ووضعت

يديك عليها! إن علينا أن نسارع إلى تقبيلهما، هاتين اليدين المباركتين، وأن نظهر لك تأثرنا، وأن نعرب عن تبجيلنا وتقديسنا!

- شفيتها؟ كيف هذا؟ إنني ما زلت أراها متمددة في مقعدها. . .

- ولكن الحمى التي كانت توافيها في الليل قد زالت زوالاً تاماً، زالت منذ يومين، منذ ذلك الخميس تماماً (كذلك أسرعت تضيف السيدة قولها هذا بشيء من العصبية). وأكثر من ذلك إن ساقيها قد اشتدتا وقويتا، لقد استيقظت هذا الصباح معافاةً تماماً، بعد أن نامت طول الليل. انظر إلى ألوان خديها وبريق عينيها! كانت قبل الآن ما تنفك تبكي، وها هي ذي الآن تضحك مرحةً كل المرح سعيدة كل السعادة. أصرّت اليوم إصراراً مطلقاً على أن تنهض قائمة، واستطاعت أن تقف على ساقيها ساعة كاملة دون أن تُسند. وقد راهنتني على أنها ستكون بعد أسبوعين قادرة على أن ترقص. استدعيت طبيبنا الدكتور هرتسنشتوبه، فهز كتفيه وقال: «إنني لا أفهم شيئاً وأستغرب». فكيف تريد بعد هذا أن لا نجيئك ونحن نحترق شوقاً إلى أن نطير إليك، وأن نصيح تعبيراً عن عرفاننا بجميلك؟ اشكري له صنيعه يا ليزا، أشكري!

اكتسى وجه ليزا الجميل الضاحك هيئة الجد في اللحظة الأولى، ونهضت عن كرسيها ما استطاعت النهوض، ونظرت إلى الشيخ ضامةً يديها. ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها، فإذا هي تنفجر ضاحكةً على حين فجأة. . . قالت وهي تشير إلى أليوشا خجلةً غاضبة كطفل لم يملك أن يسيطر على نفسه وأن يمتنع عن الضحك:

- هو السبب، هو السبب!

لو ألقى أحد في تلك اللحظة نظرة على أليوشا الذي كان واقفاً

وراء الشيخ على بعد خطوة منه، للاحظ الحمرة الشديدة التي اصطبغ بها خداه فجأة. وومضت شعلة في عينيه اللتين سارع يغضهما.

تدخلت الأم قائلة:

- عندها رسالة تريد أن تنقلها إليك يا ألكسي فيدوروفتش...

وأضافت تقول وهي تلتفت نحو أليوشا بحرارة وتمد إليه يداً صغيرة يكسوها قفاز أنيق:

- كيف حالك؟

التفت الشيخ نحو أليوشا وألقى عليه نظرة منتبهة. ودنا الفتى من ليزا فمدَّ إليها هو أيضاً يده وهو يبتسم ابتسامة غريبة فيها كثير من الارتباك والحرج. وحاولت الفتاة أن تصطنع هيئة الوقار والرصانة. وقالت له وهي تناوله رسالة صغيرة:

- كلفتني كاترينا إيفانوفنا بأن أوصل إليك هذه الرسالة. إنها ترجوك كثيراً أن تجيء إليها، أن تجيء إليها بأقصى سرعة، ومن غير إبطاء. إنها تريد أن تراك حتماً، وتأمل أن لا تخيب ظنها.

- تريد أن أزورها؟ أنا؟... لماذا؟

كذلك دمدم يقول أليوشا وقد ظهرت في وجهه دهشة واضحة. واكتست سحنته فجأة تعبيراً عن همٍّ كبير.

قالت الأم تشرح:

- أوه... الأمر أمر دمتري فيدوروفتش طبعاً... وأمر هذه الأحداث الأخيرة كلها أيضاً... لقد اتخذت كاترينا إيفانوفنا قراراً في هذا الشأن. ولكنها تريد أن تراك أولاً... لماذا؟ لا أدري... ولكنها تصر إصراراً شديداً على أن تراك بأقصى سرعة. ستزورها، أليس كذلك؟ عليك أن تزورها حتماً العاطفة المسيحية نفسها تأمر بذلك.

عاد أليوشا يقول بلهجة تعبر عن تلك الدهشة نفسها:

- ولكنني لم أرها في حياتي إلا مرة واحدة.

قالت الأم:

- ولكنها إنسانة نادرة المثال، عظيمة النقاء، سامية النفس... ولو بسبب ما قاست من آلام على الأقل... تذكر ما عانته وما تزال تعانيه.. وفكّر أيضاً في ما ينتظرها... أليس هذا رهيباً، أليس رهيباً؟

قال أليوشا بعد أن مرّ بعينيه على الرسالة المقتضبة الغامضة التي لا تشتمل على أي إيضاح، ولا تزيد على أن تدعوه إلى زيارتها بإلحاح:

- طيب... سأذهب...

صاحت ليزا تقول وقد تحمست على حين فجأة:

- أوه!... ما أجمل هذا منك وما أنبله... تباً لي... لقد قلت لأمي: «لن يذهب حتماً... سوف يرفض قطعاً... لأنه اعتكف في الدير». إنك طيب جداً، نبيل جداً! لقد قدّرت دائماً أن لك نفساً رائعة، ويسرني أن أقول لك ذلك اليوم!

تدخلت الأم تقول بلهجة مهيبة:

ليزا.

ولكنها لم تلبث أن ابتسمت، ثم أضافت تخاطب أليوشا:

- لقد تركتنا نحن أيضاً يا ألكسي فيدوروفتش! أصبحت لا تزورنا أبداً، مع أن ليزا أسرت إليّ مرتين أنها لا تشعر بارتياح إلا بحضورك. رفع أليوشا عينيه اللتين كانتا مطرقتين إلى الأرض. واحمر من جديد، وابتسم مرة أخرى دون أن يعرف لماذا. كان الشيخ قد انصرف عنه فهو لا يلاحظه. كان الشيخ قد أخذ يكلم الراهب المار بالمدينة، الذي كان كما سبق أن قلنا ينتظر خروج

الشيخ قرب مقعد ليزا. كان واضحاً أن هذا الراهب واحد من أولئك الرهبان العاديين جداً الذين ينتمون إلى فرقة رهبانية عادية، ويملكون أفكاراً محدودة جامدة، ولكن يحركهم إيمان عميق جداً، إيمان ثابت على طريقتهم الخاصة. ذكر الراهب للشيخ أنه آتٍ من منطقة نائية بالشمال، من مدينة أوبدورسك[44]، من القديس سلفستر، وأنه ينتمي إلى دير فقير جداً، لا يضم إلا تسعة رهبان. باركه الشيخ، ودعاه أن يزوره في صومعته متى حلا له ذلك.

سأله الراهب فجأة وهو يومئ إلى ليزا بإشارة رصينة ذات أبهة:

- ما تلك القوة التي تتيح لك أن تحقق مثل هذه الأمور؟

كان الراهب يشير إلى «الشفاء» بمعجزة.

فقال له الشيخ:

- لم يحن وقت الكلام عن الشفاء بعد. ليس التحسن شفاءً تاماً، وربما كان مرد هذا التحسن إلى أسباب أخرى. وإذا كان ثمة معجزة مع ذلك، فليس الأمر إلا أمر قوة واحدة هي القوة التي تصدر إلينا عن النعمة الإلهية. لا شيء يتم إلا بإرادة الله.

وأردف الشيخ يقول متجهاً بالكلام إلى الراهب:

- تعال زرني أيها الأب، ما دام في وسعي أن أستقبلك: إنني مريض، وإنني أحس أن أيامي معدودات.

صاحت أم ليزا تقول:

- لا.. لا... إن الرب لن يحرمنا منك! ستعيش طويلاً، طويلاً جداً. ما عسى يكون مرضك؟ إن في وجهك كثيراً من الحياة والفرح والسعادة.

- صحيح إنني أشعر أن حالتي اليوم أحسن كثيراً مما كانت، ولكنني أعلم أن هذا لن يدوم. أنا أعرف الآن مرضي معرفة كاملة.

تقولين إنني أبدو فرحاً. فاعلمي أنه لا شيء يمكن أن يفرحني كما يفرحني أن أسمع منك هذه الملاحظة. لأن الإنسان إنما خلق للسعادة، والذي يشعر بسعادة كاملة يحق له أن يقول: «لقد حققت وصية الله في هذا العالم». إن جميع الأتقياء، وجميع القديسين، وجميع الشهداء، كانوا سعداء كلهم.

هتفت الأم تقول:

- ما أجمل هذا الكلام الذي تقول! ما أعظم وما أرفع هذه المعاني التي تعبِّر عنها كلماتك! إن كل كلمة تقولها تمضي إلى القلب رأساً. ولكن أين هي السعادة؟ من ذا الذي يستطيع أن يقول إنه سعيد؟ يا من تلطفت فأذنت لنا بأن نراك اليوم مرة أخرى، هلاَّ تحمَّلت أن أفضي إليك اليوم بما سكتُّ عنه أثناء زيارتنا السابقة ولم أجرؤ قط أن أتحدث عنه في المرة الأولى! دعني أكلمك في ما يعذبني كثيراً منذ زمن طويل، منذ سنين. إنني أتألم، معذرة... إنني أتألم... قالت السيدة ذلك وهي تضم يديها أمامه في سورة مفاجئة من الانفعال.

- ما الأمر؟

- إنني أتألم... من فقدي الإيمان...

- أأنت لا تؤمنين بالله؟

- ليس هذا... إنني لا أجرؤ حتى أن أفكر في هذا. وإنما أنا أشك في الحياة الأبدية. ذلك لغز لم استطع أن أستبينه! وما من أحد، ما من أحد يستطيع أن يقدِّم لي جواباً عن هذه المسألة! اصغ إليّ: أنت إنسان تشفي المرضى وتعرف أغوار النفوس. لست أطمع طبعاً في أن تصدِّقني تصديقاً كاملاً، ولكنني أؤكد لك، أقسم لك بأعظم ما في هذه الحياة، أنني لا أتكلم في هذه اللحظة طيشاً وخفة. صدقني: إن فكرة الحياة الآخرة هذه تؤلمني إلى حد

العذاب، إلى حد الرعب، إلى حد اليأس... لا أدري إلى من يجب أن أتجه... لم أجرؤ أن أتجه إلى أحد طول حياتي... ولكنني أجازف الآن فأتجه إليك... يا رب! ما عساك تظن بي من ظنون؟ (قالت ذلك وهي تعقف يديها).

أجابها الشيخ قائلاً:

- لا تهتمي برأيي. أنا مقتنع بصدق ما تعانين من كرب.

- أشكر لك ذلك أعمق الشكر! إنني أغمض عيني وأفكر. أقول لنفسي: «إذا كان جميع البشر يؤمنون، فمما ينشأ هذا؟ هناك من يذهب إلى أن كل هذا قد نشأ في البداية من الخوف الذي أحدثته في نفس الإنسان قوى الطبيعة العاتية، وأن لا شيء من ذلك موجود في الواقع». ثم أقول لنفسي عندئذٍ: «وإذن فإنني أنا التي آمنت طوال حياتي سأموت فما يبقى مني بعد الموت شيء، ما يبقى «إلا قليل من العشب على قبري»، كما قرأت هذا الكلام لكاتب من الكتّاب»[45] ذلك أمر مرعب! فكيف، كيف أرتد إلى الإيمان؟ على أنني لم أؤمن إلا في طفولتي، وكان إيماني بغير شعور البتة، بغير تفكير قط... فكيف، كيف السبيل إلى البرهان على الحقيقة؟ لقد جئت أسألك في مذلة وتواضع أن تنيرني يا أبتاه! فإذا أفلتت مني هذه الفرصة اليوم، فلن يستطيع أحد أن يجيبني في يوم من الأيام. ما السبيل إلى البرهان؟ بم يمكن أن أقتنع؟ ما أشقاني! إنني أنظر حولي فما أرى أحداً يقلقه هذا الأمر، وجميع الناس، أو جميع الناس تقريباً، لا يحفلون به ولا يكترثون له، وإنني الوحيدة التي لا تطيق احتمال هذا الشك. أمر رهيب، أمر رهيب!

- هو رهيب فعلاً. ولكن لا سبيل في هذا المجال إلى برهان. ومع ذلك يستطيع الإنسان أن يصل إلى اليقين.

- كيف؟ بأيّ طريقة؟

- بمعاناة الحبّ الفعّال. حاولي أن تحبي الأقربين حباً فعالاً بلا كلل. فكلما ازددت حباً ازددت اقتناعاً بوجود الله، وازددت اقتناعاً بخلود نفسك. متى وصلت إلى نسيان نفسك في حب الآخرين نسياناً تاماً، أصبح يقينك كاملاً فلم يساور نفسك بعد ذلك أي شك. تلك حقيقة مجرَّبة مؤكدة.

- أتقول: الحب الفعَّال؟ هذه مشكلة أيضاً، ويا لها من مشكلة! انظر يا أبتاه: إنني أبلغ من حبي الإنسانية أنه يتفّق لي في بعض اللحظات صدقني أن يخطر ببالي أن أدع كل شيء، وأن أنفصل حتى عن ليزا لأصبح ممرضة! إنني أغمض عيني، وأفكر، وأحلم، فأشعر في نفسي أثناء تلك اللحظات بقوة لا تغالَب. ما من جروح ولا من قروح متقيحة يمكن أن تخيفني... أنا أشعر بأنني مستعدة لأن أضمّدها، لأن أغسلها بيدي، وأتمنى لو أصبح حارسة للمرضى قرب هؤلاء الأشقياء، وأن أقبّل جراحهم...

- إنه لحسن جداً وجميل جداً أن ينصرف فكرك إلى هذه الأمور بدلاً من أن يفكر في أشياء أخرى كثيرة. بدأت أعتقد أنك ستنتهين في يوم من الأيام إلى أن تقومي بعمل جليل فعلاً.

تابعت السيدة تقول بحرارة وكأنها خارجة عن طورها حماسةً:

- نعم، ولكن إلى متى أستطيع أن أحتمل مثل هذه الحياة؟ ذلك هو السؤال الأساسي! ذلك هو، بين جميع الأسئلة، السؤال الذي يعذبني أكثر من سائر الأسئلة. إنني أغمض عيني وأسأل نفسي: «أتراكِ تستمرين طويلاً في هذا الطريق؟ وما عساك تفعلين إذا لاحظت أن المريض الذي ستغسلين قروحه لا يُظهر لك امتنانه ولا يعبِّر لك عن شكره فوراً، وإنما هو يرهقك بنزواته، دون أن يقدِّر بل

ودون أن يلاحظ إخلاصك للإنسانية المعذبة، وتفانيك في سبيلها؟ وما عساك تفعلين إذا هو ثار عليك، وأغلظ لك القول، أو شكاك إلى الإدارة (وذلك ما يفعله في كثير من الأحيان أولئك الذين يعانون آلاماً شديدة)؟ أتراك تستمرين في حبك أم لا تستمرين؟» هل تتصور؟ لقد قررت في دخيلتي بارتياع: «إذا كان هنالك شيء يمكن أن يطفئ جذوة حبي «الفعال» فوراً، فذلك الشيء إنما هو نكران الجميل». معنى هذا على وجه الإجمال أنني لا أقبل أن أفعل إلا بأجر، وأنني أطالب بأن يُجزى حبي على الفور مديحاً وحباً. وما لم أنل هذا الجزاء، لا أستطيع أن أحب أي إنسان!

كذلك اتهمت المرأة نفسها في فورة صدق جامح، حتى إذا فرغت من كلامها حدّقت إلى الشيخ وقد بدا في وجهها عزم يوشك أن يكون تحدياً.

قال الشيخ:

- ذلك بعينه ما حدثني به طبيب منذ زمن طويل. كان رجلاً مسنًا ينعم بحظ وافر من الذكاء. وكان يتكلم بصدق وإخلاص كما تتكلمين، ولئن تكلم مازحاً، لقد كان الحزن ظاهراً في مزاجه. قال: «إنني أحب الإنسانية، غير أن هناك شيئاً في نفسي يدهشني: كلما ازداد حبي للإنسانية جملةً واحدة، نقص حبي للبشر أفراداً، أي أشخاصاً لهم حياتهم الخاصة» وقال هذا الطبيب أيضاً: «إنه ليتفق لي كثيراً أثناء اندفاعي في الأحلام أن تستبد بي حماسة شديدة ورغبة عارمة جامحة في خدمة الإنسانية، حتى لقد ارتضي أن أُصلب في سبيل البشر إذا بدا هذا ضرورياً في لحظة من اللحظات. ومع ذلك لو أريد لي أن أعيش يومين متتاليين في غرفة واحدة مع أي إنسان، لما استطعت أن أحتمل ذلك. إنني أعرف هذا بتجربة. فمتى وجدت

نفسي قرب إنسان آخر أحسست بأن شخصيته تصدم ذاتي وتجور على حريتي. إنني قادر في مدى أربع وعشرين ساعة على أن أكره أحسن إنسان: فهذا يصبح في نظري إنساناً لا يطاق لأنه مسرف في البطء في تناوله الطعام على المائدة، وهذا لأنه مصاب بزكام فهو لا ينفك يمخط. إنني أصبح عدواً للبشر متى اقتربوا مني ولو قليلاً». وأضاف الطبيب يقول مؤكداً: «ولكنني لاحظت في كل مرة أنني كلما ازددت كرهاً للبشر أفراداً، ازدادت حرارة حبي للإنسانية جملةً».

- فما العمل في هذه الحالة؟ ما العمل؟ أليس هذا مدعاة لليأس تماماً؟

- كلا... إنه ليكفي أنك تتحسرين على ذلك. افعلي ما تستطيعين أن تفعلي، وسيُحسب لك هذا. ولقد فعلت كثيراً ما دمت قد استطعت أن تقرئي في قلبك بهذا العمق كله وهذا الصدق كله! وإذا كنت لم تحدثيني بمثل هذا الصدق، حتى في هذه اللحظة، إلا لتسمعي مني ثناءً على حبك للحقيقة، كما فعلتُ ذلك، فإنك لن تصلي طبعاً إلى شيء على طريق الحب الفعال، وستضيع حياتك في أحلام أكثر. ولكن من المؤكد أنك ستنسين عندئذٍ قلقك بصدد الحياة الآخرة، بل وستنتهين إلى أن يهدأ بالك فيما يتعلق بهذا الأمر، بطريقة أو بأخرى.

- لقد دمرتني! الآن أدركت، في هذه اللحظة وحدها، حين سمعت كلامك، أنني كنت لا أتوق في الواقع إلا إلى سماع ثنائك على صدقي في الاعتراف لك بعجزي عن احتمال نكران الجميل. لقد نفذت إلى دخيلتي، وكشفت عن قرارة قلبي، وحملتني على أن أفهم نفسي بنفسي.

- أصحيح هذا الذي تقولين؟ إنني بعد اعترافك هذا قد اقتنعت

بصدقك كل الاقتناع، وأيقنت بأن لك قلباً طيباً. فإذا لم تبلغي السعادة، فلا تنسي أنك سائرة في الطريق السليمة، فلا تحيدي عنها. واهربي من الكذب قبل كل شيء، اهربي من جميع أنواع الكذب، ولا سيما كذب الإنسان على نفسه. راقبي ذاتك وافضحي الكذب في نفسك كل ساعة، وكل لحظة. وتجنبي الاشمئزاز من الناس ومن نفسك على السواء: إن ما قد يبدو لك في طبيعتك شراً إنما يصفيه وينقيه ويطهره مجرد شعورك به. حاربي الخوف كذلك، وما الخوف على كل حال إلا ثمرة من ثمرات الكذب. لا يصدنّك عن ملاحقة الحب ما قد تثيره فيك عيوبك من رعب أو يأس، لا تدعي حتى لأفعالك السيئة نفسها أن تهزمك في هذا الكفاح. يؤسفني أنني لا أملك أن أقول لك شيئاً فيه مزيد من التشجيع: إن الحب الفعال شيء قاسٍ رهيب إذا قيس بالأحلام التي يحملها المرء عنه. إن من يحلم بالحب يشعر بظمأ إلى عمل مباشر بطولي يحققه بسرعة وينال به إعجاب الناس، حتى لقد يصل بهذه الطريقة إلى التضحية بحياته راضياً شريطة أن لا يدوم الأمر زمناً طويلاً، وإنما يتم بسرعة، كما لو كان على مسرح تراه الأبصار وتمدحه الألسن. ولا كذلك الحب الفعال، فإنه يقتضي جهداً ويتطلب صبراً، وهو بالنسبة إلى بعضهم كالعلم يجب تحصيله. وثقي من ذلك أنك حتى في اللحظة التي ستلاحظين فيها مذعورةً أن جميع جهودك ضاعت سدًى بغير جدوى. فتعترفين بأنك قد ابتعدت عن الهدف بدلاً من أن تقتربي منه، ثقي أنك في تلك اللحظة نفسها تكونين في الواقع قد بلغت الهدف، وسترين عندئذٍ بوضوح كامل ما قد أحدثه الرب في نفسك من فعلٍ هو المعجزة، فإن حب الرب يكون طوال تلك المدة قد شد أزرك وقاد خطاك وأرشدك إلى الصواب على نحو لا تعرفين سره.

معذرةً إذا كنت لا أستطيع أن أبقى معك زمناً طويلاً، فإن هناك أناساً ينتظرونني. إلى اللقاء.

كانت السيدة تبكي. ثم هتفت تقول كأنما ثابت إلى نفسها على حين فجأة:

- ليزا، ليزا، لا تنس أن تباركها. باركها!

فقال الشيخ مازحاً:

- هي لا تستحق حتى أن تحب. لقد لاحظتُ كيف أنها لم تزد على أن تتسلى هنا. لماذا كنت تسخرين من أليوشا طول الوقت؟

كانت ليزا، فعلاً، قد انصرفت منذ البداية إلى لعب ماكر. لقد لاحظت منذ الزيارة الماضية أن أليوشا يضطرب. يحاول أن لا ينظر إليها، فكان هذا يسليها كثيراً. فهي اليوم ترقب نظرته وتترصدها بإلحاح. وإذ لم يستطع أليوشا أن يقاوم نداء العينين اللتين كانتا تحدقان إليه، فقد كان يرفع رأسه من حين إلى آخر رغم إرادته، كأن قوة عليا تحركه، فينظر إلى الفتاة هو أيضاً، فإذا بالفتاة تأخذ تضحك مثبتة نظرها عليه، فيضطرب أليوشا مزيداً من الاضطراب ويغضب. وانتهى أخيراً إلى أن أدار لها ظهره واختبأ وراء الشيخ. ولكنه التفت من جديد بعد بضع دقائق، بتأثير تلك القوة القاهرة نفسها، ليعرف ألا تزال الصبية تراقبه أم هي كفت عن ذلك، فإذا هو يلاحظ أن ليزا التي مالت عن كرسيها المتحرك حتى تكاد تخرج منه لتراقب الفتى بمزيد من الانتباه، كانت تنظر إليه من جانب، منتظرةً بإلحاح شديد أن يرفع عينيه نحوها، فلما فاجأت نظرته إليها أخيراً انفجرت تضحك في قهقهة بلغت من الاندفاع المباغت أن الشيخ نفسه لم يحتملها، فقال للفتاة:

- لماذا تحاولين أن تضايقيه أيتها الصبية الشريرة؟

فاحمرّ وجه الفتاة على حين فجأة احمراراً لم يكن في الحسبان،

والتمعت عيناها، واكتسى وجهها هيئة الجد الشديد، وأجابت بغتةً بلهجة عنيفة، وبعبارات سريعة عصبية:

- ولماذا نسي كل شيء؟ لقد لعبنا معاً حين كنت طفلة صغيرة، وكان يحملني بذراعيه، وكان يجيء في الماضي إلينا ليعلمني القراءة، هل تجهل ذلك؟ ومنذ سنتين فقط، أكّد لي، حين ودعنا، أنه لن ينساني في يوم من الأيام وأننا سنظل صديقين دائماً إلى الأبد! وهذا هو الآن يشبه أن يكون خائفاً مني كأنني سآكله! لماذا لا يقترب مني؟ لماذا لا يكلمني؟ لماذا لا يجيء إلينا؟ أأنت الذي تمنعه؟ نحن نعلم مع ذلك أن في إمكانه أن يخرج بحرية. وليس عليَّ أنا أن أناديه، وإنما واجبه هو أن يجيء، إذا كان لا يزال يتذكر. ولكن لا! هو يحقق لنفسه الأمن والسلام والخلاص، أليس كذلك؟ ولماذا ألبستموه ثوب الراهب هذا الطويل؟... إنه يتعرّض للسقوط على الأرض إذا ركض...

قالت الفتاة ذلك ثم لم تستطع أن تتمالك نفسها فإذا هي تغطي وجهها بيدها على حين فجأة وتنفجر ضاحكةً ضحكة كبيرة هي ضحكتها الطويلة العصبية التي لا تستطيع مغالبتها والتي تهزها هزاً قوياً دون أن تكون صاخبةً كثيراً. أصغى الشيخ إليها مبتسماً، ثم باركها في حنان. فتناولت يده لتقبلها، وشدتها فجأة إلى عينيها وأخذت تبكي قائلة:

- لا تغضب مني. ما أنا إلا حمقاء لا أساوي شيئاً... ولا شك في أن أليوشا على حق... إنه على حق حين لا يريد أن يهتم بأمر صبية سخيفة هذا السخف كله.

قرر الشيخ في سره:

- سأرسله إليهم حتماً.

– 5 –

لتكن مشيئة الرب

طال غياب الشيخ قرابة خمس وعشرين دقيقة. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ولمَّا يصل بعدُ دمتري فيدوروفتش الذي عقد هذا الاجتماع من أجله. وكان يبدو أنهم قد نسوه، حتى إن الشيخ حين عاد إلى صومعته، وجد ضيوفه غارقين في مناقشة حامية جداً. إن المناقشة تدور بين إيفان فيدوروفتش والراهبين الكاهنين. أما ميوسوف فهو يتدخل في المناقشة في كثير من الأحيان، بل وبكثير من الحرارة، ولكنه لم يحالفه التوفيق في هذه المرة أيضاً، فهو يظل في الدرجة الثانية، والمتناقشون يجيبونه بغير اهتمام، فكان هذا يزيد حنقه ويفاقم غيظه. لقد سبق له أن تنافس مع إيفان فيدوروفتش في ميدان سعة الاطلاع والمعرفة. فلم يستطع أن يطيق ذلك الازدراء الخفيف الذي أظهره له إيفان. كان يحدث نفسه قائلاً: «كنت أعتقد، حتى الآن على الأقل، أنني في مستوى كل ما يشكل التقدم في أوروبا، ولكن هذا الجيل الجديد يظهر أنه يتجاهلنا عامداً». وأما فيدور بافلوفتش فكان قد آل على نفسه أن لا يتحرك من مكانه، وأن لا ينطق بكلمة واحدة، لذلك ظل صامتاً بعض الوقت، ملاحظاً مع ذلك جاره بيتر ألكسندروفتش، مبتسماً ابتسامة هزء وسخرية، مبتهجاً بما يراه فيه من حنق وغيظ. إنه

يفكر في أن يثأر لنفسه منذ مدة طويلة، ولا يريد أن يفوّت فرصة جميلة كهذه الفرصة. وإذ أصبح لا يطيق صبراً، فقد مال على كتف جاره وعاد يمطره بسخرياته من جديد، متكلماً بصوت خافت:

- لماذا لم تنصرف منذ قليل، بعد تلك القصة التي رويت عن القديس الذي قطعت عنقه والقبلات التي طبعها على رأسه؟ لماذا رضيت أن تبقى في صحبة أناس يبلغون ما أبلغه أنا من قلة الاحتشام وسوء الأدب؟ سأذكر لك السبب: إنك قد بقيت لأنك شعرت بمذلة وإهانة، فأنت تنتظر اللحظة التي تثأر فيها لنفسك بإظهار ذكائك، وإني لأراهن على أنك لن تبارح هذا المكان قبل أن تظهر ذكاءك لهم.

- استأنفت ثرثرتك؟ سوف أنصرف، بل سوف أنصرف فوراً.

حاول فيدور بافلوفتش أن يخزه من جديد قائلاً:

- دعك من هذا! لسوف تبقى إلى النهاية، ولن تنصرف إلا آخر المنصرفين! وفي تلك اللحظة نفسها تقريباً إنما رجع الشيخ إلى الحجرة.

توقفت المناقشة لحظات، ولكن الشيخ، بعد أن جلس في مكانه السابق، ألقى على المتناقشين نظرة لطيفة رضية كأنما ليشجعهم على مواصلة المناقشة. ولاحظ أليوشا الذي كان قد درس جميع تعابير وجه الشيخ، لاحظ فوراً أن الشيخ منهوك القوى وأنه يتحامل على نفسه ويكلفها من أمرها عسراً في سبيل أن يتغلب على تعبه. إن المرض قد أحدث للشيخ في الآونة الأخيرة عدة غيبوبات من شدة الضعف: وها هي ذي صفرة شبيهة بالصفرة التي تسبق حالات الغيبوبة هذه عامةً، ها هي ذي تغشى وجه الشيخ الآن، وها هما شفتاه تبيضّان. وكان واضحاً مع ذلك أن الشيخ لا يرغب في أن

يختم هذا الاجتماع. لا بد أن هناك سبباً يدعوه إلى ذلك. ولكن ما هو هذا السبب؟ كان أليوشا يلاحظ الشيخ بانتباه شديد.

قال الراهب الكاهن يوسف، وهو قيّم مكتبة الدير، قال يشرح وهو يشير إلى إيفان فيدوروفتش:

- كنا نتكلم عن المقالة الشائقة جداً التي نشرها هذا الشاب. لقد أورد آراء أصيلة في عدد من النقاط، غير أن بعض آرائه يبدو ذا حدين. والموضوع هو موضوع القضاء الإكليركي ومدى الصلاحيات التي يجب أن يُعطاها. كان أحد رجال الدين قد نشر كتاباً ضخماً في هذه المسألة[46]، فردّ عليه هذا الشاب بمقالة نشرها في مجلة...

أجاب الشيخ وهو يلقي على إيفان فيدوروفتش نظرة طويلة متفرسة:

- يؤسفني أنني لم أقرأ مقالتك، ولكنني سمعت عنها.

استأنف الأب قيّم المكتبة كلامه يقول:

- إن هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة حقاً، وكأنه حين يعالج مشكلة القضاء الإكليركي، يدحض مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة.

قال الشيخ يسأل إيفان فيدوروفتش:

- هذه في الحق فكرة شائقة، ولكن بأي معنى تفهمها؟

فأجابه إيفان بعد بضع لحظات من صمت، فلم يصطنع في جوابه ذلك التعالي الذي يشتمل على احترام مهذب، وهو ما كان يخشاه أليوشا حتى الليلة البارحة، وإنما تكلم بلهجة فيها تواضع وتحفظ، وفيها تقدير واعتبار، ولا أثر فيها لأية فكرة مبيتة أو حكم سابق. قال:

- إن فكرتي هي أن الجمع الذي يفرضه هوانا بين العنصرين، أي بين جوهر الكنيسة وجوهر الدولة، سيظل قائماً إلى الأبد ولا شك،

رغم أنه مستحيل سويّة بين السلطتين، بل ولا إلى مصالحة تكون بقدر ما لها حظ من النجاح. ولا يمكن أبداً أن يؤدي إلى جعل العلاقات بينهما تتساوى. والواقع أن الكذب هو الأساس الذي تقوم عليه المسألة. وعندي أن تسوية بين الدولة والكنيسة في مسائل كمسألة القضاء مثلاً. أمرٌ مستحيل ولا يمكن تخيله إطلاقاً. إن رجل الإكليروس الذي انتقدت نظرياته قد ذهب إلى أن الكنيسة تحتل في داخل الدولة مكاناً معيناً واضح الحدود. فأجبته بأنني، من جهتي، أرى أن الكنيسة يجب، على عكس رأيه تماماً، أن تستغرق الدولة كلها وأن لا تكتفي بمأوى بسيط تعتصم به في داخل التنظيم الاجتماعي. وأضفت إلى ذلك قولي إنه إذا تعذر الوصول إلى هذا الهدف في الظروف الحالية لسبب من الأسباب، فيحسن أن تنظر إليه على أنه الغاية الضرورية التي يجب على المجتمع المسيحي أن يتجه إليها بكل قواه أثناء تطوره المقبل.

قال الأب بائيسي الراهب الكاهن، العلاّمة الشديد الصمت، قال بصوت قاطع جازم ولكنه لا يخلو من عصبية:

- هذا صحيح تماماً!

فصاح ميوسوف يقول وهو يضع ساقاً على أخرى بحركة تدل على نفاد الصبر:

- ولكن هذا ليس إلا عقيدة اولترامونتانية[47].

فانطلق الأب يوسف قائلاً:

- دعك من هذا الكلام! نحن ليس لدينا في روسيا حتى جبال!

ثم استأنف بعد ذلك يقول متجهاً إلى الشيخ:

- إن هذا الشاب قد أورد الردود التالية، فيما أورد من ردود على آراء خصمه - ولاحظوا أن خصمه عضو من أعضاء الإكليروس -

وهي آراء يعدها خصمه «جوهرية وأساسية»: الرأي الأول أو الموضوعة الأولى: «ما من رابطة اجتماعية يجوز لها أو يجب عليها أن تدعي لنفسها حق التصرف في الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها»؛ الموضوعة الثانية: «إن حق القضاء الجنائي والمدني يجب أن لا ينتمي إلى الكنيسة، لأنه يتنافى مع ماهيتها كمؤسسة دينية ويتنافى أيضاً مع صفتها كتنظيم إنساني وُجد لتحقيق أهداف دينية»، الموضوعة الثالثة والأخيرة: «إن الكنيسة هي مملكة ليست من هذا العالم»...

فقال الأب بائيسي يتدخل مرة أخرى وقد بدا عليه الاستياء واضحاً:

- ذلك لعب بالألفاظ لا يليق في رأيي بعضو من أعضاء الإكليروس! لقد قرأت الكتاب الذي رددتَ عليه، وقد أدهشني أن أرى مؤلفه يقول: «إن الكنيسة هي مملكة ليست من هذا العالم». ذلك أنها إن لم تكن تنتمي إلى هذا العالم فمن البديهي أنها لن يمكن عندئذٍ أن توجد في هذا العالم على أية صورة من الصور. وليس هذا هو المقصود إطلاقاً من التعبير «ليست من هذا العالم» الوارد في الإنجيل المقدس[48]. إن سيدنا يسوع المسيح إنما جاء ليقيم الكنيسة على الأرض. صحيح أن ملكوت السماوات لا ينتمي إلى هذا العالم، لأنه في السماء، ولكن دخول ملكوت السماء لا يكون إلا عن طريق الكنيسة التي أقيمت في الأرض. لذلك يجب أن نعد هذا التلاعب بالألفاظ المصطبغ بالروح العصرية أمراً لا يليق استعماله ولا يمكن قبوله في هذا المجال. إن الكنيسة هي في الواقع مملكة. وإن رسالتها هي أن تسود وأن تحكم، وستشمل مملكتها الأرض كلها أخيراً، وذلك ما جاء في النبوءة على كل حال...

قال الأب بائيسي ذلك ثم صمت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عامداً. وكان إيفان فيدوروفتش يصغي إلى كلامه بانتباه فيه كثير من الاحترام، فاستأنف حديثه متجهاً إلى الشيخ قائلاً بهدوء عظيم ولهجة رصينة باشة طيبة:

- إن الفكرة الأساسية التي تجمل مقالتي كلها هي أن المسيحية كانت في الأزمنة القديمة، أي طوال القرون الثلاثة الأولى من قيامها، كانت كنيسةً فحسب، وكانت لا تطمع في أن تصبح أكثر من ذلك. ولكن حين قررت الدولة الوثنية التي هي الدولة الرومانية أن تعتنق الديانة المسيحية[49] فإن الذي حدث بالضرورة هو أنها حين أصبحت مسيحية قد احتوت الكنيسة واستوعبتها مع بقائها وثنية في كثير من النواحي. ولم يكن من الممكن أن يحدث غير هذا على كل حال. فإن روما من حيث هي دولة سياسية قد احتفظت بعناصر كثيرة مستمدة من الحضارة الوثنية والحكمة الوثنية، ولا سيما فيما يتعلق بأهداف الدولة وأسسها نفسها. وكان طبيعياً أن لا تستطيع الكنيسة المسيحية حين دخلت في الدولة أن تضحي بأي مبدأ من مبادئها، ولا أن تترك أي جزء من الصخرة التي بُنيت عليها. كانت الكنيسة المسيحية لا تستطيع إلا أن تتابع أهدافها الخاصة كما رسمها لها الرب نفسه، وهي امتصاص الكنيسة للعالم بأسره وللدولة الوثنية القديمة تبعاً لذلك. ويترتب على هذا (أي بغية بلوغ أهداف المستقبل) أن الكنيسة ليست هي التي يجب عليها أن تسعى إلى احتلال مكان معيَّن في داخل الدولة، «ككل رابطة اجتماعية أخرى» أو «ككل تنظيم إنساني وُجد لتحقيق أهداف دينية» (وذلك ما يقوله في موضوع الكنيسة مؤلف الكتاب الذي انتقدته)، بل العكس هو الصحيح، فإن كل دولة من الدول الأرضية يجب عليها أن تستحيل

في خاتمة المطاف من تطورها إلى كنيسة، وأن لا تصبح إلا كنيسة، متنازلةً عن أهدافها الخاصة حين لا تتفق وأهداف الكنيسة. وهذا التحول لن يغضّ من قيمة هذه الدولة ولن ينتقص من شأنها، ولن يفقدها شيئاً من كرامتها ومجدها من حيث هي دولة كبرى، لا ولن يسيء إلى ما يتمتع به ملوكها وقادتها من بريق اجتماعي، وكل ما هنالك أنه سيُخرج هذه الدولة من طريق الضلالة والوثنية الذي سارت فيه، وسيضعها في الاتجاه السليم الرشيد، الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى تحقيق الغايات الأبدية. لذلك أقول إن مؤلف كتاب «أسس القضاء الإكليركي في داخل المجتمع» كان عليه حين بحث عن هذه الأسس وحاول استخلاصها، أن لا يعدها إلا تسوية مؤقتة، تسوية لا بد منها ولا محيص عنها في هذا العالم الذي ما يزال في حالة الخطيئة ولمّا يبلغ بعد خاتمة المطاف من تطوره. أما أن يتورط مؤلف هذا الكتاب فيزعم أن هذه الأسس التي عرضها والتي عدّد لنا الأب يوسف بعضها منذ هنيهة هي بطبيعتها نفسها أبدية ثابتة كالكون نفسه، فإنه يناقض عندئذٍ حقيقة الكنيسة، ويعارض رسالتها المقدسة الأبدية التي يجب أن لا تُمس. ذلك كل ما قلته في مقالتي التي أوجزتها لكم إيجازاً وافياً.

قال الأب بائيسي يتدخل مرةً أخرى مشدِّداً على كل كلمة من كلماته:

- الخلاصة إذن أن بعض النظريات الشائعة كثيراً في قرننا التاسع عشر هذا تريد للكنيسة أن تستحيل إلى دولة، منتقلةً من مرحلة دنيا إلى مرحلة عليا إن صح التعبير، وأن تذوب في الدولة، بعد أن أخلت المكان للعلم وروح العصر والحضارة، فإذا هي رفضت هذا مع ذلك، وقاومت هذا التحول، عُرض عليها عندئذٍ مكانٌ محدود

تلوذ به وتأوي إليه، تحت رقابة الدولة، كما يحدث اليوم في أكثر البلاد الأوروبية. أما النظرة الروسية، أما عقيدتنا فهي ترى أن الكنيسة ليس عليها هي أن تستحيل إلى دولة كما يتم الانتقال من صورة دنيا إلى صورة عليا من صور الوجود، وإنما الدولة هي التي يجب عليها أن تحاول أن تصير أخيراً إلى كنيسة وأن لا تكون شيئاً غير ذلك. هذا ما هو الصحيح! ألا فلتكن مشيئة الرب!

قال ميوسوف ساخراً وهو يضع ساقاً على ساق مرة أخرى، ولكن في اتجاه معاكس:

- أعترف لك بأنك قد رددت إليّ شجاعتي: إذا صح فهمي فأنت ترى أن المسألة مسألة مثل أعلى يجب الوصول إليه في زمن مقبل ما يزال بعيداً كل البعد، وربما امتد إلى يوم عودة المسيح. لك ما تشاء! ذلك حلم طوباوي جميل حول زوال الحروب والدبلوماسية والبنوك، إلخ، بل إن هذا حتى يذكّر بالاشتراكية بعض الشيء. لقد كنت أخشى في البداية أن يكون كل هذا أمراً جدياً، وأن الكنيسة ستقضي، منذ الآن، في الأمور الجزائية مثلاً فتصدر أحكاماً بالجلد والأشغال الشاقة وربما بالإعدام!

استأنف إيفان فيدوروفتش كلامه هادئاً بغير تعثر، فقال:

- حتى لو كانت المحاكم الإكليركية هي السلطة القضائية الوحيدة، فإن الكنيسة لن تصدر أحكاماً بالإعدام أو بالأشغال الشاقة. إن صفة الجريمة وطريقة معالجتها تتبدلان عندئذٍ حتماً، لا دفعة واحدة وفي الوقت الحاضر بطبيعة الحال، بل شيئاً فشيئاً وبسرعة كافية مع ذلك...

قال ميوسوف وهو يحدّق إليه بنظرة نافذة:

- أأنت جاد فيما تقول؟

فتابع إيفان فيدوروفتش كلامه قائلاً:

- يوم تحتوي الكنيسة المجتمع بأسره فإنها سوف تحرم الخطأة العصاة، ولكنها لن تقتل أحداً. قل لي: ما عسى يصير إليه المحروم، وأين عساه يعتصم؟ لسوف يكون عليه أن يقطع صلته لا بالبشر فحسب كما هو الحال اليوم، بل بالمسيح أيضاً. وستجعله جريمته عندئذٍ عدواً للإنسانية وعدواً لكنيسة المسيح. وإن الأمر لكذلك اليوم أيضاً، إذا نحن نظرنا في أعماق الأمور، ولكننا لا نعترف بهذا صراحةً. إن المجرم يجد اليوم، في حالات كثيرة جداً، سبيلاً إلى إرضاء ضميره، فهو يقول لنفسه: «صحيح أنني سرقت، ولكنني لم أناصب الكنيسة العداء... إنني لست عدو المسيح». هكذا يفكر المجرم في كثير من الأحيان في عصرنا هذا. أما يومَ تحل الكنيسة محلَّ الدولة فسوف يصعب عليه أن يفكر هذا التفكير وإلا كان ينكر سلطة كل كنيسة في هذا العالم، قائلاً: «البشر جميعاً على ضلال، هم جميعاً انحرفوا، إنهم الكنيسة الزائفة، وأنا وحدي أنا القاتل أو السارق أنا وحدي الكنيسة المسيحية الحق». وذلك موقف يصعب جداً اتخاذه، اللّهم إلا بتضافر ظروف شاذة لا يعقل أن تتوافر. وانظر الآن من جهة أخرى إلى مفهوم الكنيسة للجريمة: أليس هذا المفهوم خليقاً بأن يتغير من المفهوم الحالي، الوثني تقريباً، الذي يقضي بالبتر الميكانيكي لعضو المريض، كما يُفعل اليوم لحماية المجتمع، وبأن يتجسد تجسداً تاماً وغير كاذب في فكرة خلق الإنسان خلقاً جديداً وبعثه وخلاصه...

قاطعه ميوسوف سائلاً:

- إلى ماذا تريد أن تخلص من هذا؟ لقد أصبحت مرةً أخرى لا أفهمك. إنه حلم آخر. شيء غامض لا شكل له، بل لا سبيل إلى

فهمه. عن أي حرمان تتكلم، ما هذا الحرمان؟ إنني أتساءل ألست تسخر منا وتضحك علينا لا أكثر من ذلك، يا إيفان فيدوروفتش؟

هنا انبرى الشيخ فجأة للكلام، فالتفت الجميع إليه بحركة واحدة، قال:

- ولكن هذا هو ما يحدث في الواقع الآن أيضاً. ذلك أنه إن لم توجد اليوم كنيسة للمسيح فإن المجرم لن يرتدع عن جريمته، لا ولن يعاقب بعد جريمته، وأقصد بالعقاب هنا العقاب الحقيقي لا العقاب الميكانيكي فحسب، كما قيل منذ هنيهة. فذلك العقاب لا يزيد على أن يهيج النفس في أكثر الحالات، أما العقاب الحق، العقاب الذي يخيف ويهدئ في آن واحد، العقاب الوحيد الناجع المجدي، فهو حكم الضمير على صاحبه.

قال ميوسوف يسأل باستطلاع حار عنيف:

- كيف هذا؟ هلا شرحته لنا؟

قال الشيخ:

- انظر. إن إرسال المحكومين إلى سجون الأشغال الشاقة، وما يضاف إليه قبل هذا الإرسال من تعذيب جسدي، إن ذلك كله لم يُصلح أحداً، وهو على وجه الخصوص لا يخيف المجرمين، باستثناء عدد قليل منهم. فعدد الجرائم لم ينقص، بل إنه ليزداد. لا تستطيع أن تعترض عليّ في هذه النقطة. يترتب عن ذلك أن هذه الأساليب لا تحمي المجتمع البتة. فالعضو الضار الذي يُحذف من المجتمع بهذه الطريقة الميكانيكية فيرسل إلى مكان بعيد ويغيب عن الأنظار، ما يلبث أن يحل محله مجرم آخر أو مجرمان آخران. فإذا رأينا المجتمع مع ذلك محمياً حتى في الوقت الراهن، وإذا رأينا أن المجرم نفسه يملك اليوم أن يصلح نفسه وأن ينبعث إنساناً جديداً،

فالفضل في ذلك إنما يرجع هنا أيضاً إلى قانون المسيح على نحو ما رسخ في قرارة ضميرنا. إن اعتراف المجرم بذنبه كابن من أبناء المجتمع المسيحي، أي كابن من أبناء الكنيسة، هو السبيل الوحيد إلى شعوره بأنه آثم في حق المجتمع أي في حق الكنيسة. فإزاء الكنيسة وحدها لا إزاء الدولة إنما يمكن أن يشعر المجرم الحديث بأنه مذنب. فإذا تمت ممارسة حق القضاء باسم المجتمع أي باسم الكنيسة، عرف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن ينتهي حرمانهم ويستحقون أن يرجعوا إليه. إن الكنيسة التي لا تملك الآن أي سلطة قضائية فعّالة ولا تملك أن يكون لها تأثير أو نفوذ إلا بالإدانة الروحية، لا يهمها العقاب الفعلي الذي يتم إنزاله في المجرمين. إنها لا تطرد هؤلاء الجناة من حضنها، بل تظل تحدب عليهم حدب الأب على أبنائه، وأكثر من ذلك إنها تحاول أن تحافظ معهم على جميع الصلات التي تشد المؤمنين إلى الكنيسة وتربطهم بها؛ إنها تقبل أن يدخلوا الكنيسة ويشاركوا في الصلاة ولا تضن عليهم بتناول القربان المقدس. إنها لا تحرمهم من إحسانها، وتعاملهم كسبايا أكثر مما تعاملهم معاملة جناة. وما عسى يقع لهؤلاء المجرمين، يا رب، لو أن المجتمع المسيحي، أي لو أن الكنيسة نبذتهم كما نبذهم قانون الجزاء وفصلهم عن سائر البشر! ما عسى يحدث لو أن الكنيسة تعاقبهم هي أيضاً، فتحرمهم فوراً كلما حكم عليهم قانون الدولة؟ من المستحيل تخيل انحدار إلى الدرك الأسفل من اليأس الكامل كالانحدار الذي يمكن أن يهوي إليه هؤلاء الجناة في مثل هذه الحالة، ولا سيما إذا كانوا من الروس، لأن الجناة الروس ما يزالون محافظين على إيمانهم! ومن ذا الذي يضمن أن لا يحدث عندئذ شيء رهيب، إلا وهو فقد الإيمان من قلوب الجناة

اليائسة؟ ولكن الكنيسة تتصرف معهم تصرف أم حنون رؤوف، وهي تعزف عن معاقبتهم في الواقع، لأنها ترى أنهم، حتى دون أن تعاقبهم هي، قد نالتهم عدالة الدولة بعقاب قاس، فهم في حاجة إلى أحد تأخذه بهم شفقة على الأقل. وهي تمتنع عن معاقبتهم خاصةً لأن عدالة الكنيسة هي العدالة الوحيدة القائمة على الحقيقة، فلا يمكنها والحالة هذه أن تتعاون معنوياً وعملياً مع أي قضاء آخر ولو على صورة تسوية مؤقتة. ولا سبيل إلى أي تنازل في هذه النقطة. إن المجرمين لا يشعرون في البلاد الأخرى بالندم والتوبة إلا نادراً فيما يقال، لأن المذاهب الحديثة الرائجة هناك لا تستطيع إلا أن تعزز شعورهم بأن الجرائم التي ارتكبوها ليست جرائم، وإنما هي أعمال تمرد على القوى التي تضطهدهم ظلماً وعدواناً، فالمجتمع ينبذهم من حضنه آلياً، ويغلبهم على أمرهم بقوته الظافرة، وهو يشفع هذا الإبعاد للمجرمين (هذا على الأقل ما يقوله في أوروبا كتاب تلك البلاد) يشفعه بكره لهم ولا يحفل بمصيرهم وينساهم نسياناً تاماً مع أنهم إخوتنا على كل حال. فكل شيء يجري إذن دون أي عطف من الكنيسة، لأن الكنيسة أصبحت لا وجود لها في عدد من تلك البلاد التي لم يبق فيها إلا رجال الإكليروس ومبانٍ دينية رائعة. أما الكنائس بالمعنى الحقيقي فقد سارت منذ زمن طويل في طريق يجب أن ينقلها من مرحلة يقال إنها دنيا، وهي مرحلة الجماعة الإكليركية، إلى المرحلة التي يُزعم أنها عليا وهي مرحلة الدولة، بغية أن تغرق فيها غرقاً كاملاً. تلك هي على الأقل حالة البلدان اللوثرية فيما يظهر. أما في روما فقد أقيمت الدولة مقام الكنيسة[50] منذ ألف سنة. لذلك لا يشعر المجرم هناك بأنه عضو في الكنيسة، فهو حين ينبذه المجتمع يهوي إلى قاع اليأس. فإذا اتفق له أن يعود

بعد ذلك إلى المجتمع، فإنه في كثير من الأحيان يظل يشعر نحو هذا المجتمع بكرهٍ يبلغ من القوة أن المجرم هو الذي ينبذ المجتمع في هذه المرة. وفي وسعكم أن تتخيلوا إلى أين يؤدي هذا. قد يتراءى أن الأمور تجري على هذا النحو غالباً في بلادنا أيضاً. ولكن الفرق بين بلادنا والبلاد الأخرى هو أن بلادنا ما يزال فيها، عدا المحاكم النظامية، كنيسة لا تفقد اتصالها أبداً بالمجرم، لأنها تعده ابناً عزيزاً لها ما يزال جديراً بالحب. هذا إلى أننا احتفظنا بالعدالة الإكليركية ولو فكرياً، ولئن أصبحت هذه العدالة الآن غير فعالة، فهي ما تزال موجودة للمستقبل ولو كحلم فقط، والمجرم نفسه يعترف بسلطتها في قرارة نفسه حتماً. وإنه لصحيح كل الصحة أيضاً، كما قيل هذا منذ هنيهة، أنه إذا استطاعت عدالة الكنيسة أن تؤكد نفسها في الواقع بكل قوتها، أي إذا استحال المجتمع كله إلى كنيسة، فإن المحاكم الإكليركية ستساهم في إصلاح المجرمين مساهمة لا وجود لها الآن إطلاقاً، بل ربما نقص عدد الجرائم كذلك نقصاً كبيراً. إن الكنيسة نفسها - وهذا أمر مؤكد - ستستطيع عندئذ أن تنظر إلى الشخص الذي سيرتكب الجريمة في المستقبل، وإلى الجريمة القادمة، نظرة مغايرة في كثير من الأحوال عن نظرتها إليهما اليوم، وسيكون في وسعها أن ترجع بالمنبوذين إليها، وأن تهدي الضّالّين، تمنع أولئك الذين ينوون أن يرتكبوا عملاً سيئاً عنه، وأن تُنهِض أولئك الذين سقطوا.

وأضاف الشيخ يقول وهو يضحك ضحكة صغيرة:

- صحيح أن المجتمع المسيحي ما يزال حتى الآن غير مهيأ، وأنه غير باقٍ إلا بفضل الصالحين السبعة، ولكن هؤلاء لا يمكن أن يزولوا، والمجتمع المسيحي يقوم عليهم قيامه على أعمدة راسخة

وطيدة بانتظار أن يتحول تحولاً كاملاً، فلا يبق مجتمعاً أي تنظيماً إنسانياً يشبه أن يكون وثنياً حتى الآن، وإنما يصير كنيسة واحدة شاملة كلية تحكم الجميع. هذا ما يجب أن يكون وهذا ما سيكون، ولو في آخر الزمان، لأنه قد أريد وحُدّد منذ الأزل. وما ينبغي أن يقلقنا طول الانتظار وبطء الزمن، ما دام مفتاح العصور بيد الرب، وما دام الرب يرتب تعاقبها بحكمته وطيبته. وسابق علمه. ذلك أن ما يبدو أنه ما يزال بعيداً جداً في تقدير البشر قد يكون بحكم المشيئة الإلهية على عتبة باب ظهوره يوشك أن يعبرها. هذا ما سيكون، فلتكن مشيئة الربّ.

قال الأب بائيسي مؤيداً في رصانة ووقار:

– فلتكن مشيئة الرب!

قال ميوسوف بحرارة يغلب عليها استياء مكتوم:

– هذا غريب، غريب إلى أبعد حدود الغرابة!

فسأله الأب يوسف قائلاً بحذر:

– ما هو الشيء الذي تراه في هذا الكلام غريباً هذه الغرابة كلها؟

فهتف ميوسوف يقول منفجراً على حين بغتة:

– شيء عجيب كل العجب! يزيلون الدول القائمة ليشيدوا في مكانها الكنيسة كدولة! ليس هذا عقيدة أولترامونتانية فحسب، بل هو تطرف في هذه العقيدة! إن البابا جريجوري السابع نفسه ما كان له أن يحلم بشيء من هذا القبيل![51].

قال الأب بائيسي بصوت خشن:

– الأمر نقيض ما ترى تماماً! نحن لا نعتقد أن الكنيسة هي التي يجب أن تستحيل إلى دولة، فافهم رأينا حق فهمه. إن ذلك الحلم هو حلم روما حقاً، وهو ثالثة غوايات الشيطان! وإنما رأينا عكس

هذا الرأي، فالدولة هي التي يجب أن تتحول إلى كنيسة، هي التي يجب أن ترتقي إلى حيث تصبح الكنيسة الكلية الشاملة على الأرض، وذلك نقيض ما تراه روما، نقيض العقيدة الأولترامونتانية، نقيض التأويل الذي تؤوله أنت، وهو بعينه الرسالة الكبرى التي تحملها الأرثوذكسية إلى الأرض. في سماء الشرق ستطلع هذه النجمة.

لزم ميوسوف صمتاً وقوراً. كان شخصه كله يعبر في هذه اللحظة عن شعور خارق بمهابته وكرامته. وارتسمت عل شفتيه ابتسامة كبرياء تصطنع التواضع. وكان أليوشا يشهد هذه المناقشة ويتابع جميع تفاصيلها، خافق القلب. لقد هزّت هذه المناقشة جميع جوارحه. ووقع بصره عرضاً عل راكيتين الذي لم يكن قد تحرك من مكانه والذي كان ما يزال واقفاً قرب الباب يسمع كل شيء بإصغاء، ويلاحظ كل شيء بانتباه، رغم أنه غاضٌ بصره. ومع ذلك فإن أليوشا إذ لاحظ لون خديه أدرك أن راكيتين لم يكن أقل منه اضطراباً لهذه المناقشة، وحزر الخواطر التي كانت تبث فيه هذا الاضطراب.

قال ميوسوف فجأة بلهجة فيها سلطة، وهيئةٍ فيها تعاظم:

- اسمحوا لي أيها السادة أن أقص عليكم حكاية قصيرة. حين كنت في باريس منذ بضع سنين، بُعيدَ الانقلاب الذي وقع في شهر ديسمبر[52]، حدث أن زرت في يوم من الأيام أحد معارفي، وهو شخصية ذات نفوذ، ذات نفوذ عظيم، كانت تتولى في ذلك الوقت وظائف حكومية. فالتقيت عند تلك الشخصية بسيد عجيب أمره. لم يكن هذا السيد من رجال المباحث بمعنى الكلمة، ولكن يظهر أنه كان يدير جهازاً كبيراً من أجهزة الشرطة السياسية - ومعنى هذا أنه شخصية كبيرة في ذاتها. انتهزت الفرصة فدخلت في حديث مع هذا الرجل، تدفعني إلى ذلك رغبة قوية في الاطلاع. وإذ لم يكن عند

رب الدار عندئذ بصفته زائراً بل بصفته مرؤوساً يقدم تقريراً، فإنه وقد لاحظ حفاوة رئيسه بي، قد شرفني بأن تحدّث معي بنوع من الصراحة. طبعاً لم ينفتح لي إلا إلى حدّ، وكان أقرب إلى الملاطفة منه إلى المصارحة، وهي تلك الملاطفة المعهودة في الفرنسيين، ولا سيما مع الأجانب. ولكنني استطعت أن أرى ما يقصده. لقد دار الحديث على الاشتراكيين الثوريين، الذين كانوا يُضْطَهَدون في ذلك الوقت على كل حال. ولست أحب أن أتعرض لموضوع الحديث الذي دار بيني وبينه، أقتصر على أن أذكر لكم فكرة عجيبة جداً أفلتت من لسان هذا السيد الصغير على حين فجأة، قال يسرّ إليّ: «الحق أننا لا نخشاهم كثيراً، هؤلاء الاشتراكيين من الفوضويين والملحدين والثوريين. نحن نراقبهم عن كثب ونعرف أعمالهم وحركاتهم. غير أن بينهم رجالاً من طراز خاص، وإن لم يكن عددهم كبيراً جداً: أولئك هم المؤمنون، المسيحيون، والاشتراكيون في الوقت ذاته. نحن نخشى هؤلاء اكثر من أي أحد آخر. هؤلاء أناس خطرون جداً! إن رجلاً يجمع بين الاشتراكية والمسيحية معاً لهو أخطر كثيراً من اشتراكي ملحد». لقد فجأتني هذه الفكرة كثيراً آنذاك، وقد تذكرتها الآن هنا، أيها السادة، لا أدري لماذا...

سأله الأب بائيسي فجأة بغير لف أو دوران:

- هل تريد أن تقول إن هذه الفكرة تصدق علينا وإننا في نظرك اشتراكيون؟

ولكن قبل أن يهتدي بيتر الكسندروفتش إلى جواب يقوله، فُتح الباب وظهر دمتري فيدوروفتش بعد تأخر طويل جداً. كان الجميع قد أوشك أن يكف عن توقع وصوله، حتى إن ظهوره المفاجئ هذا قد أحدث فيهم شيئاً من دهشة.

— 6 —

لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل؟!

إنَّ دمتري فيدوروفتش، وهو شاب في الثامنة والعشرين من عمره، متوسط القامة لطيف الوجه، يبدو في الواقع أكبر من سنه، نامي العضلات، فإذا رآه الرائي أدرك أن له قوة جسمية كبيرة، ومع ذلك فإن في قسمات وجهه شيئاً مرضياً. هو نحيل المحيا خاسف الخدين، في لونه انعكاسات عليلة ضاربة إلى صفرة. وفي عينيه القاتمتين الواسعتين الجاحظتين تعبيراً غامضاً مبهماً، رغم أن نظرته تبدو حازمة واثقة. وحتى حين يخرج عن هدوئه ويتكلم هائجاً، فإن نظرته تبدو كأنها لا تطاوع حالته النفسية. وإنما هي تفصح في كثير من الأحيان عن عواطف مختلفة قد لا تتفق والظروف القائمة. «إن من الصعب على المرء أن يعرف ما يدور في فكره»، كذلك كان يقول عنه محدثوه من حين إلى حين. وكان الناس إذ يلاحظون نظرته القاتمة الواجمة يدهشهم أحياناً أن يروه ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ضحكاً كبيراً يدل على مشاعر فرحة مرحة يندفع فيها في نفس اللحظة التي تتجهم فيها عيناه. على أن ما يظهر في سحنته من مظهر المرض ليس فيه ما يدهش الآن أحداً: إن جميع الناس يعرفون الحياة المضطربة القلقة التي يعيشها بمدينتنا في الآونة الأخيرة «لاهياً قاصفاً مستهتراً»، أو هم قد سمعوا عن ذلك، وما من أحد يجهل

أيضاً درجة الاهتياج المرضي الذي وصل إليه في خصوماته مع أبيه بصدد أمور تتعلق بالمال؛ حتى إن الناس في مدينتنا قد تناقلوا عن ذلك قصصاً وحكايات. والحق أنه بطبيعته غضوب، وهو «مشوَّش الذهن مندفعه»، كما وصفه بذلك وصفاً معبراً قاضي الصلح سيميون كاتشالنيكوف أثناء أحد الاجتماعات. ولقد كان في ذلك اليوم متأنقاً أناقة لا مأخذ عليها، يلبس صدرية مزررة وقفازين أسودين، ويحمل بيده قبعة عالية. وكما يفعل كل عسكري محال على الاستيداع منذ مدة قصيرة، فقد أطال شاربه وحلق لحيته، ودفع شعره القصير إلى أمام على الصدغين. وهو يمشي مشية عسكرية حازمة واسعة الخطى. توقف على العتبة لحظة قصيرة، وبعد أن أجال بصره على الحضور، اتجه نحو الشيخ قُدُماً، لأنه أدرك أنه رب المنزل، فحيَّاه منحنياً له انحناءة كبيرة، وطلب بركته، فنهض الشيخ وباركه، وقبَّل دمتري فيدوروفتش يد الشيخ باحترام، ثم قال مضطرباً اضطراباً شديداً بصوت يدلّ على الحنق والاستياء.

- أرجو أن تتفضلوا فتغفروا أنني جعلتكم تنتظرون هذه المدة الطويلة كلها. إن الخادم سمردياكوف الذي أرسله «باتيوشكا»[53] قد أجاب عن أسئلتي الملحة مرتين بلهجة الواثق أن الاجتماع قد حُدِّدت له الساعة الواحدة بعد الظهر. وها أنذا أعلم الآن أن. . .

قاطعة الشيخ قائلاً:

- اطمئن. ليس الأمر بذي بال. لقد تأخرت قليلاً، ولكن ليس لهذا التأخر من خطورة. . .

- أشكر لكم تسامحكم. ولقد كنت أعوِّل على هذا التسامح لما أعرفه عنكم من طيبة.... .

قال دمتري فيدوروفتش ذلك وحيَّا مرة أخرى، ثم التفت نحو أبيه

«باتيوشكا» فجأة، فحيَّاه تحية فيها ما كان في تحيته للشيخ من انحناء شديد واحترام عظيم. واضحٌ أنه كان قد هيأ هذه التحية سلفاً، وأنه فعل ذلك صادقاً، لأنه يرى أن من واجبه أن يبرهن بهذه البادرة على احترامه وحسن نياته. وقد بوغت فيدور بافلوفتش وبهت، ولكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه فإذا هو يهب واقفاً فيرد تحية ابنه بمثلها. لقد اكتسى وجهه على حين فجأة تعبيراً رصيناً مهيباً، فما زاده ذلك إلا خبثاً وشراً. وبعد أن حيا دمتري فيدوروفتش سائر الحضور في الحجرة بانحناءة واحدة صامتة، اتجه نحو النافذة سائراً بخطاه الواسعة الحازمة، وجلس قرب الأب بائيسي، على المقعد الوحيد الذي كان لا يزال خالياً. مال بصدره إلى أمام، متهيئاً للإصغاء ومتابعة المناقشة التي قطع حبلها.

إن وصول دمتري فيدوروفتش لم يستغرق أكثر من دقيقتين، وكان لا بد أن تُستأنف المناقشة بعد ذلك فوراً. ولكن ميوسوف لم يرَ في هذه المرة أن من واجبه أن يرد على السؤال الملح الذي طرحه الأب بائيسي والذي يكاد يكون مزعجاً.

قال بشيء من الإهمال الذي يُعرف به أبناء المجتمع الراقي:

- اسمحوا لي أن لا أتعرض لهذه النقطة. ثم إن المسألة معقدة جداً من جهة أخرى. وأنا ألمح أن إيفان فيدوروفتش يبتسم وهو ينظر إلينا، فلعل لديه آراء أصيلة طريفة في هذا الموضوع أيضاً، فاتجهوا بالسؤال إليه إن شئتم.

فأجاب إيفان فيدوروفتش على الفور قائلاً:

- ليس لدي شيء خاص أقوله، إلا ملاحظةً ثانوية. إن الليبراليين في أوروبا، وحتى هواة الليبرالية عندنا في روسيا، يخلطون في كثير من الأحيان، ومنذ زمن طويل جداً، بين الأهداف القصوى التي

ترمي إليها الاشتراكية وبين الغايات التي ترمي إليها المسيحية. وهذه النتيجة الغريبة العجيبة هي مع ذلك الصفة التي تتميز بها طريقتهم في التفكير. ويتضح من جهة أخرى أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفرد به الليبراليون وهواة الليبرالية، وإنما هو يحدث كثيراً في أذهان رجال الشرطة، أقصد رجال الشرطة في البلاد الأجنبية طبعاً. وإن حكايتك الباريسية هي من هذه الناحية ذات دلالة يا بيتر ألكسندروفتش.

فكرر بيتر ألكسندروفتش كلامه الأول قائلاً:

- أرجوكم مرة أخرى أن تعفوني من معالجة هذا الموضوع، وإنما أنا أؤثر أيها السادة أن أقصّ عليكم حكاية أخرى شائقة جداً ومميزة جداً؛ والحكاية في هذه المرة تتصل بإيفان فيدوروفتش. منذ ما لا يزيد على خمسة أيام، في مجتمع يتألف خاصةً من سيدات من هذه المدينة، أعلن صراحةً أثناء مناقشة جرت بين الحضور أنه ما من شيء في هذا العالم يمكن أن يجبر البشر على أن يحبوا أقرانهم، وأنه ما من قانون طبيعي يفرض على الإنسان أن يحب الإنسانية، فإذا كان قد وجد وما يزال يوجد حب على هذه الأرض، فليس مرد ذلك إلى قانون طبيعي، بل إلى سبب واحد هو اعتقاد البشر بأنهم خالدون. حتى لقد أضاف إيفان فيدوروفتش إلى ذلك عابراً، أن هذا هو في الواقع جوهر القانون الطبيعي كله، فإذا قُضي على اعتقاد البشر بخلودهم فسرعان ما ستغيض جميع ينابيع حبهم، بل وسرعان ما سيفقد البشر كل قدرة على مواصلة حياتهم في هذا العالم. أكثر من ذلك أنه لن يبقى هنالك شيء يعد منافياً للأخلاق، وسيكون كل شيء مباحاً، حتى أكل لحوم البشر. بل لقد مضى إلى أبعد من هذا أيضاً فقال أخيراً إن القانون الأخلاقي للطبيعة لا بد له أن يتغير فوراً في نظر

كل فرد ـ في نظرنا نحن مثلاً ـ متى كان هذا الفرد لا يؤمن لا بالله ولا بخلوده، وان القانون الأخلاقي للطبيعة يأمر بنقيض ما سلّم به الدين من قبل فإذا بالأنانية التي تمضي إلى حد الجريمة لا تصبح مباحةً للإنسان فحسب، بل تصبح كذلك ضرورية من حيث أنها المخرج الوحيد المعقول، بل والمخرج الوحيد النبيل له. ففي وسعكم إذاً أيها السادة أن تحكموا بهذه المفارقة عل الآراء الأخرى التي يراها عزيزنا الخيالي الكبير والسفسطائي العظيم إيفان فيدوروفتش، سواء آراؤه التي سبق أن أعلنها أو آراؤه التي لعله ما يزال ينوي أن يعلنها.

هتف دمتري فيدوروفتش فجأة على غير توقع:

- اسمح لي! هل ما سمعته منك هو «إن الجريمة يجب أن لا تعد مباحةً فحسب، بل يجب أن تعدَّ كذلك، في نظر كل ملحد، هي المخرج المعقول الذكي من وضعه؟».

قال الأب بائيسي:

- تماماً.

فقال دمتري فيدوروفتش:

- سأحفظ هذا.

وبعد أن نطق دمتري فيدوروفتش بهذه الكلمات صمت فجأة، كما تكلم فجأة. فنظر إليه جميع الحضور بكثير من الفضول.

واتجه الشيخ في تلك اللحظة إلى إيفان فيدوروفتش يسأله:

- هل يمكن أن يكون في تقديرك أن زوال اعتقاد الناس بخلود الروح ستكون له هذه النتائج؟

فأجابه إيفان فيدوروفتش:

- نعم، ذلك هو الرأي الذي ذهبت إليه، فعندي أنه لا وجود للفضيلة ما دام لا وجود للخلود.

- إنك سعيد إذا كنت تؤمن بذلك، أو لعلك شقي جداً.
فسأله إيفان فيدوروفتش مبتسماً:
- ولماذا أكون شقياً جداً؟
فقال له الشيخ:
- لأن أغلب الظن عندي أنك لا تؤمن أنت نفسك لا بخلود روحك ولا بشيء مما كتبته عن الكنيسة وعن المسألة الإكليركية.
فقال إيفان فيدوروفتش يعترف هذا الاعتراف الغريب وقد احمرّ وجهه على حين فجأة:
- قد تكون على حق!.. ولكنني لم أعبث إلا نصف عبث، ولم أمزح إلا نصف مزاح...
- أعلم أنك لم تمزح إلا نصف مزاح. فإن هذه المسألة لم تحلّ في قلبك حلاً حاسماً بعد، وهي ما تزال تعذبك. إن الذين يعانون هذا العذاب يحبون أحياناً أن يعبثوا بعذابهم، وذلك أيضاً نتيجة يأسهم. وهذا ما تفعله أنت. فإنك ليأسك تلهو الآن بكتابة مقالات في المجلات، أو بالاندفاع في مناقشات في الصالونات، دون أن تكون مؤمناً بجدلك نفسه، حتى إنك تسخر من هذا الجدل في سرّك متألماً... إن هذه المسألة لم تحسم في نفسك بعد. وذلك هو مصدر محنتك الكبيرة، لأن هذه المسألة تقتضي الحل حتماً...
فمضى إيفان فيدوروفتش يسأل الشيخ أسئلة غريبة وقد حدّق مبتسماً ابتسامة لا يُعرف معناها:
- وهل من سبيل لي إلى حلّها؟ هل يمكنني أن أحلّها إيجاباً؟
- إذا لم تتوصل إلى حسمها إيجاباً، فلن تتوصل أبداً إلى حلها سلباً أيضاً، وذلك بسبب قانون في قلبك تعرفه حق المعرفة، وذلك هو بعينه ألمك. اشكر الله مع ذلك أنه وهب لك نفساً سامية قادرة

على أن تعاني ألماً كهذا الألم «إن الذكاء يطلب البحث عن الحقيقة في الأعالي، اطلبوا ما فوق، اهتموا بما فوق لأن سيرتنا نحن في السموات»[54]. أسألُ الربّ أن يجد قلبك حلاً أثناء حياتك على هذه الأرض، وأن ترافقك بركته طوال طريقك!

قال الشيخ ذلك ورفع يده يريد أن يرسم، وهو في مكانه، إشارة الصليب على إيفان فيدوروفتش، ولكن إيفان نهض فجأة فاقترب من الشيخ وتلقى مباركته، ثم قبّل يده وعاد يجلس في مكانه دون أن ينطق بكلمة واحدة. كان وجهه في تلك اللحظة يعبر عن صلابة وجد. إن هذه البادرة التي قام بها وإن تلك الكلمات التي تبادلها مع الشيخ والتي كانت لا تُتوقع أبداً من إيفان فيدوروفتش، إن ذلك كله قد أحدث في جميع الحضور أثراً قوياً، وفاجأهم بما يشتمل عليه من سر وما يشيع فيه من أبّهة. ساد الصمت بضع لحظات، بينما كان وجه أليوشا يفصح عن اضطراب يوشك أن يكون جزعاً. ولكن ميوسوف رفع كتفيه مستهزئاً فجأة، ثم إذا بفيدور بافلوفتش يهب عن مقعده بسرعة فيقول للشيخ مشيراً إلى إيفان فيدوروفتش.

- أيها الشيخ المقدس الرباني! هذا ابني، هذا فلذة كبدي، هذا ولدي الحبيب! إنه أكثر أبنائي احتراماً؛ هو من نوع كارل مور[55] قليلاً إن شئت... أما ابني الذي وصل الآن، دمتري فيدوروفتش هذا الذي جئت أستعين بك عليه. فإنه أقلهم احتراماً، إنه صنو فرانتس مور. إنك تعرف هذين البطلين من أبطال مسرحية شيللر «قطاع الطرق»، وأنا نفسي في هذه الحال Regierender Graf Von Moor[56] اقضِ في الأمر! أنقذنا فنحن في حاجة لا إلى دعواتك وصلواتك فحسب، بل إلى نبوءاتك أيضاً.

قال الشيخ بصوت ضعيف منهك:

- لا تتكلم كما يتكلم إنسان طائش العقل، دعك من التهريج، ولا تبدأ الحديث بإهانة أهلك!

كان واضحاً أن التعب يستولي على الشيخ، وأن قواه تبارحه شيئاً بعد شيء.

هتف دمتري فيدوروفتش واثباً عن كرسيه بحركة استياء واستنكار، هتف يقول:

- هذه مهزلة كريهة! لقد كنت أوجس هذا وأنا آتٍ إلى هنا. مغفرةً أيها الأب المحترم! (كذلك قال دمتري فيدوروفتش للشيخ). أنا امرؤ ضئيل الحظ من التعليم، حتى إنني أجهل اللقب الذي يجب أن أناديك به. لقد خدعوك، فكنت ضحية طيبة نفسك حين أذنت بأن تجمعنا هنا. إن أبي لا يسعى إلا إلى الفضيحة... أما هدفه من ذلك، فلا بد أنه يعرفه... إن في كل عمل يقوم به حساباً يجريه. وأظن مع ذلك أنني أحزر الآن هدفه من ذلك...

صاح فيدور بافلوفتش هو أيضاً يقول:

- إنهم جميعاً يتهمونني! وبيوتر ألكسندروفتش يتهمني أيضاً...

أضاف ذلك وهو يلتفت فجأة نحو ميوسوف، مع أن ميوسوف لم يخطر بباله أن يقاطعه، وتابع كلامه يقول مخاطباً ميوسوف:

- نعم يا بيتر ألكسندروفتش! لقد اتهمتني. هم يأخذون عليَّ أنني اختلست أموال أولادي، واغتنيت على حسابهم. أليس هناك محاكم؟ إنني ألقي عليكم هذا السؤال. هلا اتجهت إلى المحاكم يا دمتري فيدوروفتش فتقول لك عندئذٍ، بالاستناد إلى الإيصالات التي وقعتها، والرسائل التي أرسلتها، والاتفاقات التي أبرمتها، ما هو مقدار ميراثك، وما هو المبلغ الذي بددته، وكم بقي لك؟ لماذا يرفض بيتر ألكسندروفتش أن يفصح عن رأيه؟ ليس دمتري فيدوروفتش شخصاً

غريباً عنه. سأقول لكم لماذا يرفض: لأنهم جميعاً يناصبونني العداء، مع أن دمتري فيدوروفتش ما يزال مديناً لي بمال في آخر الحساب! هو المدين لي، وليس ديني عليه مبلغاً زهيداً بل هو ألوف الروبلات، أستطيع أن أثبت ذلك بوثائق في يدي! إن حياة القصف واللّهو والتبذير الذي يعيشها تترجع أصداء إشاعتها في مدينتنا كلها! وهو منذ كان في الجيش قد تعوّد أن يرمي ألف روبل أو ألفين في سبيل أن يقضي على عفاف البنات الشريفات! هه... إنني أعرف هذا يا دمتري فيدوروفتش... إنني أعرف أدق التفاصيل الخفية، وأستطيع أن أبرهن على ذلك... فاعلم هذا إذاً أيها الأب المقدس: لقد أغوى دمتري فيدوروفتش أنبل فتاة من الفتيات، فتاة تنتمي إلى أسرة كريمة غنية كان أبوها رئيسه، وهو كولونيل شهم شجاع مُنح لمزاياه وساماً رفيعاً هو صليب القديسة آنا مع سيوف[57]! لقد أفسد دمتري فيدوروفتش طهارة تلك المخلوقة البريئة إذ خطبها، وها هي ذي يتيمة الآن، تقيم في مدينتنا، وهي خطيبته، بينما هو يتردد أمام بصرها على امرأة من النساء «الساحرات» يعرفها الناس عندنا حق المعرفة. ولكن هذه المرأة الساحرة، رغم أنها قد عاشت بما يشبه الزواج المدني مع رجل محترم جداً، لها طبيعة مستقلة، هي قلعة حصينة لا يمكن الوصول إليها كزوجة شرعية تماماً لأنها امرأة فاضلة، نعم فاضلة... أيها الآباء المبجلون! غير أن دمتري فيدوروفتش يريد أن يفتح هذا الحصن بمفتاح من ذهب، وذلك هو السبب في هجومه عليّ الآن، لأنه يأمل أن ينتزع مني مالاً. وبانتظار ذلك أنفق على هذه الساحرة حتى هذه اللحظة ألوف الروبلات، وهو ما ينفك يستدين من أجلها مالاً بعد مال. إنه يستدين، وهل تعلمون ممن يستدين؟ تخيلوا! أأقول يا ميتيا؟

قال دمتري فيدوروفتش بصوت مدوٍ:

- صه! انتظر حتى أخرج من هنا، لأنني لن أسمح لك بأن تدنس أثناء وجودي سمعة أنبل فتاة! إن تجرّؤك وحده على الإلماح إليها إهانة لشرفها... لا لن أسمح بهذا!

كان دمتري فيدوروفتش يختنق غضباً وحنقاً.

قال فيدور بافلوفتش بما يشبه انهيار الأعصاب وهو يحاول أن يستدرّ من عينيه دموعاً:

- ميتيا، ميتيا! ومباركة الأب لابنه، ما عساك فاعلاً بها؟ ما عسى يحدث لو لعنتك؟

فزأر دمتري فيدوروفتش يقول وقد جن جنونه غيظاً.

- ممثل هزلي وقح!

فقال فيدور بافلوفتش:

- انظروا كيف يعامل أباه! فهل تتصورون معاملته للآخرين؟ اسمعوا هذا أيها السادة: في مدينتنا رجل فقير ولكنه محترم؛ هو نقيب محال على التقاعد. لقد نزلت بهذا الرجل مصائب، واضطر أن يستقيل من الجيش، غير أن كل شيء قد جرى مجرى رفيقاً، فلا تشهير به ولا حكم عليه، وظل شرفه سليماً. وهذا الرجل يعيل أسرة كبيرة. فهل تعلمون ما صنع به دمتري فيدوروفتش منذ ثلاثة أسابيع؟ لقد أمسكه من لحيته في إحدى الخمارات، وجرَّه إلى الشارع وهو ما يزال ممسكاً لحيته، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً على مرأى ومسمع من جمهرة الناس! كل ذلك لأنني عهدت إلى هذا الرجل سراً ببعض الأمور في قضية صغيرة.

قال دمتري فيدوروفتش وقد أخذ جسمه كله يرتعش حنقاً:

- هذا كله كذب! هو حقيقة في الظاهر كذب في الباطن! إنني لا

أحاول أن أسوّغ هذا العمل الذي قمت به، بل إنني تصرفت مع هذا النقيب تصرف حيوان كاسر مفترس، وإنني نادم على ما بدر مني كل الندم، وإنني أشعر بالخزي والعار من ذلك الغضب المسعور الذي استبد بي. ولكن ذلك النقيب، ذلك الرجل الذي تقول إنك عهدت إليه ببعض الأعمال، إنما ذهب إلى تلك السيدة التي وصفتها منذ هنيهة بأنها ساحرة، فكلمها باسمك، وعرض عليها أن تشتري السندات التي وقعتها لك، وأن تلاحقني لدى القضاء، من أجل أن أودع السجن متى أصبحت أزعجك بمطالبي فيما يتعلق بتصفية حساباتنا. فكيف تجرؤ أن تأخذ عليَّ اليوم أنني أميل إلى هذه السيدة على حين أنك أوعزت إليها أنت نفسك بأن تجتذبني إليها! ثم إنها لا تجد أي حرج في أن تقص هذا علناً، ولقد روته لي بنفسها، ساخرةً منك! ولئن كنتَ تريد أن تُدخلني السجن فليس لهذا إلا سبب واحد على كل حال، هو أنك تغار مني، لأنك حاولت أن تزعج هذه المرأة بحبك! ذلك أمر أعرفه أيضاً! هي التي روته لي ضاحكةً عليك، هل تسمع؟ ضاحكة عليك، مستهزئةً بك! تلك هي، أيها المباركون، حقيقة هذا الرجل، تلك هي حقيقة هذا الأب الذي يظهر امتعاضه من سوء سلوك ابنه! أيها السادة الذين شهدتم هذا المشهد، اغفروا لي ما أظهرت من عنف ولكنني أوجست سلفاً، أن هذا العجوز الوقح إنما جمعكم كلكم هنا من أجل أن يحدث وقيعة فاضحة، أما أنا فلقد جئت على نية الصفح والمغفرة إذا مدَّ إليّ يده، وعلى نية نسيان الإساءة التي ألحقها بي، وعلى نية طلب الصفح والمغفرة كذلك. أما وأنه أهانني الآن ثم لم يكتف بذلك بل تجرأ على أن يهين أنبل فتاة وهي فتاة أتحاشى أن أذكر اسمها في غير طائل، لأنني أحترمها احتراماً دينياً فقد قررت أن أفضح لعبته الحقيرة على رؤوس الأشهاد، رغم أنه أبي!..

لم يستطع دمتري فيدوروفتش أن يتابع كلامه. كانت عيناه تقدحان شرراً، وكان تنفسه صعباً. وكان جميع الحضور من جهة أخرى منفعلين، ونهضوا جميعاً باستثناء الشيخ، من مقاعدهم في اضطراب. وقد تجهم وجها الراهبين الكاهنين، ولكنهما ينتظران قرار الشيخ. ولم يكن الشيخ قد تحرك. كان وجهه مصفراً اصفراراً شديداً، لا من انفعال، بل من ضعف مرده إلى المرض. إن ابتسامة ضارعة تطوف على شفتيه. وهو من حين إلى حين يهم أن يرفع يده ليهدئ روع هؤلاء الممسوسين، وكان يمكنه في الواقع أن يضع حداً لهذا المشهد بمجرد حركة، ولكن كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه شيئاً ما، فكان يراقب المتحادثين بانتباه مشدود، كأنه يحاول أن يفهم مزيداً من الفهم، كأنه يحاول أن يدرك عنصراً في الموقف ما يزال خافياً عليه مستعصياً على فهمه. وأخيراً شعر بيتر ألكسندروفتش ميوسوف بأنه أُذل إذلالاً عميقاً، وأنه جُلّل بالخزي والعار. قال بحرارة:

- إننا جميعاً نتحمل قسطاً من تبعة هذه الفضيحة! كيف كان يمكنني أن أتنبأ بشيء من هذا حين جئت إلى هنا؟ غير أنني كنت أعرف مَنْ هذا الرجل... يجب أن ينتهي هذا الأمر فوراً! أيها الأب المبجّل، ثق أنني لم أكن على علم دقيق بالتفاصيل التي كُشف عنها الآن. لقد كنت أرفض أن أصدّقها، وإنما عرفتها في هذه اللحظة لأول مرة... أبٌ يغار من ابنه على امرأة سيئة الخلق، ويتفق مع هذه المخلوقة على زجّ ابنه في السجن... هؤلاء هم الناس الذين اضطررت أن أجيء معهم إليك... لقد غُرّر بي، فأريد أن أصرّح علانية أنني قد غُرّر بي وخدعت كما خدع غيري...

أعول فيدور بافلوفتش يخاطب ابنه بصوت ليس مألوفاً فيه:

- دمتري فيدوروفتش! لو لم تكن ابني لناديتك إلى المبارزة فوراً... بالمسدس... على مسافة ثلاث خطوات.. والأعين معصوبة...

ثم كرر يقول وهو يقرع الأرض بقدميه:

- نعم، والأعين معصوبة!

إن الكذابين العريقين الذين ظلوا طوال حياتهم يمثّلون يبلغون أحياناً من عمق تقمصهم للدور الذي يمثلونه أنهم يرتعشون انفعالاً ويبكون، رغم قدرتهم على أن يقولوا لأنفسهم في الوقت نفسه (أو بعد بضع دقائق): «أنت تكذب أيها الكاذب العريق! أنت تمثّل حتى في هذه اللحظة، رغم غضبك «المقدّس» ورغم هذه الدقيقة «المقدسة» من الغضب».

قطب دمتري فيدوروفتش حاجبيه. وأظلم وجهه، ورشق أباه بنظرة ثابتة فيها احتقار لا يوصف. ثم قال بصوت رقيق مكظوم:

- ما كان أغباني حين اعتقدت أنني سأعود إلى مدينتي التي رأيت فيها النور، بصحبة هذه الملاك، خطيبتي، لكي أجمّل أيامه الأخيرة، فإذا أنا لا أرى فيه إلا رجلاً فاسقاً فاجراً، وممثلاً دنيئاً خسيساً!

زأر العجوز يقول من جديد، وقد تقطعت أنفاسه وأخذ اللعاب يتدفق من فمه عند كل كلمة ينطق بها:

- إلى المبارزة! أما أنت يا بيتر ألكسندروفتش ميوسوف فاعلم أيها السيد أن أسرتك كلها لعلها لم تضم ولن تضم في يوم من الأيام امرأة أنبل ولا أشرف نعم ولا أشرف، هل فهمت؟ - من هذه المرأة التي وصفتها أنت في غير تحرج ولا حياء بأنها «مخلوقة»! وأما أنت يا دمتري فيدوروفتش، فقد هجرت خطيبتك في سبيل هذه «المخلوقة»، وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة التي هي خطيبتك لا

ترقى إلى مستوى كعب حذائها. تلك هي المرأة التي سميتموها «مخلوقة»!

صاح الأب يوسف يقول فجأة:

- هذا خزي!

وانبرى الفتى كالجانوف الذي لم يفتح فمه بكلمة واحدة حتى ذلك الحين، انبرى يقول فجأة بصوته المراهق وهو يرتجف استياءً وامتعاضاً واستنكاراً:

- هذا خزي وعار!

وكان الفتى قد احمرّ احمراراً شديداً.

وزأر دمتري فيدوروفتش وقد بلغ ذروة الغضب ورفع كتفيه عاليتين كل العلو حتى ليكاد يبدو من ذلك أحدب الظهر، زأر يقول في نوع من التخفف:

- لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل؟ هلاَّ قلتم لي، هلا قلتم لي هل يجوز أن ندع له أن يدنس الأرض برذائله مدة أطول؟

سأل دمتري فيدوروفتش هذا السؤال وهو ينظر إلى جميع الحضور واحداً بعد واحد، مومئاً إلى أبيه بيده. وكان يتكلم ببطء مقطّعاً ألفاظه.

هتف فيدور بافلوفتش يقول متهجماً على الأب يوسف:

- هل سمعتم أيها الرهبان، هل سمعتم ما يقوله قاتل أبيه؟ ذلك هو الجواب على قولك «هذا خزي وعار!» هلاَّ قلت لي أين الخزي والعار؟ إن هذه «المخلوقة». إن هذه «المرأة السيئة السلوك» ربما كانت أقدس منكم أيها السادة الرهبان الكهنة الذين تظنون أنكم تظفرون في الدير بالسلامة والخلاص! صحيح أنها سقطت في شبابها ضحية بيئتها، ولكنها «أحبت كثيراً»، والمسيح نفسه قد غفر للمرأة التي أحبت كثيراً. . .[58].

قال الأب الوديع يوسف نافد الصبر:

- المسيح لم يغفر من أجل ذلك الحب. . .

- بل من أجل ذلك الحب، من أجل ذلك الحب نفسه أيها السادة الرهبان! تحسبون أنكم تحققون لأنفسكم السلامة والخلاص بأكل الكرنب الحامض، وتظنون أنفسكم بررة تقاة صالحين. تغتذون بالأسماك، تغتذون بسمكة صغيرة في اليوم، وتنوون أن ترشوا الله بأسماككم هذه!

- هذا لا يطاق، هذا لا يطاق!

كذلك أخذ الحضور يقولون في كل جهة من الصومعة.

غير أن هذا المشهد الذي بلغ أوج الغلظة والحطة قد انتهى على نحو غير متوقع إطلاقاً: نهض الشيخ فجأة، فهرع أليوشا الذي كاد يفقد صوابه من شدة خوفه على الشيخ من جهة وعلى أهله من جهة أخرى، هرع يسنده من ذراعه. اتجه الشيخ نحو دمتري فيدوروفتش، فلما وصل إليه هوى يركع على ركبتيه. اعتقد أليوشا أن الشيخ قد سقط على الأرض ضعفاً ووهناً، ولكن الأمر لم يكن كذلك. فحين صار الشيخ راكعاً على ركبتيه، انحنى يحيي دمتري فيدوروفتش عامداً، وبلغ من شدة انحنائه أن جبينه لامس الأرض. دُهش أليوشا دهشة عظيمة نسي معها أن يمسك الشيخ بعد ذلك حين عاد الشيخ ينهض. وهذه بسمة واهنة لا تكاد تُدرك، تحرّك شفتي الشيخ. قال وهو ينحني لجميع ضيوفه في كل جهة من الجهات:

- اعذروني، اعذروني جميعاً. . .

لبث دمتري فيدوروفتش جامداً من الذهول بضع لحظات: لقد ركع الشيخ أمامه، فما معنى هذا؟ وهتف يقول بعد لحظة: «يا رب!» - ثم أخفى وجهه بيديه، واندفع يخرج من الحجرة. اتجه

سائر الزوار وراءه نحو الباب ناسين من شدة اضطرابهم أن يودّعوا صاحب الدار. واقترب الراهبان الكاهنان وحدهما من الشيخ يتلقيان مباركته.

- لماذا ركع ذلك الركوع؟ أيكون في هذا إشارة إلى شيء؟

بهذا دمدم فيدور بافلوفتش وقد هدأ روعه فجأة وحاول أن يجري الحديث بينه وبين صحبه دون أن يجازف مع ذلك فيخاطب واحداً بعينه منهم وهم يجتازون في تلك اللحظة نطاق الصومعة.

فأجاب ميوسوف فوراً يقول بلهجة غضبى:

- لست مسؤولاً عن ملجأ المجانين هذا وعن هؤلاء المجانين جميعاً، ولكنني في مقابل ذلك سأعفي نفسي بعد الآن من صحبتك يا فيدور بافلوفتش، وثق أن هذا سيكون إلى الأبد. أين ذلك الراهب الذي استقبلنا منذ قليل؟..

ولكن «ذلك الراهب»، وهو الذي كان قد دعاهم إلى الغداء عند كبير الرهبان، لم يدعهم ينتظرونه، فما إن هبطوا درجات مدخل صومعة الشيخ حتى كان قد اقترب منهم، كأنه كان ينتظرهم هنالك طول الوقت.

قال له بيتر ألكسندروفتش دون أن يستطيع التحكم بحنقه والسيطرة على غضبه:

- أيها الأب المحترم، أرجو أن تنقل إلى الأب كبير الرهبان احترامي العميق، وأن ترجو سيادته أن يتفضل بأن يعذرني، أنا ميوسوف، عن اضطراري إلى التخلف حتماً، بسبب ظروف طارئة لم تكن في الحسبان، عن التشرف بتلبية دعوته إلى الغداء رغم رغبتي القوية المخلصة في تلبية هذه الدعوة الكريمة.

فأسرع فيدور بافلوفتش يتدخل قائلاً:

- آ. . . هذا أنا. الظروف الطارئة التي لم تكن في الحسبان هي أنا. اعلم أيها الأب الطيب أن بيتر ألكسندروفتش قد سئم صحبتي ولولا ذلك للبى الدعوة بغير تردد. ولكنك سوف تذهب إلى الدعوة يا بيتر ألكسندروفتش، ستتشرف بتناول طعام الغداء عند الأب كبير الرهبان، وأنا أتمنى لك شهية طيبة وطعاماً هنيئاً! أنا الذي سأمتنع عن حضور الوليمة لا أنت! أما أنا فأعود إلى منزلي، وآكل في داري، لأنني لن أستطيع أن أبلع شيئاً هنا. هل فهمت يا بيتر ألكسندروفتش، يا قريبي العزيز جداً؟

- أنا لست قريبك، ولم أكن قريبك في يوم من الأيام أيها الإنسان الدنيء!

- لقد تعمدت أن أقول لك قريبي لأزعجك، فأنا أعلم أنك تخجل من هذه القرابة وتنكرها. ولكنك قريبي مع ذلك، وفي وسعي أن أبرهن على هذا بتقويم القديسين[59]. أما أنت يا إيفان فيدوروفتش فسأرسل إليك العربة لتعيدك إلى المنزل فيما بعد، فابق هنا إن شئت. إن اللياقة توجب عليك يا بيتر ألكسندروفتش أن تذهب إلى غداء الأب كبير الرهبان، ولو لتعتذر إليه عن الفضيحة التي شاركنا فيها أنا وأنت معاً. . .

- أصحيح أنك منصرف؟ ألأنت لا تكذب؟

- كيف أجرؤ أن أحضر المأدبة بعد الذي حدث يا بيتر ألكسندروفتش؟ لقد اندفعت اندفاعاً طائشاً أيها السادة، لقد نسيت نفسي، فاغفروا لي ذلك. هذا إلى أنني مضطرب، وأشعر بالخزي أيضاً. أيها السادة، إن لبعض الناس قلباً كقلب الاسكندر الأكبر، وإن لبعضهم قلباً كقلب الكلب الصغير «فيدلكا». وأنا كالكلب «فيدلكا» فزعان! فكيف أجرؤ بعد الذي بدر مني أن أشارك في هذا

الغداء وأن ألعق مرق الدير؟ إنني لا أستطيع ذلك، أشعر بالخزي، فاعذروني!

«الشيطان وحده يعلم أهو يقول الحقيقة أم يخدعني!». - بهذا حدث ميوسوف نفسه وهو يتوقف عن السير ويتابع المهرّج الذي أخذ يبتعد، بنظرة فيها دهشة وحيرة. والتفت فيدور بافلوفتش إلى الوراء، فلما لاحظ أن ميوسوف يراقبه أرسل إليه قبلةً باليد.

قال ميوسوف يسأل إيفان فيدوروفتش باقتضاب:

- أأنت ذاهب إلى الغداء؟

- ولِمَ لا أذهب؟ ثم إنه قد دعاني أمس دعوة خاصة.

- المصيبة إنني أشعر بأنني أكاد أكون مضطراً حقاً إلى حضور هذا الغداء اللعين، عل الأقل لنعتذر عن الفضيحة التي وقعت، ولنشرح أننا لا نتحمل تبعتها... ما رأيك؟ - تابع ميوسوف كلامه بلهجة هي تلك اللهجة المرة نفسها، دون أن يعبأ بحضور الراهب الصغير الذي كان يصغي إلى كلامه ـ فأجابه إيفان فيدوروفتش قائلاً:

- صحيح. يجب أن نشرح أن التبعة لا تقع علينا نحن. وعلى كل حال، لن يكون أبي معنا.

- أبوك؟ ما كان ينقصنا إلا أن يكون معنا! يا للغداء اللعين!

ورغم ذلك مضى كلاهما إلى الغداء. كان الراهب الصغير يصغي إلى حديثهما صامتاً. واقتصر على أن قال لهما مرة واحدة وهم يجتازون الغابة الصغيرة إن الأب كبير الرهبان ينتظرهم منذ زمن طويل وإنهم تأخروا نصف ساعة. ولكن أحداً لم يجبه. نظر ميوسوف بحقد إلى إيفان فيدوروفتش، وقال يحدث نفسه:

«إنه يمضي إلى الغداء، كأن شيئاً لم يحدث! رأس عنيد، وضميرٌ كارامازوفي!».

– 7 –

طالب اللاهوت الوصولي

قاد أليوشا شيخه إلى المهجع وأجلسه على السرير. هي حجرة صغيرة جداً لا تضم من الأثاث إلّا ما لا غنى عنه. السرير صغير ضيق من حديد، عليه قطعة من لباد تقوم مقام فراش. وفي ركن من الأركان، قرب الأيقونات، منضدة صغيرة عليها صليب وإنجيل. تهالك الشيخ على السرير منهوك القوى. كانت عيناه تلتمعان وكان تنفسه ثقيلاً. فلما جلس، ألقى على أليوشا نظرة طويلة منتبهة، كأنه يفكر في شيء، ثم قال له:

– اذهب يا عزيزي، اذهب. يكفي بورفيري لمساعدتي. أسرع. هم في حاجة إليك هناك. اذهب إلى الأب كبير الرهبان، واحضر ذلك الغداء لتخدم على المائدة.

فقال أليوشا بصوت متوسل ضارع:

– اسمح لي أن أبقى قربك!

– أنت هناك أَفيَد. ليس بينهم هناك سلام. سوف تخدمهم، وقد يكون في حضورك خير لهم. إذا استيقظت الشياطين فاتلُ دعاءً. واعلم أيضاً يا بني (كان يحلو للشيخ أن يناديه بهذا) أن مكانك ليس هنا بعد اليوم. تذكر ما أقوله لك أيها الشاب: متى تفضل الرب فدعاني إليه، اترك أنت هذا الدير، واذهب، اذهب تماماً.

ارتعش أليوشا. فقال له الشيخ:

- فيم اضطرابك؟ مكانك ليس هنا الآن. إنني أبارك خدمتك العظيمة لله في الحياة الدنيا، سيكون عليك أن تتجول كثيراً. وسيكون عليك أن تتخذ لنفسك امرأة، يجب أن تتزوج. إن عليك أن تتألم كثيراً وأن تقاسي كثيراً قبل أن تستطيع العودة إلى هنا. لم تخلُ حياتك من الأثقال والأعباء. ولكنني لا أشك فيك، من أجل هذا إنما أرسلك. المسيح معك. فإذا صنته صانك. إن آلاماً كبيرة تنتظرك، ولكنك ستعرف السعادة في هذه الآلام. إليك نصيحتي، إليك وصيتي: ابحث عن الفرح في الآلام. اعمل، اعمل بغير هوادة. تذكر ما أقوله لك اليوم، ذلك أنني أعلم، ولو أتيح لي أن أتحدث إليك مرة أخرى، أن أيامي بل ساعاتي أصبحت بعد الآن معدودة.

عبّر وجه أليوشا مرة أخرى عن انفعال عنيف. وأخذ طرفا شفتيه يرتعشان.

سأله الشيخ وهو يبتسم ابتسامة عذبة رقيقة:

- ما بك أيضاً؟ فليسكب أبناء هذه الدنيا دموعاً على موتاهم. أما نحن هنا فإننا نغتبط مع الأب الذي يبارحنا إلى العالم الآخر، نبتهج معه ونصلي له. دعني الآن. يجب عليّ أن أصلّي. هيّا أسرع. ابق قرب أخويك، لا قرب واحدٍ منهما، بل قربهما كليهما.

ورفع الشيخ يده ليباركه. كان يستحيل على أليوشا أن يعصي أمر الشيخ مهما تكن رغبته في البقاء معه قوية. وكان يحترق توقاً إلى سؤاله: «عمّا تدل عليه تحيته لأخيه دمتري ساجداً؟» وكان هذا السؤال على طرف لسانه، ولكنه لم يجرؤ أن ينطق به. إنه يعرف أن الشيخ كان سيشرح له هذا الأمر من تلقاء نفسه لو كان يقدّر أن ذلك

في الإمكان. أما وأنه لم يفعل، فمعنى ذلك أنه لا يريد أن يفعل. غير أن تلك التحية قد أحدثت في نفس أليوشا تأثيراً قوياً جداً: كان أليوشا مقتنعاً بأن لهذه التحية معنى سرياً. إن هذه الحركة التي قام بها الشيخ تبدو له مثقلة بالسر، وربما كانت مثقلة بالهول. ولما خرج من نطاق الصّومعة حاثاً خطاه من أجل أن يصل إلى الدير قبل ابتداء الغداء عند كبير الرهبان (من أجل أن يخدم على المائدة لا أكثر، طبعاً)، انقبض صدره فجأة وتوقف عن السير لحظة: لقد عادت تدوّي في نفسه كلمات الشيخ التي يعلن فيها أن نهايته قد قربت. إن ما يتنبأ به الشيخ بمثل هذه الدقة لا بد أن يقع. هذه في نظر أليوشا حقيقة مقدسة. فما عسى تصير إليه حاله وحيداً بعد موت الشيخ؟ كيف يعيش دون أن يراه ودون أن يسمعه؟ إلى أين عساه يذهب؟ يأمره الشيخ أن يمسك عن البكاء ويترك الدير. يا رب! إن أليوشا لم يشعر منذ زمن طويل بمثل الذي يشعر به الآن من حزن. أغذّ أليوشا خطاه وهو يقطع الغابة الصغيرة التي تفصل الصّومعة عن الدير، وإذ أحس بعجزه عن احتمال خواطره التي كان ثقلها يسحقه سحقاً، فقد أخذ يتأمل أشجار الصنوبر التي تبلغ أعمارها مئات السنين، والتي تنتصب قائمة على جهتي الممر في الغابة. ليست المسافة بعيدة؛ هي خمسمائة خطوة في أكثر تقدير؛ وفي مثل هذه الساعة من النهار يندر أن يصادف المرء فيها أحداً. ولكن ما إن بلغ أليوشا أول منعطف حتى لمح راكيتين على حين فجأة. كان يبدو على راكيتين أنه ينتظر شخصاً ما.

سأله أليوشا حين أدركه:

- أتنتظرني أنا؟

فأجابه راكيتين ضاحكاً:

- حزرتَ. أنت ذاهب إلى الأب كبير الرهبان، أعلمُ ذلك. إن عنده وليمة غداء. هل تعرف أنه منذ اليوم الذي استقبل فيه الأسقف الذي كان يصحبه الجنرال باخاتوف هل تتذكر هذا؟- لم يعدّ مائدة تبلغ ما تبلغه مائدة اليوم من عناية! لن أحضر انا الغداء، أما أنت فاذهب إليه وقدّم الطعام للضيوف. هناك سؤال يجب أن أطرحه عليك يا أليوشا: ما دلالة ذلك الحلم؟ لقد انتظرتك من أجل أن ألقي عليك هذا السؤال.

- أي حلم تعني؟

- تلك التحية الساجدة أمام أخيك دمتري فيدوروفتش. لقد بلغ من السجود له أن جبينه صدم الأرض!

- هل تقصد الأب زوسيما؟

- طبعاً أقصد الأب زوسيما.

- صدم جبينه الأرض؟

- أيكون في هذا التعبير إخلال بواجب الاحترام؟ طيب... لنفرض أنني أخللت بواجب الاحترام. ولكن ما معنى ذلك الحلم؟

- أجهل معناه يا ميشا.

- كنت أعلم أنه لن يشرحه لك. وليس في الأمر شيء من سر طبعاً. هي تلك الحركات التقية الجوفاء نفسها تتكرر. ولكن الشيخ لم يمثل هذه التمثيلية بغير نيةٍ يبيتها. إن جميع الثرثارين في المدينة والإقليم سيتحدثون الآن في هذا الأمر وسيتساءلون: «ما دلالة هذا الحلم على المستقبل؟ بأي شيء يؤذن هذا الحلم؟» في رأيي إن الشيخ لا يعوزه نفاذ البصيرة. لقد أحسّ أن هناك جريمة سترتكب، لقد شم هذه الرائحة. إن الروائح في منزلكم تنذر بشر مستطير.

- أيّ جريمة تقصد؟

كان واضحاً أن راكيتين يحاول أن يجد السبيل إلى الإفصاح عما يدور في رأسه.

- في أسرتك إنما ستُرتكب هذه الجريمة. ستقع هذه الجريمة بين أخويك وذلك الثري أبيك. وبسبب ذلك إنما صدم الأب زوسيما الأرض بجبينه مسبقاً. فإذا وقع شيء في ذات يوم قال الناس: «لقد تنبأ به ذلك الشيخ القديس». ألا ما أسخفها من نبوءة أن يصدم المرء بجبينه الأرض! ولكن الناس سيدعون أن ذلك كان رمزاً أو مجازاً أو شيئاً لا يُعرف! وسيظلون يذكرون بغير انقطاع أنه تنبأ بالجريمة، واكتشف المجرم. إن البلداء لا يفعلون إلا هذا: يرسمون إشارة الصليب أمام حانة، ويرمون المعبد بالحجارة! ألا إن شيخك ليشبههم: يطرد الصالح طرداً بالعصا، ويسجد أمام قاتل.

- أية جريمة تقصد؟ أي قاتل تعني؟ ماذا تقول؟

قال أليوشا ذلك وتوقف، فتوقف راكيتين أيضاً، وقال يسأل أليوشا:

- أي قاتل؟ أتزعم أنك تجهله؟ ألا إنني أراهن على أنك فكرت في هذا الأمر من قبل. وددت لو أعلم بهذه المناسبة. اسمع يا أليوشا: إنك تقول الحقيقة دائماً، رغم أنك جالس دائماً بين كرسيين: أفكرت في هذا الأمر من قبل أم أنت لم تفكر فيه؟

أجاب أليوشا بصوت خافت:

- فكرت فيه.

فاضطرب راكيتين هو نفسه، وهتف قائلاً:

- ماذا؟ فكرت فيه؟ أهذا ممكن؟

فتمتم أليوشا يقول:

- أقصد أنني... لم أفكر فيه... ولكنني حين سمعتك تتكلم

على هذا النحو الغريب منذ هنيهة، خيّل إليّ أنني فكرت فيه.

- أرأيت؟ (لقد عبّرت عن نفسك تعبيراً واضحاً). أرأيت؟ إنك حين رأيت كيف اشتبك أبوك وأخوك ميتيا اليوم قد خطرت ببالك الجريمة! لم يخطئ إذن ظني...

فقاطعه أليوشا يقول قلقاً:

- انتظر، انتظر! من أين أدركت أنت هذا كله؟.. ولماذا تهتم بالأمر هذا الاهتمام الشديد؟ وددت لو أعرف ذلك أولاً...

- هذان سؤالان مختلفان، ولكنهما سؤالان مشروعان، وسأجيبك عن كل واحد منهما على حدة. من أين أدركت هذا كله؟ إنني ما كان لي أن أدرك شيئاً لولا أنني اليوم، في لحظة معينة، قد نفذت فجأة ودفعة واحدة إلى سريرة أخيك دمتري فيدوروفتش كلها، فرأيته كما هو. لقد فهمته كله دفعة واحدة بفضل سمة من سمات طبعه. هناك بالنسبة إلى رجال من نوع أخيك، وهم رجال شرفاء في حقيقة أمرهم، ولكنهم متأججون بالشهوات، هناك حد يجب أن يتحاشى المرء تجاوزه في معاملتهم، وإلا أصبحوا لا يتورعون حتى عن قتل أبيهم! وأبوك رجل فاسق فاجر سكير عربيد لم يعرف القصد والاعتدال في شيء من الأشياء يوماً، فلن يسيطرا على نفسيهما، وسينجرف الاثنان...

- لا يا ميشا! إذا لم يكن ما تقصده إلا هذا، فأنت مخطىء، وأنا أسترد تفاؤلي، لن يمضي الأمر إلى هذا الحد.

- فلماذا أراك ترتعش هكذا؟ اسمع: إن أخاك ميتيا رجل شريف، أسلّم لك بذلك (هو غبي لكنه شريف)، غير أنه يحب الملذات. ذلك أساس طبيعته، وهو العنصر المسيطر في نفسه. وقد أخذ هذا عن أبيه الذي أورثه شهوانيته الخبيثة. إنني لأستغرب في بعض

الأحيان حين أنظر إليك يا أليوشا. كيف استطعت أن تحافظ على طهارتك؟ إنك واحد من أسرة كارامازوف أيضاً! والميل الجامح إلى اللذة قد وصل إلى أوجه! فانظر إلى هؤلاء الشهوانيين الثلاثة الذين يرقب بعضهم بعضاً الآن ويتربص به مخفياً في كمه خنجراً. لقد تجابهوا هم الثلاثة أنفاً لأنف، ولعلك ستصبح رابعهم.

- أنت مخطىء في موضوع تلك المرأة. إن دمتري يحتقرها...

كذلك قال أليوشا في تشنج. فأجابه راكيتين:

- من؟ جروشنكا؟[60] لا يا صاحبي... لا... إنه لا يحتقرها البتة، طالما بدلها علناً بخطيبته. هناك شيء... شيء لا تستطيع الآن أن تدركه أيها الأخ! حين يتوله بعض الرجال بحب امرأة جميلة، ويعشقون جسدها، أو حتى جزءاً من جسدها (وهذا ما يفهمه الشهواني جيداً، يجب أن يكون المرء مترف الذوق ليفهم هذا)، فإنهم يصبحون مستعدين للتضحية بأولادهم في سبيلها. أن يبيعوا أباهم وأمهم وروسيا ووطنهم من أجلها. قد يكونون شرفاء فإذا هم يسرقون، وقد يكونون وديعين فإذا هم يقتلون، وقد يكونون أوفياء أمناء فإذا هم يغدرون. إن شاعرنا بوشكين الذي تغنّى بساقي المرأة قد مجّد ساقيها الصغيرتين في شعر[61] وهناك آخرون لا ينظمون شعراً ولكنهم لا يستطيعون أن ينظروا إلى هاتين الساقين الصغيرتين إلا ويعتريهم من ذلك اضطراب عنيف. وليست مفاتن المرأة ساقين فحسب... لا أيها الأخ، إن الاحتقار لا حيلة له في ذلك، هذا إذا سلمنا جدلاً بأنه يحتقر جروشنكا. قد يكون صحيحاً أنه يحتقرها، ولكنه لا يستطيع أن ينفصل عنها وأن يتحرر من أسرها.

أفلت لسان أليوشا يقول فجأة:

- أنا أفهم هذا!

فقال راكيتين وقد ظهر عليه فرح خبيث:

- هه! لا بد أنك تفهمه فعلاً ما دمت قد اعترفت بذلك على هذا النحو منذ الكلمات الأولى التي نطقت بها. ولقد قلت قولك دون أن تريد ذلك، وإنما زلّ به لسانك. وهذا يجعل لاعترافك قيمة أكبر، فالموضوع ليس بالجديد عليك، ولا شك أنك فكرت إذاً في الشهوة! ذلك هو إذاً فتانا العف الذي احتفظ بطهارته! أنا أعلم يا أليوشا أنك إنسان رقيق القلب، أنا أعلم أنك قديس. ولكن مهما تكن فتى وديعاً هادئاً فإن الشيطان وحده يعلم ما الذي فكرت فيه، وما الذي أصبحت تعرفه منذ هذه السنّ! أنت فتى بكر طاهر، ولكنك سبرت الأغوار السحيقة... إنني ألاحظك منذ زمن طويل. أنت واحد من أسرة كارامازوف... أنت واحد من هذه الأسرة تاماً كاملاً... ولا بد أن نؤمن بأن للعِرقْ والوراثة أثراً رغم كل شيء... أنت شهواني من جهة أبيك، بسيط من جهة أمك. ما لي أراك ترتعد فجأة؟ ربما لأنني أقول الحقيقة؟ هل تعلم ماذا حدث؟ لقد تضرعت إليّ جروشنكا قائلة: «جئني به (كانت تتكلم عنك)، فأخلع عنه ثوب الراهب الذي يرتديه». ليتك تعرف كم ألحّت: «جئني به، جئني به!» ولقد تساءلت ما الذي ويجذبها فيك إلى هذا الحد؟... هي امرأة خارقة، صدقني!

قال أليوشا وهو يضحك ضحكة مصطنعة:

- بلغها تحيتي، وقل لها إنني لن أجيء. أكمل ما كنت تريد أن تقوله يا ميشا، سأفصح لك عن فكرتي بعد ذلك.

- ما حاجتي إلى مزيد من الكلام؟ إن كل شيء واضح. معروف من زمان. إذا كان فيك أنت إنسان شهواني، فما بالك بإيفان، أخيك

من أبيك؟ إنه كارامازوف هو أيضاً. . . إن مشكلة آل كارامازوف جميعاً تكمن هنا: هم أناس شهوانيون، أناس طمّاعون، أناس بسطاء! إن أخاك إيفان يسلّي نفسه الآن بنشر مقالات لاهوتية من باب الهزل، خاضعاً في ذلك لحساب سخيف مجهول، وهو في حقيقته ملحد، وهو لا يخشى أن يعترف بهذه الحطة، أخوك الطيب إيفان! وعدا هذا يحاول أن يسلب أخاك ميتيا خطيبته، وسيظفر بذلك فيما يبدو. كيف؟ وزيادة على هذا يفعل ذلك بموافقة ميتيا نفسه، لأن ميتيا يتنازل له عن خطيبته، بغية أن يتحرر منها، وأن ينصرف إلى جروشكا بأقصى سرعة. وهذا كله، لاحظ ذلك إلى جانب نفسه النبيلة المبرأة من المنفعة! إن أمثال هؤلاء الرجال هم من أشد الناس خطراً! الشيطان وحده يعلم ماذا يجري في نفوسكم. إن أخاك نفسه يدرك حطته وصِغَرَ نفسه، وهو نفسه يندفع إليها! اسمع أيضاً: إن أباك، العجوز الصغير، قد وقف الآن يعترض طريق ميتيا. لقد أفقدته جروشنكا هذه صوابه، فمتى لمحها سال لعابه شبقاً. وبسببها وحدها إنما أثار منذ قليل تلك الجرسة في حجرة الشيخ، لأن ميوسوف قد سمح لنفسه بأن يصفها بأنها مخلوقة سيئة السلوك. إن أباك مجنون جنون قط بقطة. . . لقد استخدمها في الماضي بأجرٍ في شؤون حقيرة من شؤون الخمارات التي يديرها. فلما لاحظ ذات يوم أنها جميلة، اشتعل اشتعالَ نار في الهشيم على الفور، وهو منذ ذلك اليوم يكد ويجهد في ملاحقتها، ويحاصرها بعروضه، عروضه الخسيسة طبعاً. . . ولكن الأب سيصطدم على تلك الطريق بالابن. وأما جروشنكا فهي لمّا تعزم أمرها بعد، وإنما هي تمثل عليهما كليهما، وتتسلى بإلهاب نار غرامهما وتمحص أيهما أنفع لها وأجدى عليها. فأما الأب فإنها تستطيع أن تسحب منه مالاً ولكنه لن يتزوجها، وهي تعلم ذلك، حتى لقد يعود

إلى بخله بعد أن يكسب المعركة فيوصد دونها خزنته. وذلك هو السبب في أنها لا تهمل ميتيا ولا ترى أن عليها أن لا تحفل به، فإن كان ميتيا لا يملك مالاً فإنه قادر على أن يتزوجها، على أن يتزوجها تماماً! يدع خطيبته ذات الجمال الذي لا يضاهى، يدع كاترينا إيفانوفنا ذات المحتد النبيل، ابنة الكولونيل، ليصبح زوج جروشنكا التي كانت في الماضي محظية تاجر عجوز، فلاح فاسق، اسمه سامسونوف، هو عمدة المدينة. ذلك كله ظرف يمكن أن يؤدي حقاً إلى جريمة. وهذا بعينه هو ما ينتظره أخوك إيفان، وهو يجني من ذلك فائدة من كل ناحية من النواحي. يظفر بكاترينا إيفانوفنا التي يتوق إليها، ويظفر ببائنتها التي تبلغ ستين ألف روبل، وذلك أمر لا يستخف به رجل صغير معدم مثله. لاحظ أيضاً أنه لا يكون في هذا كله قد أساء إلى ميتيا، وإنما يكون قد أحسن إليه إحساناً يعتز به... إنني أعلم من مصدر مطلع أن ميتيا، وقد كان منذ أسبوع في إحدى الخمارات ثملاً يقضي وقته مع نساء غجريات، قد صرح بصوت عالٍ أنه غير جدير بخطيبته كاتنكا[62]، وأن أخاه إيفان هو الجدير بها حقاً. أما كاترينا إيفانوفنا نفسها فمن المؤكد أنها لن تصمد مدة طويلة أمام رجل مغوٍ مثل إيفان فيدوروفتش، حتى إنها منذ الآن مترددة بين الاثنين. إلا أنني لأتساءل ما الذي تجدونه أنتم جميعاً في إيفان هذا حتى تفتتنوا به هذا الافتتان، وحتى تكونوا أمامه في حالة تشبه أن تكون وجداً! صدقني إذا قلت لك إنه يسخر منكم ويضحك عليكم جميعاً.

سأله أليوشا بلهجة جافة وهو يقطب حاجبيه:

- من أين عرفت هذه الأشياء كلها؟ ولماذا تؤكدها هذا التأكيد القاطع؟

- ولماذا تسألني هذا السؤال بينما أنت تخاف جوابي؟ إنك تسلّم إذاً، في قرارة نفسك، بأنني على حق.

- أنت تحمل عداوة لإيفان! ليس إيفان بالرجل الذي يرضى أن يغريه بالمال.

- صحيح؟ طيب... وما قولك بجمال كاترينا إيفانوفنا؟ ليست المسألة مسألة مالٍ فحسب، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مغرٍ.

- إيفان يهدف إلى ما هو أسمى من ذلك لن يغتر بألوف الروبلات. إنه لا يسعى إلى المال والاطمئنان. ربما يتوق إلى الألم ويرنو إلى العذاب.

- ما هذا الحلم أيضاً؟ ألا إنهم جميعاً لمتشابهون، هؤلاء النبلاء!

- اسمع يا ميشا! إن نفس إيفان عاصفة، وإن عقله مهموم. إن فكراً عظيماً يقطن فيه ويعذّبه. هو من أولئك الذين لا يسعون إلى الملايين، وإنما يتطلعون إلى حل مشكلات فكرهم.

صاح راكيتين يقول مفصحاً عن كره أصبح لا يخفي نفسه:

- ترهات لفظية، سرقات أدبية! إنك لم تزد على أن حوّرت أقاويل شيخك. أما إيفان فقد ألقى عليكم لغزاً!

قال راكيتين ذلك بحقد غير مكتوم حتى تبدل تعبير وجهه، وتقبضت شفتاه، وتابع كلامه:

- ولكنه لغز سخيف! ما من شيء فيه إلا ويمكن حزره بسهولة. يكفي أن تفكر قليلاً حتى تفهم كل شيء. إن مقالته مضحكة باطلة! أما النظريات التي عرضها منذ قليل فهي غبية بليدة! «لا وجود للفضيلة ما دام لا وجود للخلود، ويعني ذلك أن كل شيء مباح». (وقد صاح أخوك ميتنكا عندئذٍ يقول: «إنني سأحفظ هذا الكلام»، هل تتذكر؟) هذه نظرية تغري أناساً أوغاداً. مالي أصبح فظاً فأنطق بهاجر القول، هذه بلاهة! لا... ليسوا أناساً أوغاداً، بل مثقفين أدعياء يحملون في أنفسهم «أفكاراً عميقة عويصة»! ألا إنه لمتبجّح!

إن جوهر تفكيره هو ما يلي: «من جهة أولى يستحيل عدم الإنكار، ومن جهة أخرى يستحيل عدم الاعتراف!» ليست نظريته كلها، إلا سفاهة! إن الإنسانية ستجد في نفسها القدرة على أن تحيا للفضيلة، سواء آمنت بخلود الروح أم لم تؤمن! لسوف تجدها في استلهام لمعاني الحرية والمساواة والأخوة...

لقد أصبح راكيتين عاجزاً عن كبح جماح نفسه، فالتهب حماسة. وها هو ذا يثوب إلى رشده كأنه تذكر فجأة شيئاً ما.

قال وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة متكلفة أكثر من الابتسامة السابقة:

- كفانا كلاماً في هذا الموضوع! لماذا تضحك؟ أتحسبني وضيعاً؟

- لا... ليس يخطر ببالي أن أحسبك وضيعاً. أنت إنسان ذكي... ولكن دع عنك هذا... فقد ضحكت بغير سبب. أنا أفهم حق الفهم أن من الممكن أن تندفع هذا الاندفاع يا ميشا. لقد أدركت من اللّهجة الجامحة والنبرة العنيفة في أقوالك أنك أنت أيضاً لست تشعر نحو كاترينا إيفانوفنا بعدم الاكتراث. وقد راودني هذا الظن منذ زمن طويلٍ أيها الأخ. فذلك هو السبب في أنك تكره إيفان. هل تغار منه عليها؟

- لعلني أغار منه على بائنتها أيضاً؟ هه؟ أكمل كلامك يا أخي.

- لا... لن أتكلم عن المال... لن أهينك.

- أصدق قولك ما دمت قد قلته. ولكن فليأخذكم الشيطان، أنتم جميعاً وأخاك إيفان... ألا يمكنكم أن تفهموا إذن أن في وسع المرء أن يكرهه بصرف النظر عن كاترينا إيفانوفنا؟ هلاّ قلت لي لماذا يجب علي أن أحبه؟ لقد قال عني سوءاً منذ أيام، أفلا يكون من

حقي والحالة هذه أن أقول فيه سوءاً أنا أيضاً؟

- لم أسمعه يتحدث عنك يوماً، لا بخير ولا شر. . . إنه لا يهتم بك.

- أما أنا فقد قالوا لي إنه، منذ ثلاثة أيام، قد قال عني، في منزل كاترينا إيفانوفنا، كلاماً أهون منه الشنق. إنه يجهل من أنا، إنه يجهل خادمك المطيع! أما من منا يغار من الآخر، فهذا سؤال في رأي فيه! لقد تفضل فقال عني إنني إن لم أعتزم في مستقبل قريب جداً أن أصبح أرشمندريت ولم أقرر أن أترهب، فسأسافر حتماً إلى بطرسبرج، فأعمل هنالك في مجلة كبرى، كناقد طبعاً. . . وأبقى محرراً حوالى عشر سنين، ثم أصبح بعد ذلك صاحب المجلة، وأوجّه المجلة في اتجاه آخر، فأجعلها مجلة ليبرالية ذات ميول إلحادية مع صبغة اشتراكية، وحتى مع نوع من بريق الاشتراكية مراعياً رغم ذلك قواعد الحكمة والحذر. . . معنى هذا أنني سألعب على الحبلين، وسأخدع الناس! وبعد ذلك، حين أشارف على نهاية حياتي الصحفية، أكون قد جمعت في رأي أخيك رأسمالاً ضخماً رغم الصبغة الاشتراكية، فأستثمر رأس المال هذا بمعاونة يهودي صغير ما، إلى أن أبني عمارة فخمة في بطرسبرج، فأجعل طابقها الأرضي مقراً لتحرير المجلة، وأؤجر باقي العمارة شققاً. حتى لقد حدد أخوك المكان الذي سأبني فيه العمارة فقال إنني سأبنيها قرب جسر كاميني الذي سيقام فيما يقال عل نهر نيفا في بطرسبرج(63) بين حي ليتايني وحي فيبورج. . .

- ولكن هذا بعينه هو ما سيحدث يا ميشا نقطةً نقطة في أغلب الظن!

كذلك هتف أليوشا يقول وقد أخذ يضحك ضحكاً فرحاً لم يستطع أن يمسك عنه.

- أنت أيضاً أصبحت ساخراً يا ألكسي فيدوروفتش.

- لا . . . لا . . تلك مزحة . . . سامحني! وإنما كنت أفكر في شيء آخر تماماً. ولكن قل لي: من قصَّ عليك هذه التفاصيل، ومن أين جئت بها؟ إنك لم تكن حاضراً عند كاترينا إيفانوفنا فيما أتخيل، حين دار الحديث عنك!

- لم أكن حاضراً هناك، ولكن دمتري فيدوروفتش كان حاضراً. ومنه إنما سمعت هذا الكلام بأذنيَّ. أو قل إن شئت إنه لم يذكره لي أنا، ولكنني سمعته على غير إرادة مني طبعاً، لأنني كنت في غرفة نوم جروشنكا، ولم أكن أستطيع الخروج من الغرفة، لأن دمتري فيدوروفتش كان جالساً في الغرفة المجاورة.

- صحيح . . . لقد نسيت إنها قريبتك . . . أليس كذلك؟

- قريبتي؟ جروشنكا قريبتي؟ أتُراك جُننت؟ أيكون عقلك مختلاً؟

كذلك صاح راكيتين وقد احمر احمراراً شديداً.

- لماذا؟ ألستما قريبين؟ لقد سمعت أنكما قريبان. . .

- سمعت؟ أين سمعت هذا؟ إنكم معشر السادة كارامازوف، تصطنعون أوضاع من ينتمي إلى الطبقة النبيلة العريقة، على حين أن أباك كان مهرجاً على موائد الأغنياء، وهؤلاء كانوا يشرفونه أحياناً بوجبة يأكلها في المطبخ! أنا أعلم! أنني مجرد ابن قس، وهذا يجعلني في نظركم، أنتم النبلاء، إنساناً لا قيمة له، ولكن هل ذلك سبب كافٍ لتهينني بهذه الخفة وهذا الطيش إهانة لا داعي إليها؟ إن لي كرامتي وشرفي أنا أيضاً يا ألكسي فيدوروفتش! أنا لا يمكن أن أكون قريب جروشنكا، البنت المبذولة، فاعلم هذا!

كان راكيتين غاضباً مهتاجاً.

- معذرة . . . سامحني . . . أرجوك! لم يكن في وسعي أن أعرف هذا. ثم لماذا تصفها بأنها مبذولة؟ ألعلها . . . واحدة من تلك النساء؟

كذلك سأله أليوشا وهو يحمر على حين فجأة. ثم أردف يقول:
- أعود فأقول لك إنني قد ذُكر لي إنها قريبتك. وأنت تراها أحياناً كثيرة، وقد أكدت لي بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقات حب... فهل كان يمكنني أن أتصور أنك تحتقرها إلى هذه الدرجة من الاحتقار؟ وهل هي تستحق هذا الاحتقار حقاً؟
- قد يكون ثمة أسباب تدعوني إلى التردد إليها. لن أقول لك أكثر من ذلك. أما القرابة مع جروشنكا فإن أخاك، أو ربما أباك، هو الذي سيفرض عليك هذه القرابة، يفرضها عليك أنت لا عليَّ أنا... ها نحن وصلنا الآن. الأفضل أن تمضي رأساً إلى المطبخ. آه.. ولكن ما الذي يحدث؟ أنكون قد تأخرنا إلى هذا الحد من التأخر؟ لا يمكن أن يكونوا قد فرغوا من تناول الغداء مع ذلك! اللّهم إلا أن يكون الأخوان كارامازوف قد دبرا «مقلباً» كما عُهد فيهم! أكيد... هذا أبوك يبتعد، ووراءه إيفان فيدوروفتش. إنهما يهربان من عند الأب كبير الرهبان. وهذا هو الأب أسيدور على درجات المدخل يصيح لهما بكلام. إن أباك يصيح أيضاً، ملوِّحاً بيديه. إنه يقذف شتائم، فيما يبدو... انظر! هذا ميوسوف قد خرج راكباً عربته. هل تراه؟ وهذا ماكسيموف الإقطاعي يركض في تلك الجهة! ألا إنها لفضيحة حقاً! إذاً لم يتم الغداء... أتراهم ضربوا كبير الرهبان؟ اللّهم إلا أن يكونوا هم الذين ضُربوا! ما أجدرهم بذلك، وددت لو أرى ذلك!

لم يكن تعجّب راكيتين في غير محله. لقد وقعت فضيحة فعلاً.. لم تكن في الحسبان... فضيحة لم يُسمع بمثلها من قبل... وقعت بمجرد «وحي وإلهام».

– 8 –

فضيحة

حين وصل ميوسوف وإيفان فيدوروفتش إلى عند رئيس الدير، تغيرت حالة بيتر ألكسندروفتش النفسية تغيراً سريعاً، بتأثير طبيعته المهذبة المرهفة: لقد شعر فجأة بالخجل من حنقه. أحس في قرارة نفسه أنه كان عليه أن يحتقر ذلك الرجل السافل فيدور بافلوفتش مزيداً من الاحتقار، فما يفقد هدوءه في صومعة الشيخ بسببه، إلى حيث يفلت منه زمام سيطرته على نفسه. قال لنفسه وهو يصعد درجات المدخل إلى مسكن رئيس الدير: «مهما يكن من أمر، فإن الرهبان لا يتحملون تبعة شيء مما حدث، فما ينبغي أن أؤاخذهم.. وما داموا هم أيضاً أناساً محترمين (أحسب أن هذا الأب نيقولاي، رئيس الدير، يرجع إلى أصل نبيل هو أيضاً)، فلماذا لا أكون في معاملتهم لطيفاً رقيقاً مهذباً؟.. لن أتهجم على آرائهم، بل سأتظاهر بتأييدها، فأكسب مودتهم، وسأبرهن لهم أخيراً على أنني لا شيء يجمعني بهذا الرجل القاسي الغليظ، هذا المهرج، هذا التافه، وأنني في هذه المغامرة كلها ضحية مثلهم جميعاً...».

أما حقوق قطع الأشجار في الغابة، وحقوق الصيد في النهر (وكان ميوسوف لا يعلم على وجه الدقة ما هو الجزء الذي كان يقوم عليه الخلاف من أراضيه)، فقد قرر أن يتنازل لهم عنها تنازلاً كاملاً

نهائياً، وأن يعلن هذا التنازل في ذلك اليوم نفسه، لا سيما وأن قيمة ذلك كله زهيدة، وأن يضع حداً لكل الدعوى القديمة التي أقامها على الدير.

وقد تعززت نياته الطيبة هذه في نفسه مزيداً من التعزز حين دخلوا غرفة طعام رئيس الدير. والحق أن الغرفة لم تكن غرفة طعام، ذلك أن مسكن رئيس الدير كان لا يتجاوز غرفتين. ولئن كانت هاتان الغرفتان أوسع مساحة وأوفر راحة من غرف الشيخ، فإن الأثاث فيهما بسيط غاية البساطة أيضاً: هو أثاث من خشب الأكاجو منجَّد بالجلد من الطراز القديم البالي الذي كان رائجاً في العقود الأولى من هذا القرن. حتى إن الأرض لم تكن مطلية. ولكن كل شيء كان في مقابل ذلك يسطع نظافة، وكانت حافات النوافذ تزدان بأزهار ثمينة. على أن الشيء الذي كان يجذب الانتباه ويفتن البصر في تلك اللحظة خاصة إنما هو تلك المائدة المرتبة الحافلة، رغم أنها ليست على جانب عظيم من الترف: غطاء نظيف، ألوان لامعة، ثلاثة أصناف من الخبز أُحسن خَبْزُها، زجاجتان من نبيذ، قمقمان مليئان بشراب العسل اللذيذ الذي صُنع في الدير، إبريق كبير من زجاج فيه شراب الكفاس الذي يُصنع بالدير واشتهر كثيراً في المنطقة كلها. ولم يكن على المائدة فودكا. وقد روى راكيتين فيما بعد أن وجبة الطعام في ذلك اليوم كانت تضم خمسة أطباق: حساء سمك مع فطائر سمك، فسمكاً مشوياً بطريقة خاصة يقال إنها رائعة، ثم كستليتات من سمك الحفش، فجيلاتي، فثماراً مسلوقة بالسكر، فبالوظة فاكهة[64]. كان راكيتين قد اطلع اطلاعاً دقيقاً على كل شيء. إنه لم يستطع أن يقاوم فضوله، فتسلل حتى إلى مطبخ رئيس الدير، وكان يدخله من حين إلى حين؛ ولقد كانت له علاقات في كل مكان على كل حال، وكان

يعرف كيف يكلم الناس. إن له نفساً قلقة حسوداً. وكان لرضاه العظيم عن كفاءاته الكبرى ومقدراته العظيمة، يميل إلى تضخيمها والمبالغة فيها. وكان واثقاً من أنه سيصبح في المستقبل شخصاً مرموقاً، وأنه سيمثل في الحياة دوراً كبيراً. ولكن أليوشا الذي كان يحبه كثيراً كان يؤلمه أن يلاحظ أن صاحبه يفتقر إلى الاستقامة والشرف، حتى إنه لا يظهر عليه أن يخطر بباله لحظةً أنه كذلك بل بالعكس، فإن راكيتين، لثقته بأنه لا يسرق مالاً من دروج الناس، كان يعدُّ نفسه مثال الكمال الأخلاقي. وما كان لأليوشا، ولا كان لأحد في العالم كله، أن يحمله على تغيير رأيه في هذه النقطة.
ولأن راكيتين شخصية ثانوية فإنه لم يكن من الممكن أن يدعى إلى وليمة الغداء هذه، غير أن الأبوين يوسف وبائيسي قد دُعيا إليها، كما دعي كذلك راهب آخر. ففي اللحظة التي وصل فيها بيتر ألكسندروفتش بصحبة كالجانوف وإيفان فيدوروفتش كان هؤلاء ينتظرون في غرفة طعام رئيس الدير، وكان المالك ماكسيموف جالساً كذلك في أحد الأركان. استقبل الأب رئيس الدير ضيوفه متقدماً إليهم حتى وسط الغرفة. إنه شيخ فارع القامة نحيل الجسم، ما يزال قوي البنية، بشيب كثير في شعره الأسود، له وجه طويل صارم وقور. حيًّا ضيوفه صامتاً، ولكن هؤلاء اقتربوا في هذه المرة يتلقون مباركته، حتى أن ميوسوف جازف فأراد أن يقبّل يده، غير أن الرئيس سحب يده في الوقت المناسب... أما إيفان فيدوروفتش وكالجانوف فإنهما أقبلا بغير تردد، وتلقيا مباركة رئيس الدير على نحو طبيعي بل وشعبي، وطبعا على يده قبلةً كبيرة سُمع صوتها.

بدأ بيتر ألكسندروفتش الكلام وهو يبتسم ابتسامته الودودة اللطيفة، ولكن بلهجة في جد ووقار واحترام:

- نعتذر إلى سيادتك أصدق الاعتذار عن أننا جئنا إلى هنا دون أن يصحبنا فيدور بافلوفتش الذي تفضلت بدعوته أيضاً. لقد اضطر أن يعدل عن حضور الوليمة، ولهذا أسبابه لقد سمح لنفسه، في صومعة الأب المبجّل زوسيما، بأن يندفع في مناقشات عائلية مؤسفة مع ابنه، فقال كلاماً في غير محله... أي بدرت منه أقوال غير لائقة أبداً.. وهذا أمر أظن أن سيادتك قد علمت به (قال هذا وهو ينظر إلى الراهبين الكاهنين). وقد أدرك خطأه، وشعر بأسف شديد، وأحس بالخجل، ولم يستطع أن يغالب خَجَله فرجانا أنا وابنه إيفان فَيدوروفتش أن نعرب لك عن عميق ألمه وشديد أسفه وصادق ندمه... وهو يأمل أن يصلح خطأه في المستقبل، ويرجوك أن تتكرم اليوم فتهب له مباركتك صافحاً عنه ناسياً ما بدر منه...

صمت ميوسوف. فبعد أن أنهى خطابه المسهب قد بلغ من شعوره بالرضى عن نفسه أنه لم يبق فيه أي أثر للحنق الذي ألَمَّ به من قبل. أصبح يحب الإنسانية من جديد، حباً صادقاً لا تردد فيه. أصغى رئيس الدير إلى كلامه بوقار ورصانة، ثم أحنى رأسه قليلاً، وقال يجيبه:

- يؤسفني غياب رفيقكم كل الأسف. فلعله كان يستعلم محبتنا أثناء هذه المأدبة، ولعلنا كنا سنشعر نحوه بمحبة. تفضلوا فاتخذوا أماكنكم إلى المائدة أيها السادة.

ووقف أمام الأيقونة، وأخذ يتلو صلواته بصوت عال، فخفض جميع الضيوف رؤوسهم باحترام، وتقدم المالك ماكسيموف إلى أمام ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى معبراً عن تقوى خاصة.

وفي تلك اللحظة بعينها إنما أخرج فيدور بافلوفتش من جعبته آخر مكيدة. يجب أن نذكر أنه قد كان في نيته حقاً أن ينصرف. كان قد

أدرك فعلاً أن من المستحيل أن يحضر مأدبة رئيس الدير بعد سلوكه الشائن في صومعة الشيخ، حتى لكأن شيئاً لم يكن، لا لأنه كان يشعر بخجل خاص من نفسه، أو لأنه كان يلوم نفسه، فربما كان عكس هذا هو الأصح! ومع ذلك فقد شعر أن حضور المأدبة سيكون خالياً من الاحتشام تماماً. ولكن ما كادت عربته المترجحة تصل إلى أمام درجات مدخل الفندق، حتى أحسَّ بتردد مفاجئ، فتوقف في اللحظة التي كان يهم أن يركب فيها العربة. تذكر أقواله نفسها التي نطق بها عند الشيخ: «إنني أشعر كلما دخلت على بعض الناس أنني أسوأ من الآخرين، وأن الجميع يعدونني مهرِّجاً! فأقول لنفسي عندئذٍ: فليكن! سأقوم بدور المهرج، لأنكم جميعاً أكثر مني غباوة، وأخبث سريرة». تمنى في تلك اللحظة لو ينتقم من صحبه بحقارته. وتذكر فجأة بهذا الصدد، أنه سئل مرةً في الماضي عن السبب الذي يجعله يكره فلاناً من الناس، فأجاب في اندفاعة من اندفاعات تهريجه الوقح قائلاً: «لماذا؟ سأقول لكم. صحيح أنه لم يسئ إليّ أية إساءة. ولكنني ارتكبت أنا في حقه حقارة سافرة، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أكرهه بسبب تلك الدناءة التي ارتكبتها في حقه». فلما راودت هذه الذكرى فيدور بافلوفتش ضحك ضحكة خبيثة صامتة، وأخذ يفكر بضع لحظات، والتمعت عيناه، وارتعشت شفتاه، ثم ما لبث أن اتخذ قراره فجأة: «سوف أتم ما بدأته». إن الشعور الخفي الذي خضع له فيدور بافلوفتش في ذلك الظرف يمكن التعبير عنه على النحو التالي: «لقد فاتني أوان رد الاعتبار إلى نفسي. فالأَوْلى ما دام الأمر كذلك أن أمضي إلى النهاية بكل صفاقة، وأن أهينهم مزيداً من الإهانة، وأن أريهم على الأقل أنني لا أخشاهم، ولا أحفل بهم!» وها هو ذا يأمر الحوذي بأن ينتظر،

ويعود أدراجه إلى الدير مستحثاً خطاه ليمضي إلى عند كبير الرهبان رأساً. لم تكن في رأسه أية خطة واضحة معينة، ولكنه يعلم أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه، وأن أي أمر تافه يمكن أن يدفعه فجأة إلى الحدود القصوى من الدناءة دون أن يتعرض مع ذلك للمضي إلى أبعد من ذلك، ودون أن ينجرف إلى ارتكاب جريمة أو إلى اقتراف أي عمل يمكن أن يودي به إلى المثول أمام المحاكم. إنه يعرف دائماً كيف يحجم في هذه الحال، بل كثيراً ما كانت تدهشه سيطرته على نفسه في هكذا ظروف. ولقد وصل إلى غرفة طعام رئيس الدير في اللحظة التي كانت فيها الصلاة قد انتهت فاقترب الضيوف من المائدة. وقف ساكناً على عتبة الغرفة، وطاف ببصره على الحضور، ثم أطلق ضحكة طويلة وقحة خبيثة بينما هو يتفرس في جميع الأشخاص الحاضرين وقد ظهرت في وجهه معاني التحدي والاستفزاز. وصاح يقول بصوت دوَّى في الغرفة كلها:

- ها... لقد ظنوا أنني انصرفت... فها أنذا أعود!

اتجهت إليه جميع الأنظار خلال لحظة في جو من صمت مطبق، ثم أدرك الجميع فجأة أنه سيحدث شيء كريه طائش، وأن فضيحة ستقع حتماً. ولم يلبث بيتر ألكسندروفتش أن انتقل من حالة المزاج المشرق والخلق الرضي إلى حالة غضب شديد وحنق مسعور. إن الغيظ الذي كان قد هدأ في نفسه وانطفأ في قلبه قد اشتعل في مثل لمح البصر سرعة، وانطلق يتدفق تدفقاً قوياً. صاح يقول:

- لا.... لن أطيق ذلك! إنني لا استطيع الصبر على هذا إطلاقاً...بأي وجه من الوجوه وبأي حال من الأحوال!

ازدحم الدم في رأسه، وتعثرت كلماته واختلطت أقواله. ولكن الأمر لم يكن أمر فصاحة!... وها هو ذا يتناول قبعته.

قال فيدور بافلوفتش:

- ما الذي لا يستطيع أن يصبر عليه «بأي حال من الأحوال؟» أتأمرني بالدخول؟ أيها الأب المبجل أم تأمرني بالانصراف؟ أتقبلني ضيفاً مدعواً إلى مائدتك؟

فأجابه رئيس الدير:

- أهلاً وسهلاً، تفضل بكل سرور.

ثم أسرع يقول للحضور:

- أيها السادة، إنني أسمح لنفسي بأن أرجوكم من أعماق قلبي أن تنسوا خلافاتكم العابرة، وأن يلتئم شملكم حول هذه المائدة مصلِّين لله بعاطفة المحبة ووفاق الأخوة...

فأعول ميوسوف يقول وقد خرج عن طوره:

- لا.. لا.. هذا مستحيل!

فقال فيدور بافلوفتش:

- إذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة إلى بيتر ألكسندروفتش، فهو مستحيل بالنسبة إليّ أيضاً. لن أبقى أنا ما لم يبق هو. فعلى هذه النية إنما جئت. لن أترك بيتر ألكسندروفتش بعد الآن: فإذا انصرفت أنت يا بيتر ألكسندروفتش انصرفت أنا أيضاً، وإذا بقيت أنت بقيت أنا. ذلك هو وفاق الأخوة! لقد جرحته جرحاً عميقاً حين ذكرت وفاق الأخوة هذا أيها الأب الرئيس. إنه ينكر القرابة التي بيننا! أليس كذلك يا فون سون؟ ها هو فون سون حاضر. نهارك سعيد يا فون سون!

تمتم المالك ماكسيموف يسأل مذهولاً:

- أأنا الذي... تسميني بهذا الاسم؟

فقال فيدور بافلوفتش:

- طبعاً أنت! من عسى يسمى بهذا الاسم غيرك؟ ألعلك تحسب أن الأب الرئيس هو الذي يجب أن يسمى بهذا الاسم؟

قال ماكسيموف:

- ولكنني لست فون سون، وإنما أنا ماكسيموف.

- بل أنت فون سون! هل تعرف يا صاحب القداسة من هو فون سون؟ إنه بطل دعوى قضائية شهيرة. لقد قُتل في ماخور أحسب أن هذا هو الاسم الذي تطلقونه على تلك الأماكن قُتل... وجرِّد من كل ما كان معه، ثم وضع في صندوق دون مراعاة لتقدمه في السن، ثم سُمِّر الصندوق، ثم شُحن طرداً بسيطاً مرقماً من بطرسبرج إلى موسكو بعربة الشحن. وبينما كان الصندوق يسمَّر كانت الراقصات الداعرات[65] يغنين ويرقصن على أنغام السنطور، أعني على أنغام البيانو. إن فون سون ذاك هو الذي ترونه الآن أمامكم. لقد بُعث بعد موته. أليس هذا صحيحاً يا فون سون؟

- ما هذا الكلام؟ ماذا جرى؟

هذا ما هتفت به جماعة الرهبان الكهنة من كل جهة.

صاح بيتر ألكسندروفتش يقول متجهاً نحو كالجانوف:

- هيا بنا!

فتدخل فيدور بافلوفتش يقول بصوت حاد موعوع وهو يتقدم إلى الأمام خطوة أخرى:

- لا.. لا.. اسمحوا لي.. تحملوا أن أنهي كلامي أولاً! لقد ادُّعي أنني تصرفت تصرفاً خالياً من الاحتشام في صومعة الشيخ منذ قليل. لماذا؟ لأنني أتيت على ذكر الأسماك الصغيرة! إن بيتر ألكسندروفتش، قريبي المحترم، يؤثر أن يكون في الكلام من الرِّفعة أكثر مما فيه من الصدق أما أنا بالعكس، أقول: فلتذهب الرفعة إلى

الشيطان! أليس هذا صحيحاً يا فون سون؟ أيها الأب الرئيس المحترم! قد أكون مهرجاً، وإنني لأقدم نفسي مهرجاً، ولكنني فارس من فرسان الشرف، وأحب أن أفصح هنا عن رأي. نعم، أنا فارس من فرسان الشرف، على حين أن بيتر ألكسندروفتش هذا ليس إلا حزمةً من غرور جريح، ولا شيء غير هذا. لئن جئت إلى هذا الدير، فإنما على نية أن ألاحظ وأن أحكم. إن ابني ألكسي يحقق في هذا الدير خلاصه. وأنا أبوه. فمصيره يهمني، ومن واجبي أن أسهر عليه. لقد ظللت أصغي إلى ما كان يقال وأمثّل طوال الوقت وألاحظ، أما الآن فأحب أن أعرض عليكم الفصل الأخير من تمثيليتي! إنني أعرف كيف تجري الأمور عندنا. ما سقط لن ينهض. عندنا إن سقط شيء مرة فعليه ألا ينهض قروناً! ولكن لا... إنني أرغب أن أنهض! أيها الآباء المحترمون! إن آراءكم تثير في نفسي أعمق الاستياء! الاعتراف سرٌّ مقدس أشعر أنا نفسي تجاهه بتقوى شديدة، وعبادة خاشعة! ولكن الناس في تلك الصومعة يعترفون جاثين على ركبهم، متكلمين بصوت عالٍ. فهل الاعتراف بصوت عالٍ أمر جائز؟ إن آباء الكنيسة قد أمروا بأن يتم الاعتراف همساً في الأذن، وبهذا الشرط وحده إنما يبقى الاعتراف سراً مقدساً. تلك قاعدة قديمة محترمة. كيف تريدون مني مثلاً أن أروي بحضور جميع الناس أنني فعلت كيت وكيت.

- هل تفهمون؟ - كيت وكيت... قد لا يكون من الحشمة أحياناً أن يروي المرء أموراً بعينها. تلك فضيحة أيها الآباء المبجّلون! هذه الطريقة قد تؤدي بنا شيئاً بعد شيء إلى ملة الخلستيس[66]... أما ابني ألكسي فقد قررت أن أصطحبه إلى منزلي...

هناك ملاحظة يجب علينا ان نذكرها هنا. كان فيدور بافلوفتش قد

سمع في الماضي صدى ضعيفاً عن الخلافات الإكليركية، فهو يعرف على أي وتر يجب أن يضرب. إن وشايات خبيثة كانت قد انتشرت في الماضي، فوصلت حتى إلى الأسقفية (حدث هذا لا في ديرنا وحده بل حدث كذلك في أديرة أخرى دخلها نظام المشايخ). قيل فيما قيل إن الاحترام الذي يحاط به المشايخ فيه غلو كثير، وإنه لا داعي إليه، بل قيل أيضاً إنه يسيء إلى مهابة رؤساء الأديرة ويسيء إلى كرامتهم. وقيل خاصة إن المشايخ يسيئون استعمال سر الاعتراف وقيلت أيضاً أقاويل كثيرة من هذا النوع. كانت هذه الاتهامات سخيفة، ولذلك سقطت في وقتها من تلقاء نفسها عندنا، كما سقطت في كل مكان على كل حال. ولكن الشيطان الأحمق الذي ركب فيدور بافلوفتش وأخذ يهوي به متوتر الأعصاب إلى قاع الدناءة قد لقنه هذا الاتهام القديم الذي كان فيدور بافلوفتش لا يدرك منه كلمة واحدة على كل حال، حتى إنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام صياغة مفهومة، لا سيما وأن أحداً لم يكن قد جثا على ركبتيه أمام الشيخ في ذلك اليوم، ولا اعترف بصوت عالٍ، ومعنى هذا أن فيدور بافلوفتش لم ير بعينيه شيئاً وإنما هو يردد ما كان قد سمعه، متذكراً أقاويل قديمة. لكنه وقد أخرج هذه الحماقة لم يلبث أن شعر بأنه قال كلاماً سخيفاً فأراد عندئذٍ أن يبرهن للآخرين، وأن يبرهن لنفسه خاصة، أن ما قاله ليس فيه شيء من سخف ورغم أنه كان يدرك إدراكاً كاملاً أن كل كلمة أخرى يقولها إنما تفاقم بشاعة كلامه وتجعله يتردى في الطيش والحماقة مزيداً من التردي. فإنه لم يستطع أن يتوقف على المنحدر، بل أخذ يهوي إلى القاع منكّس الرأس.

صرخ بيتر ألكسندروفتش يقول:

- يا للحقارة!

فتدخل كبير الرهبان فجأة يقول:

- اسمح لي. جاء في كلام الأقدمين: «قد قيل عني سوء، وقد اتهمت بأشياء منكرة. فلما سمعت تلك الأقوال، قلت لنفسي: «إن المسيح هو الذي أرسل إليّ هذا الدواء لأشعر أنه يفرض عليّ هذه المحنة لأخلص نفسي من غرورها». لذلك يا ضيفنا العزيز نشكر لك كلامك أجزل الشكر!.

قال كبير الرهبان ذلك وحيّا فيدور بافلوفتش منحنياً له انحناءةً كبيرة.

- ته ته ته!... نفاق قديم وجمل مهترئة!.. معروفةٌ هذه الجمل وهذه الحركات! لا تخدعني هذه التحيات الرسمية! «قبلة على الشفتين وطعنة في القلب»[67] تماماً كما ورد في كتاب شيللر «قطاع الطرق»! إنني أكره الكذب أيها الآباء، وأحب الحقيقة! ولكن الحقيقة ليست في أكل الأسماك الصغيرة، سبق أن قلت لكم ذلك! هلاّ قلتم لي أيها الآباء لماذا تصومون؟ لماذا تنتظرون مكافأة في السماء على ما تحتملونه من حرمان؟ إلا أنني مستعد أنا أيضاً لأن أصوم راضياً في سبيل مكافأة من هذا النوع! دعك من هذا أيها الراهب المقدس، هيا مارس الفضيلة في الحياة وكن نافعاً للمجتمع، دون أن تلوذ بدير لتعيش على ما يقدمه غيرك وتنتظر مكافأة في الآخرة. لا شك أن هذا يكون أصعب وأشق... أنا أيضاً أجيد الكلام أيها الأب الرئيس.. قال ذلك ثم اقترب من المائدة وأضاف: - فلننظر ماذا أعدوا هنالك! يا سلام... خمر معتق، وشراب العسل اللذيذ الذي يباع في متجر الأخوة اليسايف[68]: فليس الأمر أمر أسماك صغيرة في هذه المرة، أليس كذلك أيها الآباء الطيبون؟ هيه... هيه... ما أروع هذه الزجاجات التي أخرجوها! ومن ذا الذي أمد الدير بهذه

الأشياء؟ من؟ الفلاح الروسي! الطيب الشهم الذي يعمل ويكد ويجهد، ثم يدفع إلى الدير بالكوبيكات التي جنتها يداه المتشققتان، مهملاً أسرته ناسياً حاجات الدولة! ألا إنكم لتمصون دم الشعب، أيها الآباء المبجلون!

قال الأب يوسف:

- عيب ما تقول.

أما الأب بائيسي فقد أصرّ على الصمت في عناد. وأسرع ميوسوف يخرج من الغرفة، وتبعه كالجانوف.

قال فيدور بافلوفتش:

- إنني أترككم أيها الآباء الطيبون، تماماً كما فعل بيتر ألكسندروفتش! ولن أجيء بعد اليوم إليكم، فلو تضرعتم إليّ جاثين على ركبكم ما عدت قط! لقد أهديت إليكم ألف روبل، فأيقظ هذا شهوتكم وأسال لعابكم، أليس كذلك؟ هأ هأ... لا جدوى من هذا... لن أعطيكم بعد الآن شيئاً.

ثم صاح وهو يضرب المائدة بقبضة يده، وقد عصفت به سورة عنف مقصود:

- لشبابي المنقضي وكل الإهانات التي قاسيتها إنما أنتقم الآن! إن هذا الدير الصغير قد لعب في حياتي دوراً! جعلني أسكب سيولاً من دموع مرة! أهجمَ عليّ زوجتي الكليوكوشا. أثقلتموني باللعنات في جميع مجالسكم السبعة[69]، وأسأتم إلى سمعتي في المنطقة كلها! كفى كفى أيها الآباء! إننا نعيش في عصر ليبرالي، إننا نعيش في عصر سفن البخار وسكك الحديد. لن أعطيكم لا ألف روبل ولا مائة روبل، ولا مائة كوبيك... لن أعطيكم شيئاً البتة!

ملاحظة أخرى: إن الدير لم يحتل في حياته مكاناً في يوم من

الأيام، ولا جعله يسكب دموعاً مرة. ولكن الرجل قد بلغ من اندفاعه في التمثيل أنه أوشك أن يصدّق هو نفسه، خلال لحظة قصيرة، الألم الذي كان يتظاهر به، حتى لقد كاد يبكي إشفاقاً على نفسه، ومع ذلك أحس في تلك اللحظة بالذات أنه قد آن له أن يعود أدراجه.

أما كبير الرهبان فإنه لم يردَّ على أكاذيبه الخبيثة التي نطق بها إلا بأن انحنى برأسه انحناءة خفيفة، وقال بصوت رصين:

- لقد قيل أيضاً: «افرح للإهانة الظالمة التي تُلحق بك على رؤوس الأشهاد، دون أن تضطرب، ودون أن تغضب ممن أهانك». وذلك ما سنفعله.

- ته ته ته... سفاسف وترهات! لكم ما تشاؤون أيها الآباء الطيبون أما أنا فذاهب. وسآخذ ابني ألكسي من هذا المكان إلى الأبد، بحكم ما لي عليه من سلطة الأب على ابنه. يا إيفان فيدوروفتش يا بني المطيع، هلاّ تحملت أن آمرك بأن تتبعني! وأنت يا فون سون، ليس لك ما تفعله هنا أنت أيضاً! تعال إليّ بالمدينة في غير إبطاء! إن المرء ليتسلى هناك ويروّح عن نفسه. وليست المسافة بعيدة. هي فرسخ صغير. وسأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل بدلاً من أكل الصيام هنا. سوف تتغذّى عندي. وسيكون على المائدة كونياك وخمور لذيذة. عندي خمرة رائعة من فاكهة التوت. هيه! فون سون! لا تفوّت فرصة سعادتك!

قال ذلك وخرج وهو يصرخ محركاً يديه. وفي تلك اللحظة إنما لمحه راكيتين منصرفاً، ودلَّ عليه أليوشا.

فلما رأى الأب ابنه صاح يقول له من بعيد:

- ألكسي! عد إلى البيت في هذا اليوم نفسه، عد نهائياً... خذ

وسادتك وفراشك، ولتغب عن هذا المكان إلى الأبد!

توقف أليوشا مذهولاً، ينظر إلى المشهد بانتباه أخرس. كان فيدور بافلوفتش قد اتخذ مكانه في عربته، وكان إيفان فيدوروفتش يتهيأ لأن يتبعه مظلم الوجه صامتاً، حتى دون أن يلتفت إلى وراء ليودّع أليوشا. وفي تلك اللحظة إنما وقع مشهد جديد لا يتصوره العقل، مشهد تهريجي عجيب، كان لا بد أن يختتم حوادث ذلك النهار. إن المالك ماكسيموف قد ظهر فجأة أمام مصعد العربة. كان يلهث لهاثاً شديداً بعد أن ركض ركضاً سريعاً حتى لا يصل متأخراً. كان راكيتين وأليوشا قد رأياه يندفع راكضاً. وقد بلغ من شدة التعجل أنه وضع قدمه على مصعد العربة بينما كانت قدم إيفان فيدوروفتش اليسرى ما تزال عليها، وتمسك بهيكل العربة وأخذ يبذل جهوداً كبيرة ليثب إلى داخلها.

صاح يقول بصوت نحيل وهو يقفز إلى العربة ويطلق ضحكة صغيرة فرحة، وقد أشرق وجهه وبدا عليه أنه مستعد لكل شيء:

- خذوني معكم!

فهتف فيدور بافلوفتش يقول بلهجة المنتصر:

- ألم أقل إنه فون سون؟ إنه فون سون الأصلي رجع من عند الأموات! ماذا فعلت حتى خرجت من هناك؟ بأي واجب من واجبات الأدب أخللت، وما الذي دعاك إلى العدول عن غدائهم؟ لا بد أن لك جبهة من تلك الجباه الفولاذية! إن لي جبهة أنا أيضاً، ولكن لا يسعني أيها الأخ إلا أن أعجب بجبهتك! هيا اقفز، اقفز بسرعة! دع له أن يمر يا فانيا[70]... سيكون هذا مضحكاً. سوف يجد مكاناً بين أقدامنا. أليس يريحك أن تقعد بين أقدامنا يا فون سون؟ أم الأفضل أن يجلس على المقعد بجانب الحوذي؟ اقفز إلى

المقعد بجانب الحوذي يا فون سون!. . .

ولكن إيفان فيدوروفتش الذي كان قد استقر في العربة لم يلبث أن أرسل إلى صدر ماكسيموف ضربة قوية دون أن ينطق بكلمة واحدة، فإذا بماكسيموف يطير مترين. وكانت معجزة أنه لم يسقط.

وصرخ إيفان فيدوروفتش يأمر الحوذي بصوت غاضب:

- تحرك!

فسأله فيدور بافلوفتش:

- ما بك؟ لماذا ضربته؟

ولكن العربة كانت قد سارت. ولم يجب إيفان فيدوروفتش.

أردف فيدور بافلوفتش يقول بعد دقيقتين من صمت، وهو يختلس النظر إلى ابنه:

- عجيب أمرك! أنت الذي تخيلت هذه الزيارة للدير، ودفعتني إليها، وشجعتني عليها، فما لي أراك الآن غاضباً؟

فقاطعه إيفان فيدوروفتش يقول بصوت قاس:

- كفّ عن قول هذه السخافات. أَوْلى بك الآن أن ترتاح.

وصمت فيدور بافلوفتش من جديد، دقيقتين، ثم قال في تفخم:

- قليل من الكونياك لن يضر الآن. . .

ولكن إيفان فيدوروفتش لم يستجب.

قال الأب:

- ستشرب معي قليلاً من الكونياك عندما نصل.

وظل إيفان فيدوروفتش صامتاً.

فأردف فيدور بافلوفتش يقول بعد أن ظل صامتاً دقيقتين لا أكثر:

- أما أليوشا فسأخزجه من الدير مع ذلك، رغم أن إخراجه قد لا يرضيك كثيراً أيها الابن المطيع جداً، كارل فون مور.

ولم يزد جواب إيفان فيدوروفتش على أن هزَّ كتفيه احتقاراً. ثم أشاح بوجهه، وأخذ يتأمل الطريق. ولم يتبادلا بعد ذلك كلمة واحدة إلى أن بلغا المنزل.



الباب الثالث

الشهوانيون

- 1 -

في الخدمة

إن منزل فيدور بافلوفتش، رغم أنه بعيد جداً عن وسط المدينة، فلم يكن مع ذلك في أقصى الضاحية. هو مبنى أميل إلى القدم، لكنه حسن المظهر: طابق أرضي واحد، ذو عليّة، رمادي اللون، يغطيه سقف من صفيح أحمر قد أُحسن بناؤه، يضم خزائن مظلمة متعددة، وأركاناً منعزلة كثيرة، وسلالم صغيرة تباغتك هنا وهناك؛ الفئران فيه كثيرة، ولكن فيدور بافلوفتش لا يزعجه وجودها، حتى لقد كان يقول: «إن المرء لا يحس بالعزلة كثيراً في المساء، إذا كان هنالك فئران». ذلك أنه تعوَّد عند هبوط المساء أن يصرف خدمه الذين يسكنون في مبنى ملحق، فيحبس نفسه بالمنزل طيلة الليل. وكان ذلك المبنى الملحق، وهو مبنى واسع متين، يقع في الفناء، وهناك إنما كان فيدور بافلوفتش قد أقام مطبخه. صحيح أن المبنى الرئيسي كان يضم مطبخاً، غير أن فيدور بافلوفتش كان يمقت روائح الطبخ، فكان يؤتى إليه بطعامه من المبنى الملحق عبر الفناء شتاءً وصيفاً على السواء. ويمكن أن نقول على وجه العموم إن هذا المنزل قد تصوره بانيه على أساس أن يضم أسرة كبيرة العدد، وكان يمكن أن يسكنه عدد من السادة والخدم يساوي خمسة أضعاف العدد الذي يقيم فيه منهم الآن. ومع ذلك لم يكن يقطنه في الآونة التي جرت

فيها حوادث هذه القصة إلا فيدور بافلوفتش وإيفان فيدوروفتش، ولم يكن الخدم الذين يعيشون في المبنى الملحق إلا ثلاثة: جريجوري العجوز، وامرأته العجوز مارفا، والخادم سمردياكوف، وهو رجل ما يزال شاباً. يحسن أن نذكر هنا بعض التفاصيل عن هؤلاء الخدم الثلاثة. الحق أنه ليس هناك أشياء كثيرة نضيفها إلى ما سبق أن قلناه عن جريجوري فاسيلفتش كوتوزوف الذي أسلفنا الكلام عليه قبل الآن بما فيه الكفاية. إنه رجل صلب العزيمة متشدد الرأي، يمضي إلى هدفه في عناد متى بدا له هذا الهدف حقيقة راسخة لا سبيل إلى جحودها (وذلك لأسباب كثيراً ما تدهشك قلة المنطق فيها). وفي وسعنا أن نقول عنه إنه رجل شريف نزيه. لقد ألحّت عليه امرأته مارفا اجناتفنا، رغم أنها كانت طوال حياتها خاضعة لإرادة زوجها خضوعاً أعمى، ألحَّت عليه إلحاحاً قوياً ولا سيما غداة تحرير الأقنان، أن يترك فيدور بافلوفتش فيسافر إلى موسكو فيفتتح هناك تجارة صغيرة (فلقد كانا يملكان شيئاً من المال ادخراه). ولكن جريجوري أيقن عندئذٍ يقيناً نهائياً أن امرأته تقوده إلى الخطأ والضلال، لأن «كل امرأة ناقصة العقل»، وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يليق بهما أن يتركا مولاهما القديم، مهما تكن عيوبه «لأن ذلك هو الواجب الذي يقع على عاتقهما الآن». وسأل الرجل زوجته مارفا قائلاً:

- هل تفهمين على الأقل ما يعني الواجب؟ وأن هناك واجباً لا يجوز التخلي عنه.

فأجابته مارفا تقول جازمة:

- أنا أعرف ما معنى الواجب، ولكنني لا أفهم أبداً ما هو الواجب الذي يلزمنا بالبقاء هنا.

فقال لها:

- سيان أن تفهمي وأن لا تفهمي. عليك بعد الآن أن تسكتي!

وكذلك كان. بقي جريجوري ومارفا. ولقد حدَّد لهما فيدور بافلوفتش أجراً ليس بالأجر المرتفع طبعاً، ولكنه كان يدفع لهما هذا الأجر في مواعيده بغير تأخير. وكان جريجوري يشعر من جهة أخرى أن له على مولاه نفوذاً لا يُنكر. كان جريجوري يحس ذلك، وكان على حق في إحساسه هذا: إن فيدور بافلوفتش المهرِّج، الماكر،العنيد، الذي يعرف كيف يكون صلباً في «بعض شؤون الحياة» على حد تعبيره، كان ضعيفاً إلى أقصى درجات الضعف في «شؤون أخرى من شؤون الحياة». وكان يعرف أنواع ضعفه، وكان لمعرفته بها محاصراً بمخاوف شتى. كان يرى أن على المرء في بعض شؤون الحياة أن تكون أذناه دائماً بالمرصاد، وأن يستطيع الاعتماد على شخص موثوق تصبح الحياة بدونه صعبة جداً. وكان جريجوري شخصاً موثوقاً حقاً. حتى لقد اتفق لفيدور بافلوفتش مراراً (أثناء حياته) أن أوشك أن يُضرب، وأن يُضرب ضرباً مبرحاً يلحق به أذى شديداً، ولكن جريجوري كان ينقذه دائماً من المأزق، مع إزجاء النصح له بخطاب طويل وموعظة مستفيضة بعد كل مغامرة من تلك المغامرات. على أن الخوف من الضرب ما كان له أن يكفي وحده لإفقاد فيدور بافلوفتش شجاعته في بعض الأحيان. إن هناك ظروفاً أخطر من ذلك كثيراً، حالات دقيقة معقدة حين كان فيدور بافلوفتش لا يستطيع هو نفسه تفسير حاجته المفاجئة القوية الصارمة إلى الإحساس بأن إلى جانبه شخصاً قريباً منه مخلصاً له. تلك حالات تشبه أن تكون مرضاً: إنه وهو الفاجر إلى أقصى حدود الفجور، والقاسي في شهوانيته قسوة حشرة رهيبة، كان يحس في بعض

لحظات من السكر بنوع من خوف روحي وتضعضع معنوي يرهقانه جسمياً إن صح التعبير، حتى لقد كان يصف ذلك أحياناً بقوله: «يبدو لي في تلك اللحظات أن روحي تندفع خارجة فترفرف في حلقي». ففي تلك اللحظات إنما كان يحب أن يوجد على مقربة منه، في المبنى الملحق على الأقل، إن لم يكن في غرفته نفسها، رجل موثوق مخلص، رجل يختلف عنه كل الاختلاف، رجل ليس فيه من الفجور والعهر شيء، لكنه رغم معرفته بأنواع استهتاره ورغم اطلاعه على أسراره، يغفرها له من باب الإخلاص ولا يعارضه فيها، ولا يلومه عليها خاصة، ولا يهدده بعقوبات مقبلة لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر... رجلٌ يمكن أن يحميه عند الحاجة... ممَّن يحميه؟ من إنسان مجهول، ولكنه رهيب خطير.. كان لا بد له حتماً من أن يوجد على مقربة منه كائن «آخر»، مألوف له معروف عنده منذ زمن طويل، يمكن أن يعده صديقاً، حتى يستطيع أن يناديه إليه في لحظة من كآبة، وأن يستدعيه لا لشيء إلا أن يرى وجهه، وربما بادله عندئذٍ بضع كلمات في أي موضوع من المواضيع: فإذا أظهر له هذا الرجل شيئاً من لطف ولم يؤنبه أصبح حزنه أقل ثقلاً في قلبه، وإذا تجهَّم له وقسا عليه ثقلت كآبته مزيداً من الثقل. حتى لقد كان يتفق لفيدور بافلوفتش (في النادر القليل على كل حال) أن يذهب إلى جريجوري في المبنى الملحق، فيوقظه من نومه ليلاً، ليطلب إليه أن يلحق به. وكان الخادم يجيء عندئذٍ إلى مولاه الذي يأخذ يُجري معه حديثاً تافهاً يدور على تفاصيل لا قيمة لها ولا شأن، ثم ما يلبث أن يصرفه مازحاً وساخراً أحياناً، أما هو فيبصق ويعود إلى سريره فينام في هذه المرة نوماً هادئاً. ولقد مرَّ فيدور بافلوفتش بساعات كهذه الساعات عند وصول أليوشا إلى منزله. إن

هذا الفتى قد «طعن قلبه» لأنه «يعيش معه، ويرى كل شيء، ثم هو لا يُدين شيئاً من الأشياء». وأكثر من ذلك إن أليوشا قد حمل إلى حياة أبيه عنصراً لا عهد للأب بمثله من قبل، هو أن أليوشا لم يحتقره، هو العجوز، البتة، حتى لقد حنا عليه وشعر نحوه بعاطفة بسيطة تصدر عنه من تلقاء نفسها بغير افتعال، دون أن يكون أبوه جديراً بها. إن موقفاً كهذا الموقف خليق بأن يثير دهشة العجوز المستهتر الذي كان يعيش بغير أسرة ويركض وراء النساء ولا يسعى إلا إلى «الفواحش». ذلك موقف ما كان لهذا العجوز أن يتوقعه. وقد اعترف لنفسه بعد رحيل أليوشا أنه أدرك في ذاته أشياء لم يشأ أن يقبلها وأن يسلِّم بها قبل ذلك.

سبق أن ذكرت في مطلع هذه القصة أن جريجوري كان يكره آديلائيدا إيفانوفنا زوجة فيدور بافلوفتش الأولى، أُمّ ابنه دمتري؛ وأنه في مقابل ذلك كان قد تعلّق بزوجة فيدور بافلوفتش الثانية، صوفيا إيفانوفنا، الكليكوشا، وتحيّز لها ضد كل من مولاه نفسه ومن كل مَنْ يمكن أن تسوِّل له نفسه أن يقول في حقها كلمة سوء، عن خبث أو عن طيش. وقد استحالت هذه المودة التي محضها تلك المرأة، في نفسه مع الزمن إلى عاطفة مقدسة بلغت من القوة أنه أصبح حتى بعد انقضاء عشرين عاماً على موتها لا يطيق أن يسمع من أي إنسان، كائناً من كان، أي إشارة تسيء إلى المتوفاة، فلو فعل أحد ذلك أمامه لهب يهاجم من هاجمها على الفور. وكان جريجوري في مظهره رجلاً بارداً رصيناً، قليل الكلام، فإذا تكلم تكلم عن دراية، شاعراً يوزن كل لفظ من ألفاظه ولا يُلقي الكلام على عوارضه. وكان يستحيل عليك أن تعرف من النظرة الأولى أهو يحب امرأته الخاضعة الطيّعة أم هو لا يحبها. ولكن الحقيقة هي أنه كان يحبها،

وكانت هي تعرف ذلك طبعاً ولم تكن مارفا اجناتفنا هذه بالمرأة الغبية، ولعلها كانت تملك من الذكاء أكثر مما كان يملك منه زوجها، ولقد كانت على كل حال أصدق منه حكماً وأصوب منه رأياً في شؤون الحياة العملية. ومع ذلك خضعت له منذ أن تزوجا، فلم تجحد سلطته عليها، وكانت تحترم احتراماً أعمى ما كان ينعم به من تفوق روحي. يجب أن نذكر أنهما كانا، طوال حياتهما، قلّما يتبادلان الكلام اللّهم إلا فيما يتعلق بالمسائل التي لا مهرب منها من مسائل الحياة الجارية. لقد تعود جريجوري الوقور المهيب أن يفكر في أموره وهمومه وحده، وقد بلغ من هذا أن امرأته أدركت نهائياً أنه في غير حاجة إلى نصائحها. وكانت تحس أن زوجها يقدر لها صمتها، وأنه يرى فيه دليلاً على ذكائها. ولم يضربها في حياته إلا مرة واحدة وكان ضرباً خفيفاً على كل حال. وإليكم كيف حدث هذا: أثناء السنة الأولى من زواج فيدور بافلوفتش بآديلائيدا إيفانوفنا، فإن نساء القرية وبناتها، ولم يكنَّ قد تحررن من القنانة في ذلك العهد، اجتمعن ذات يوم في فناء منزل السادة يغنين ويرقصن، فبينما كانت الفلاحات تغني أغنية «في المروج»[71] إذا بمارفا اجناتفنا التي كانت ما تزال في ريعان الشباب، تندفع فجأة إلى أمام جوقة المغنيات، فتأخذ ترقص رقصة «روسية» بأسلوب خاص ليس هو الذي تعودت الفلاحات أن ترقصه، وإنما هو الذي تعلمته أيام كانت ما تزال تعمل خادمة في منزل أسرة ميوسوف الثرية، فكانت ترقص على المسرح الذي أقامته تلك الأسرة في أملاكها والذي استدعت له من موسكو أستاذ باليه يعلم الرقص. رأى جريجوري زوجته تندفع في ذلك الرقص، فما أن عادا إلى البيت بعد ساعة حتى أدَّبها التأديب الذي تستحقه وهو يشدها من شعرها. تلك هي المرة

الوحيدة التي ضرب فيها جريجوري امرأته، ثم لم يتجدد شيء من هذا في حياتهما بعد ذلك. ثم إن مارفا اجناتفنا قد تابت منذ ذلك اليوم عن حبها هذا للرقص.

لم يهب الرب للزوجين أولاداً، إلا واحداً لم يعش طويلاً. ومع ذلك كان جريجوري يحب الأطفال، ولا يخفي هذا الحب، أي إنه كان يجاهر به في غير خجل. فلما هربت آديلائيدا إيفانوفنا احتضن الصغير دمتري فيدوروفتش الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره، قرابة سنة، يعنى به متولياً بنفسه تمشيط شعره وغسل جسمه. وفي ما بعد اهتم أيضاً بإيفان فيدوروفتش وأليوشا، ونال صفعة لقاء ذلك، وتلك، على كل حال، تفاصيل سبق أن أتيت على ذكرها. أما ابنه هو، فإنه لم يذق إلا فرحة انتظاره مدة حبل أمه به. حتى إذا وُلد الطفل امتلأ قلب أبيه هولاً وحزناً. ذلك أن الصبي قد جاء إلى هذا العالم بست أصابع في كل يد. وقد بلغ جريجوري يومئذٍ من الانصعاق أنه أصر لا على أن يصمت فما ينطق بحرف إلى حين التعميد فحسب، بل أصر على أن ينزوي في الحديقة طوال تلك المدة ليغرق في الصمت مزيداً من الإغراق. كان ذلك في الربيع. وقد قضى الرجل الأيام الثلاثة التي سبقت التعميد يعزق الأرض في بستان الخضار. فلما حلّ اليوم الثالث الذي سيُحتفل فيه بتعميد الصبي كانت فكرة جريجوري قد اختمرت في رأسه. فهذا هو يدخل على مسكن الخدم حيث اجتمع القس والمدعوون، وحيث جاء فيدور بافلوفتش أخيراً ليكون للصبي عرّابه، هذا هو يدخل فيقول فجأة: «الأفضل أن لا يُعمَّد الطفل البتة». لم يقل ذلك بقوة كبيرة، ولم يسترسل في الكلام، وإنما قاله وهو لا يكاد ينطق بألفاظه واضحةً، وقاله وهو يلقي على الكاهن نظرة قاتمة عنيدة.

سأله الكاهن في دهشة ممزوجة بالمرح:

- لماذا؟

فتمتم جريجوري يجيبه:

- لأنه... تنين...

- ماذا؟ أي تنين؟

صمت جريجوري بضع لحظات. ثم دمدم يقول مضطرباً أشد الاضطراب، ولكن وجهه كان يعبّر عن الحزم، وكان واضحاً أنه لا يريد أن يدخل في شروح أوسع، دمدم يقول:

- اختلط الأمر على الطبيعة...

ضحك الحضور، وتم تعميد الصبي المسكين مع ذلك طبعاً، صلّى جريجوري بحرارة وخشوع أمام جرن التعميد، ولكنه لم يغيّر رأيه في الوليد. على أنه لم يخلق أية صعوبة بعد ذلك، وإنما اكتفى، خلال الأسبوعين اللذين عاشهما الطفل الضعيف الهزيل، بأن يصر على أن لا يراه، متظاهراً بأنه يجهل وجوده، قاضياً أكثر وقته خارج مسكنه. ولكن حين مات الصبي بعد أسبوعين بمرض التهاب الفم، تولى هو نفسه إرقاده في تابوته الصغير وتأمله طويلاً بحزن شديد. وحين أهيلت آخر مجرفة من التراب على الحفرة التي دفن فيها الصبي، وهي حفرة لم تكن عميقة، جثا على ركبتيه، وحيًّا القبر منحنياً حتى الأرض. ومنذ ذلك اليوم، خلال سنين طويلة، لم يأتِ جريجوري على ذكر هذا الصبي مرة واحدة، كما أن مارفا اجناتفنا لم تذكره بحضور زوجها في يوم من الأيام. فإذا اتفق لها أن تكلمت مع أحد عن «صغيرها»، تكلمت هامسةً همساً حتى في غياب جريجوري فاسيلفتش. وفي رأي مارفا أجناتفنا إن هذه الجنازة هي أصل الاهتمامات الدينية التي أصبحت تُلاحَظ عند جريجوري الذي

انصرف منذ ذلك الحين إلى دراسة «الأمور الإلهية»، فهو ينكبّ على قراءة كتاب سير الشهداء صامتاً معتزلاً في كثير من الأحيان، واضعاً على عينيه لهذه المناسبة في كل مرة نظارتيه المستديرتين الكبيرتين اللتين لهما إطار من فضة. كان يندر أن يقرأ جريجوري في هذا الكتاب جهراً، إلا في أيام الصيام الكبير. وكان يحب أن يقرأ «سفر أيوب» خاصة، كما استطاع أن يحصل من مكان ما على كتاب يضم أفكار ومواعظ «أبينا حبيب الله، إسحاق السوري»[72]، فكان لا يني يقرأ هذا الكتاب ويعيد قراءته سنين طويلة، دون أن يفهم منه شيئاً تقريباً، ولكن لعل هذا بعينه هو ما كان يجعله يحب هذا الكتاب ويقدِّره مزيداً من التقدير. وقد عنى في الآونة الأخيرة بآراء ملة الخليستس، فدرس عن كثب، هذه الحركة التي التقى ببعض المنضمين إليها في القرى المجاورة، فاهتزت نفسه من ذلك اهتزازاً واضحاً، ولكنه رأى أن الانضمام إلى العقائد الجديدة ليس بالأمر المستحسن. وطبيعي أن العكوف على «الأمور الإلهية» قد أضفى على تعبير وجهه مزيداً من الرصانة والوقار.

لعل جريجوري كان ميالاً إلى الصوفية. وهذا حادث من أغرب ما يمكن أن يقع من حوادث، حادث لم يكن في الحسبان قط، يحدث كأنما على عمد، في تلك الآونة نفسها التي شهدت ميلاد ابنه ذي الأصابع الست وشهدت موته السريع، وهو حادث خلَّف في نفسه، كما أعرب عنه هو نفسه ذات مرة فيما بعد، «أثراً لا يندثر». إليكم ما حدث: في الليلة التي أعقبت دفن الصبي الصغير، استيقظت مارفا اجناتفنا فجأة على شعور بأنها تسمع بكاء يشبه بكاء رضيع. ذُعرت مارفا إجناتفنا، فأيقظت زوجها. وأصاخ الرجل بسمعه فقال إن الأصوات التي يسمعها هي أصوات أنين «كأنه أنين

امرأة». ونهض فارتدى ملابسه. هي ليلة حلوة من ليالي شهر مايو. خرج جريجوري إلى درج المدخل، فأدرك إدراكاً واضحاً أن أصوات الشكوى كانت آتية من جهة الحديقة. ولكن الحديقة تغلق في الليل من جهة الفناء بقفل قوي، وليس يمكن الدخول إليها من ممر آخر، لأنها محاطة بسياج عالٍ متين. عاد جريجوري إلى بيته، فأشعل سراجاً، وتناول المفتاح واتجه نحو الحديقة دون أن ينطق بكلمة واحدة، غير عابئ بذعر امرأته الهستيري التي أكدت أنها تسمع سماعاً واضحاً أصوات بكاء طفل رضيع، وأن هذه الأصوات لا يمكن أن تكون إلا اصوات ابنهما يبكي ويناديها هذا النداء. وأدرك جريجوري عندئذٍ أن أصوات الشكوى آتية من الحمام المقام في الحديقة على مقربة من الباب الحديدي، وأنها أنّات امرأة ما في ذلك ريب. فلما فتح باب الحمام جمد في مكانه دهشةً من المنظر الذي رآه: إن معتوهة المدينة التي تجوب الشوارع كل يوم والتي يعرفها سكان مدينتنا حق المعرفة - وقد أطلقوا عليها لقب ليزافيتا سمردياشايا)[73] - قد تسللت إلى الحمام، فولدت هناك ولداً. وكان الصغير راقداً قرب أمه التي تُحتضر. لم تنطق المعتوهة بكلمة واحدة، لسبب بسيط، هو أنها لا تعرف أن تتكلم. يحسن مع ذلك أن نوضح هذا كله على حدة فنتحدّث عن هذه المرأة بمزيد من التفصيل.

– 2 –

ليزافيتا سمردياشايا

بثّ هذا الحادث في قلب جريجوري اضطراباً عميقاً، وذلك بسبب تفاصيل ذكّره هذا الحادث بها، وعزّز في نفسه شبهة أليمة مقزِّزة كانت قد ساورته من قبل. ليزافيتا سمردياشايا بنت قصيرة القامة جداً «لا يزيد طولها كثيراً عن ذراعين» كما أصبح يحلو لعجائز النسوة التقيات في مدينتنا بعد موتها أن يقلن. وكان وجه هذه المرأة الشابة التي تبلغ العشرين من العمر معافى عريضاً مورّداً، ولكنه يفصح عن العَتَه والبلاهة إفصاحاً تاماً: إن نظرتها جامدة، وهي نظرة رغم هدوئها، تشتمل على شيء يؤلم النفس. وكانت تسير حافية القدمين منذ ولدت، في الشتاء وفي الصيف لا يستر جسمها إلا قميص من قماش القنب. وكان شعرها، الأسود تقريباً، الكثيف جداً، المتجعد كأنه جزائز شاة، يتكوم على رأسها كطاقية ضخمة؛ وهو عدا ذلك ملطخ دائماً، زاخر بالتراب وأوراق الأشجار والغصينات والنشارات، لأنها اعتادت أن تنام على الأرض في الغبار والوحل. وكان أبوها إيليا، وهو رجل بورجوازي مفلس مريض لا مأوى له قد أدمن الشراب، وأصبح منذ عدة سنين يعيش في دار رجل من أهل مدينتنا بمثابة عامل. أما أم ليزافيتا فكانت قد ماتت منذ زمن طويل. وكان إيليا، المريض الشرس يضرب ليزافيتا ضرباً مبرحاً بلا

رحمة ولا شفقة إذا هي جاءت إلى الدار. على أن ليزافيتا كانت لا تجيء إلى الدار إلا نادراً، لأن جميع سكان المدينة كانوا يحسنون وفادتها من حيث هي امرأة «مجذوبة» يحبها الرب. وقد حاول سادة إيليا، كما حاول إيليا نفسه أيضاً، وكما حاول عدد كبير من المحسنين في مدينتنا ولا سيما رجال ونساء ممن يمارسون التجارة، حاولوا مراراً أن يكسوا ليزافيتا بما هو أقرب إلى الحشمة من قميص القنب وحده، فكانوا يدثرونها كل عام، في أوائل أيام البرد، بمعطف من جلد الخروف، وكانوا يلبسون قدميها حذاءين. فكانت ليزافيتا تدع لهم أن يفعلوا بها ذلك طائعة بغير احتجاج، ولكنها ما تلبث أن تبتعد عنهم، وتمضي إلى مكان ما بالمدينة، هو فناء الكاتدرائية في أغلب الأحيان، فتخلع عن جسمها جميع الثياب، اللفعة والتنورة والمعطف والحذائين فتدعها هنالك، ثم تمضي كما كانت، حافية القدمين لا يستر جسمها إلا قميص. وقد حدث مرة أن حاكم إقليمنا الجديد مرَّ بمدينتنا في جولة تفتيشية، فلما رأى ليزافيتا هذه صدم منظرُها أفضل عواطفه، ورغم أنه أدرك أن المرأة هي «بوروديفايا»[74]، وقد ذُكر له ذلك فوراً على كل حال، فقد أصر على أن منظر فتاة شابة تجوب الشوارع بقميص، شيءٌ يؤذي الأخلاق العامة، وأمر بوضع حد لهذه الفوضى. ولكن الحاكم انصرف من المدينة فلم يهتم أحد بعد انصرافه بليزافيتا وتُركت تعيش كما كانت تعيش. ومات أبوها أخيراً، فأصبحت يتيمة لا أب لها ولا أم، فكان من شأن ذلك أن جعلها أقرب إلى قلوب التقاة من سكان مدينتنا وأحب إلى نفوسهم، بل يبدو أن جميع الناس كانوا يحبونها حباً صادقاً، حتى الصغار الذين كانوا يمتنعون عن مشاكستها ويعفون عن تنكيدها، مع أن الأطفال في مدينتنا، ولا سيما أطفال المدارس،

كانوا فئة عدوانية متحرشة مشاجرة. كانت ليزافيتا تدخل بيوتاً لا تعرفها، فما يخطر ببال أحد أن يطردها. بالعكس: كان كل واحد يسرع إلى تدليلها ويعطيها كوبيكاً، كانت تأخذ هذه الأعطيات الصغيرة من النقود، ولكنها ما تلبث أن تلقيها في صندوق الصدقات بكنيسة من الكنائس أو سجن من السجون. فإذا أعطاها أحد في السوق رغيفاً من أرغفة الخبز الطرية الصغيرة، لم يفتها أن تهبه لأول طفل تلقاه في طريقها أو هي تستوقف في الشارع سيدةً من أغنى سيدات مدينتنا فتعطيها الرغيف، فتقبله السيدة منها فرحةً. كانت لا تريد أن تتغذى إلا بخبز أسود وماء. وكانت في بعض الأحيان تدخل دكاناً من الدكاكين الحافلة بأجمل المعروضات فتجلس فيه: إن كل شيء في متناول يدها، البضاعة الثمينة والمال الوفير، ولكن أصحاب المتاجر لا يخطر ببالهم أن يراقبوها لثقتهم بأنها لن تسرق شيئاً في يوم من الأيام، ولن تمتد يدها إلى كوبيك واحد ولو صفت أمامها ألوف الروبلات ثم نُسيت. وقلَّما كانت تُرى في الكنيسة، ولكن كان يحلو لها أن تقضي ليالي بأسرها مضطجعةً في فناء معبد من المعابد، حين لا تتسلل إلى بستان من بساتين الخضار من خلال سياج (ما تزال الأسيجة التي تقوم مقام الحواجز كثيرة في منطقتنا). وكانت تذهب إلى الدار ـ أعني دار أسياد أبيها المتوفى ـ مرة في الأسبوع تقريباً أثناء الصيف، وفي جميع الأيام أثناء الشتاء، ولكنها لا تذهب إلى هناك إلا لقضاء الليل، فهي تلوذ عندئذٍ في المدخل أو تقبع في حظيرة الماشية. والناس يستغربون كيف تستطيع ليزافيتا أن تتحمل هذا النوع من الحياة، ولكنها كانت قد تعودت ذلك، وهي رغم ضآلة جسمها قوية البنية جداً. صحيح أن بعض الأشخاص من فئة السادة والنبلاء في مدينتنا كانوا يؤكدون أن ليزافيتا إنما تتصرف هذا التصرف

من باب الكِبَر. ولكن هذا التفسير يصعب على المرء أن يصدقه، لأن هذه الفتاة كانت لا تعرف حتى الكلام، فهي لا تزيد على أن تحرك لسانها من حين إلى حين بأصوات مبهمة لا تبين. فهل يمكن الحديث بصددها عن كبر؟

ففي ذات ليلة من ليالي شهر سبتمبر (وقد حدث هذا منذ زمن بعيد جداً)، ليلة مضيئة دافئة يغمرها القمر البدر بنوره، كانت عصبة فرحة مرحة من اللاهين العابثين في مدينتنا عائدين من النادي إلى بيوتهم بعد إفراط في الشراب والطعام، عبر أفنية الدور الخلفية. كان الوقت ساعةً متأخرة من الليل بالنسبة إلى عاداتنا، وكانت العصبة خمسة رفاق أو ستة. إن الشارع الصغير الذي يجتازونه الآن محفوف بسياج من الجهتين، ووراء السياج تمتد بساتين الخضار في المنازل المطلة على الشارع، والشارع يفضي إلى القناطر الضيقة الممدودة عرضاً على غديرنا الطويل الآسن الذي اعتاد الناس أن يسموه في بعض الأحيان نهراً. وإن العصبة لتسير فيما كانت ليزافيتا على حين فجأة نائمة قرب السياج بين نباتات القرَّاص والأرقطيون. توقف العابثون القاصفون يضحكون لهذا المشهد في قهقهة مجلجلة مدوية، وأخذوا يطلقون الأمازيح البذيئة في غير حياء. وفجأة خطرت ببال أحدهم فكرة عجيبة هي أن يطرح سؤالاً من طبيعة خاصة جداً فقال: «هل يمكن أي إنسان أن يرى في هذه البهيمة امرأة، في هذه اللحظة نفسها مثلاً؟ إلخ...». فضج الجميع يظهرون اشمئزازاً متكبراً ونفوراً مستعلياً، مؤكدين أن ذلك غير وارد. ولكن فيدور بافلوفتش الذي كان أحد أفراد العصبة تقدم فوراً فقال إنه بالعكس، ذلك شيء يمكن فعله جداً، وإن في وسع المرء تماماً أن يعد هذه المخلوقة امرأة، بل وإن ذلك قد يكون فيه كثير من الإثارة اللذيذة، إلخ إلخ... يجب

أن نذكر أن فيدور بافلوفتش كان في ذلك الأوان يغالي في إبراز دور المهرّج الذي يمثله، ويسعى إلى انتهاز جميع المناسبات التي يتاح له فيها أن يلمع نجمه في هذا المجال وأن يسلّي السادة وأن يضحكهم، على قدم المساواة بينه وبينهم في الظاهر ولكن بروح العبودية الدنيئة لهم في حقيقة الأمر. وقد حدث هذا في الآونة التي كان قد تلقى فيها من بطرسبرج نبأ وفاة امرأته آديلائيد إيفانوفنا، فكان وقد وشّح قبعته بشريط أسود يسترسل في السكر ويرتكب من الأعمال الفاجرة ما كان يثير الاشمئزاز ويبعث الإحساس بالفضيحة في نفوس كثير من الناس، حتى أشدهم انحلالاً وأكثرهم دعارة. طفقت العصبة الفرحة تضحك طبعاً لهذا التصريح الذي لم يكن في الحسبان. وقد مضى أحد العابثين إلى حد تشجيع فيدور بافلوفتش على أن يفعل، ولكن الآخرين أكدوا اشمئزازهم بقوة متزايدة، وإن فعلوا ذلك بمرح ما ينفك يشتد قوة. وأخيراً تابع الجميع طريقهم. وقد حلف فيدور بافلوفتش فيما بعد أنه انصرف مع الجماعة في وقت واحد. وقد يكون ما قاله صحيحاً، فإن أحداً لم يعرف حقيقة الأمر، لا ولن يعرفها أحد يوماً على وجه اليقين. غير أن ما حدث هو أن المدينة كلها أصبحت بعد خمسة أشهر أو ستة لا تتحدث إلا عن ليزافيتا التي صار واضحاً أنها حبلى، وأن المدينة تتحدث عن هذا الأمر باستياء صادق واستنكار عميق، وأن السؤال الذي تلقيه جميع الشفاه هو هذا السؤال: «من الآثم؟ من الجاني؟» وفي تلك اللحظة إنما انتشرت في مدينتنا شائعة غريبة تقول إن الآثم ليس إلا فيدور بافلوفتش نفسه. فكيف ولدت هذه الشائعة؟ إن العصبة الفرحة التي كانت عائدة من النادي في تلك الليلة لم يبق منها في مدينتنا إلا واحد هو رجل مسن، محترم جداً، برتبة مستشار دولة، متزوج وله

ابنتان كبيرتان. ومن المحقق تماماً أنه لم يقصص شيئاً، حتى ولو كان هناك شيء. أما اللاهون الآخرون، وعددهم خمسة تقريباً، فكانوا قد بارحوا مدينتنا أثناء تلك المدة. ومع ذلك كانت الشائعة تنصب على فيدور بافلوفتش وتتهمه اتهاماً ملحاً عنيداً. والحق أن فيدور بافلوفتش لم يلق كثير بال إلى هذه الشائعة. ولو قد سئل عن الأمر يومئذٍ لامتنع عن الرد على هؤلاء العامة من الباعة وعلى أولئك الصغار من سكان المدينة. لقد أصبح فيدور بافلوفتش في ذلك الوقت متكبراً، فهو لا يصاحب إلا أنداده من الموظفين والسادة الذين كان يحلو له كثيراً أن يسلّيهم ويضحكهم. ولقد تحيز جريجوري لمولاه، ودافع عنه بقوة واقتناع، وهاجم تلك الأقاويل الكاذبة بكل ما أوتي من قوة، حتى لقد طفق يشتم الواشين ويقيم الأدلة حتى أقنع الكثيرين. كان جريجوري يؤكد قائلاً بلهجة جازمة: «إن هذه البنت السيئة هي وحدها المسؤولة، وإن الجاني لا يمكن أن يكون أحداً غير قاطع الطريق كارب» (بهذا الاسم كان يسمى مجرم خطر معروف جداً عندنا، هرب في تلك الآونة من سجن الإقليم، واختبأ في مدينتنا). لقد بدا هذا الافتراض مقبولاً، لأن الناس يتذكرون مغامرات كارب هذا، ولم ينسوا أنه في تلك الليلة نفسها من ليالي الخريف قد حام في شوارع المدينة وسطا على ثلاثة مارة فنهبهم. على أن هذا الحادث وما أثاره من ثرثرات كثيرة لم يحرم المجذوبة المسكينة من عطف الناس عليها. بالعكس: أصبح الجميع منذ ذلك الحين يهتمون بها مزيداً من الاهتمام ويرعونها مزيداً من الرعاية حتى إن التاجرة كوندارتيفا وهي أرملة ثرية، قد قررت في نهاية شهر إبريل أن تضم الشقية إلى منزلها وأن تحتفظ بها عندها إلى أن تضع طفلها. وقد روقبت ليزافيتا بيقظة شديدة، ولكنها رغم هذه

المراقبة المستمرة استطاعت في آخر يوم أن تهرب في المساء من عند السيدة كوندراتيفا لتلوذ بحديقة فيدور بافلوفتش. أما كيف استطاعت وهي في حالتها تلك أن تجتاز الحاجز العالي المتين، فتلك مسألة ظلت بغير حل إلى حد ما. فبعضهم يزعم أن هناك «أناساً» نقلوها إلى هناك نقلاً، وبعضهم يذهب إلى أن «قوى خفية سرية» قد أعانتها على اجتياز الحاجز. وأغلب الظن أن الأمر قد تم على نحو طبيعي تماماً، ولو بمهارة عظيمة: إن ليزافيتا، الماهرة في تسلق الأسيجة للتسلل إلى بساتين الخضار من أجل النوم هناك، لا بد أنها تسلقت سور حديقة فيدور بافلوفتش، ثم قفزت إلى الحديقة رغم حملها، فآذت نفسها بذلك طبعاً.

هرع جريجوري إلى مارفا اجناتفنا فكلفها بأن تمضي إلى ليزافيتا لتعنى بها، بينما ذهب هو يبحث عن قابلة عجوز من أهل المدينة تسكن من حسن الحظ بالقرب من بيته. ولقد أمكن إنقاذ الطفل. أما الأم فقد فاضت روحها عند الفجر. وأخذ جريجوري الطفل فحمله إلى مسكنه، وأجلس زوجته فوضع الوليد على ركبتيها وأسنده إلى صدرها، وقال لها: «إن اليتيم ابن الله، فهو قريب جميع البشر، وهذا يصدق علينا نحن الاثنين أكثر مما يصدق على غيرنا. إن صغيرنا الميت هو الذي أرسله إلينا. إن هذا الطفل قد ولد من أم صالحة وشيطان رجيم، فأطعميه، ولا تبكي بعد الآن». هكذا تولت مارفا اجناتفنا تربية الصغير. وقد عُمِّد وسُمي بافل، أما الاسم الأبوي الذي كان يجب أن يسمى به فقد تم الإجماع بغير كلام أو إيعاز، على أن يكون اسم «فيدوروفتش». ولم يعترض فيدور بافلوفتش أي اعتراض على ذلك، حتى لقد وجد الأمر مسلياً، ولكنه ظل فيما عدا ذلك ينكر إنكاراً قاطعاً أنه هو الفاعل. وأعجب أهل

المدينة باحتضانه للقيط. واختار فيدور بافلوفتش فيما بعد للصبي اسم أسرة، فأسماه سمردياكوف مشتقاً من لقب أمه، ليزافيتا سمردياشايا. إن سمردياكوف هذا هو الذي أصبح فيما بعد الخادم الثاني لفيدور بافلوفتش، وكان يعيش في بداية هذه القصة بالمبنى الملحق الذي يقيم فيه العجوزان جريجوري ومارفا. وقد جُعل سمردياكوف طباخاً. قد يكون ضرورياً أن أتحدث عن سمردياكوف هذا بمزيد من الإفاضة، ولكنني أشعر بوخز في ضميري إذا أنا صرفت انتباه القراء مدةً طويلة إلى الحديث عن خدم مبتذلين، فهاأنذا أعود إذاً إلى سرد قصتي، آملاً أن تعرض لي من تلقاء نفسها فرصة الكلام مرة أخرى عن سمردياكوف في باقي الرواية.

– 3 –

اعتراف قلب حار، شعرا

حين تلقى أليوشا الأمر الذي أصدره إليه أبوه صائحاً من عربته عند مغادرته الدير، لبث جامداً في مكانه مدة من الوقت وقد استبدت به حيرة شديدة. على أن أليوشا لم يكن جامداً كتمثال، فذلك لم يحدث له أبداً. وبالعكس لقد استطاع، رغم الخواطر التي هزت نفسه وبثت فيها الاضطراب، أن ينزل إلى مطبخ كبير الرهبان فيسأل عما قام به أبوه من أعمال في غرفة الطعام. ثم مضى في طريقه إلى المدينة آملاً أن يهتدي أثناء الطريق إلى جواب عن الأسئلة التي كانت تدور في رأسه وتعذبه. ويجب أن أذكر فوراً أن الأقوال التي صاح بها أبوه والأمر الذي أصدره إليه بالعودة إلى المنزل «مع وسادته وفراشه»، إن ذلك كله لم يثر في نفس أليوشا شيئاً من خوف. فهو يدرك حق الإدراك أن هذا الأمر بالعودة إلى المنزل، الذي ألقاه إليه أبوه بذلك الصوت القوي وتلك الصيحة المتعمدة، إنما هو ثمرة «اندفاع» عابر، بل هو نتيجة رغبته في الاستعراض والتأثير. . . . وقد ذكَّره هذا بما حدث في مدينتنا منذ زمن قصير، حين احتفل أحد سكانها بعيد شفيعه، فلما أسرف في الشراب، غضب على حين فجأة غضباً شديداً واندفع اندفاعاً رهيباً، وذلك في منزله نفسه وبحضور ضيوفه، لأنه مُنع من أن يصب لنفسه مزيد من

الفودكا، فإذا هو يأخذ يكسر الأطباق ويمزق ثيابه وثياب امرأته، ويحطم الأثاث، ثم انتهى الأمر إلى أن أخذ يهشم زجاج النوافذ، كل ذلك في سبيل الاستعراض والتأثير... فلا شك أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث لأبيه. وقد ثاب الرجل الذي احتفل بعيد شفيعه، ثاب إلى رشده في الغد، وبكى طبعاً على أطباقه وصحونه وأوانيه التي حطمها. كان أليوشا يعلم إذن أن أباه سيأذن له في الغداة أن يرجع إلى الدير، وربما أذن له بذلك قبل نهاية هذا النهار نفسه. ولقد كان واثقاً على كل حال من أن أباه لن يحب يوماً أن يحزنه، كان أليوشا مقتنعاً بأنه ليس هناك أحد حتى في العالم كله يمكن أن يريد يوماً ما أن يحزنه، وما من أحد يمكن أن يبلغ منه ذلك ولو أراد. تلك عند أليوشا بديهية واضحة وحقيقة ثابتة لا تقبل نقاشاً. لذلك سار قدماً لا يتردد ولا يلوي على شيء.

أما الخوف الذي كان يساوره في تلك اللحظة فهو خوف من نوع خاص يختلف عن ذلك كل الاختلاف، خوف يثقل عليه خاصة لأنه لا يستطيع هو نفسه أن يستبين طبيعته: إنه خوف من المرأة، بل هو خوف من امرأة بعينها هي كاترينا إيفانوفنا تلك التي توسلت إليه بكثير من الإلحاح، في البطاقة التي أرسلتها إليه مع السيدة خوخلاكوفا منذ بعض ساعات، أن يجيء إليها من أجل أمر ما. إن رجاءها ذلك، واضطراره إلى تلبية هذا الرجاء اضطراراً لا فكاك منه، إن ذلك كله قد ملأ نفسه منذ البداية بشعور غامض يعذِّبه وما ينفك يتفاقم طوال ذلك الصباح شيئاً بعد شيء حتى غدا ألماً واخزاً كاوياً، دون أن تستطيع كبته الأحداث التي تعاقبت بعد ذلك في الدير، والمشاهد والوقائع التي تلاحقت في مسكن كبير الرهبان إلخ... إلخ.. وما سيجيبها به. فليس المرأة بوجه عام هي ما كان يخشاه

فيها. فإنه وإن تكن معرفته بالنساء قليلة ولا شك، قد عاش طول الوقت في صحبة النساء وحدهن تقريباً، منذ طفولته الأولى إلى حين دخوله الدير. وإنما هو خائف من هذه المرأة بعينها، من كاترينا إيفانوفنا بذاتها، ولقد خاف منها منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها؛ وهو مع ذلك لم يلقها إلا مرة أو مرتين، وربما ثلاثاً، وبادلها بضع كلمات عرضاً في مناسبة من المناسبات. إن الصورة التي بقيت في خياله منها هي صورة فتاة بارعة الجمال، شديدة الكبرياء، قوية السطوة. ومع ذلك فليس جمالها هو ما كان يعذبه، وإنما كان يعذبه شيء آخر لم يستطع له تعليلاً، فكان جهله هذا يفاقم خوفه مزيداً من المفاقمة في تلك الساعة. لا شك أن هذه الفتاة تسعى إلى أنبل الأهداف. ذلك أمر يعرفه: إنها تحاول إنقاذ أخيه دمتري الذي أذنب في حقها، وهي لا ترغب في ذلك ولا تتمناه إلا شهامة منها. ولكن أليوشا، رغم ما في هذه العواطف من روعة ورفعة، لا يملك إلا أن يمجدهما ولا يملك إلا أن ينصفهما، لم يستطع أن يتغلب على القشعريرة التي سرت في ظهره كلما ازداد اقتراباً من منزل الفتاة.

وقدَّر أليوشا أن أخاه إيفان الذي توثقت الصداقة الحميمة بينه وبين كاترينا إيفانوفنا، قد لا يكون الآن عندها، لأنه لا بد أن يكون مع أبيه. أما دمتري فإن أليوشا أكبر ثقة بأنه لن يلقاه عندها أيضاً، وهو يوجس سبب ذلك. معنى هذا أن الحديث بينه وبينها سيجري في خلوة. ألا ليته يستطيع، على الأقل، أن يرى أخاه دمتري قبل هذا الحديث المحتوم! خطر ببال أليوشا أن يسرع إلى أخيه بوثبة ليراه. تُرى أليس ممكناً أن يتناقش معه أولاً، دون أن يظهره على رسالتها طبعاً؟ ولكن دمتري يقيم في مكان بعيد، وأغلب الظن أنه ليس في منزله الآن. توقف أليوشا لحظة ليفكر، ثم عزم أمره أخيراً.

رسم على نفسه إشارة الصليب بحركة سريعة، ولم يلبث أن ابتسم بدون سبب ظاهر، ثم اتجه يسير بخطى حازمة نحو منزل السيدة «الرهيبة».

كان يعرف أين تقطن. ولكن الاتجاه إلى «الشارع الكبير» ثم عبور الميدان، ثم... إلخ... كل ذلك يجعل الطريق إليها طويلاً. إن مدينتنا الصغيرة مبعثرة جداً، والمسافات فيها شاسعة أكثر الأحيان[75]. أضف إلى ذلك أن أباه كان ينتظره، فلعله لم ينس الأمر الذي ألقاه إليه، وقد ينفد صبره وتعود إليه نزواته، ولذلك كان على أليوشا أن يسرع لكي يصل إلى هناك ويعود إلى هنا في الوقت المناسب. وقرر بعد تقليب الأمر على وجوهه المختلفة هذه، أن يسلك الطرق المختصرة عبر الأفنية الخلفية، فهو يعرف كل هذه الطرق المختلفة في مدينتنا كما يعرف راحة كفه. كان عليه أن يقطع الشوارع قطعاً، فيمر بأرضٍ بور، ويجتاز في أماكن شتى أسيجة تحيط بأملاك خاصة، ويعبر أفنية منازل أناس غرباء يعرفه كل واحد منهم، ويحييه عند مروره. فعلى هذا النحو يبلغ «الشارع الكبير» بنصف الوقت الذي يحتاج إليه لو سلك السبيل العادي. فلما اتبع أليوشا هذا الطريق المختصر وجد نفسه في لحظة من اللحظات قريباً من منزل أبيه على حدود بستان متاخم لبستانه، تابع لمنزل صغير عتيق بالٍ متهالك ليس له من النوافذ إلا أربع. إن صاحب هذا المنزل هو، كما كان أليوشا يعرف ذلك، امرأة متواضعة من سكان المدينة، عجوز بساق واحدة، تسكن في المنزل مع ابنتها. وكانت ابنتها هذه قد عملت في الآونة الأخيرة بالعاصمة، خادمة متحضرة، لدى جنرالات في الغالب. ولكنها رجعت منذ ما يقرب من سنة، بسبب مرض أمها، فهي الآن تظهر في مدينتنا بأثواب أنيقة جداً. إلا

أن العجوز وابنتها حلّت بهما مع ذلك فاقة شديدة وعوز كبير، حتى لقد كانتا تذهبان كل يوم إلى مطبخ فيدور بافلوفتش، من حيث هما جارتان، تلتمسان شيئاً من حساء وخبز تغدقه عليهما مارفا اجناتافنا راضية مسرورة. ولكن الفتاة رغم أنها تقتات من البر والإحسان لم تقبل أن تبيع أي ثوب من أثوابها التي كان بينها ثوب سابغ الذيل. وكان أليوشا قد عرف هذه النقطة الأخيرة بمصادفة محضة من صديقه راكيتين الذي كان على علم بكل شيء في المدينة حتماً، ثم لم يلبث أن نسيها طبعاً، ولكنه وقد بلغ الآن حديقة هذه الجارة تذكر الذيل السابغ هذا على حين فجأة، فإذا هو يرفع رأسه بعد أن كان مطرقاً إلى الأرض طوال المدة التي قضاها مفكراً متأملاً أثناء سيره... وعندئذٍ إنما وقع له لقاء لم يكن في حسبانه قط.

لقد لمح أخاه دمتري فيدوروفتش وراء سياج الحديقة، قاعداً على شيء من الأشياء مشرئباً برأسه متجاوزاً الحاجز بصدره، يومئ إليه بحركات عريضة من يده، ويناديه مهيباً به بالإشارات أن يجيء إليه، متحاشياً أن يصرخ، بل ومتجنباً أن يقول كلمة واحدة بصوت عالٍ، مخافة أن يُسمع. وهرع أليوشا إليه على الفور.

– من حسن الحظ أنك رفعت رأسك، وإلا لكنتُ اضطررت أن أصيح.

كذلك همس يقول دمتري فيدوروفتش لأخيه مسرعاً وقد بدا عليه فرح شديد برؤيته. ثم أضاف:

– تسلق من هنا... هيا أسرع! ما أروع أنك جئت. لقد كنت أفكر فيك...

سُرَّ أليوشا هو نفسه سروراً عظيماً أيضاً، رغم حيرته في كيفية اجتياز السياج. ولكن ميتيا رفعه من كوعه بيد قوية ليساعده على أن

يقفز، فشمر أليوشا ثوبه الرهباني، ثم إذا هو يصير في داخل الحديقة بوثبة كوثبة صبي صغير من صبية المدينة الذين يسيرون حفاة الأقدام.

همس ميتيا يقول له بحماسة:

- والآن فلنسر!

فسأله أليوشا بصوت هامس أيضاً، وهو ينظر إلى جميع الجهات فيرى أنهما وحيدان في الحديقة تماماً:

- إلى أين؟

لم تكن الحديقة واسعة، ومع ذلك فإن المنزل الصغير الذي تملكه العجوز وابنتها يبعد خمسين خطوة على الأقل.

- نحن وحيدان، فلماذا تتكلم همساً؟

- لماذا أتكلم همساً؟ لا يعلم إلا الشيطان لماذا!

هكذا صاح دمتري فيدوروفتش بأعلى صوته، وتابع يقول:

- حقاً... فعلاً... لماذا تكلمت همساً؟ انظر كيف تحلو السخافات للطبيعة في بعض الأحيان! أنا موجود هنا سراً، ويجب أن أكون كتوماً. سأشرح لك الأمر فيما بعد. إنني لشعوري بضرورة الحفاظ على السر، أخذت أهمس بغباوة، مع أن ذلك لا داعي إليه البتة. هيا... هيا إلى هناك! وحتى نصل إياك أن تقول كلمة واحدة. هل تعلم؟ وددت لو أقبلك!

المجد للخالق في الخلق

المجد للخالق في نفسي[76]

لقد كنت أردد هذين البيتين من الشعر هنا، لحظة وصلت أنت...

إن الحديقة التي تبلغ مساحتها قرابة هكتار كانت خالية من الأشجار إلا في محيطها على طول الأسوار الأربعة؛ وهي أشجار

تفاح وقيقب وزيزفون وبتولا. أما وسط الحديقة فلم يكن فيه إلا مرج أعشاب يعطي في كل صيف عشرات الكيلوغرامات من العلف. وكانت صاحبة البيت تؤجر هذه الحديقة منذ مطلع الربيع ببضع روبلات. وهناك شجيرات من توت العليق وعنب الشمال وعنب الثعلب متناثرة على طول الأسوار. وقد زُرع قرب المنزل الصغير شيء من خضار، ولكن ذلك لم يتم إلا منذ زمن قصير. قاد دمتري فيدوروفتش ضيفه إلى ركن من أنأى أركان الحديقة بعيد عن المنزل. فهناك، وسط أجمة كثيفة من أشجار الزيزفون وشجرات عنب الثعلب الهرمة وأشجار البيلسان والغبيراء والبنفسج، يرى المرء بقايا كوخ قديم جداً، قد سوَّده الزمان ولواه، جدرانه مشبكة، ولكن سقفه ما يزال سليماً، فيمكن الاحتماء به إذا هطل مطر. لقد بني هذا الكوخ منذ زمن بعيد، منذ نصف قرن في ما يقال، بناه أحد المالكين السابقين، رجلٌ يسمى ألكسندر كارلوفتش فون شميدت، مقدَّم محال على التقاعد. كل شيء في هذا الكوخ منخور مسوَّس: أرضاً خربة نتنة، أخشاب متزعزعة، رائحة عفنة رطبة. وفي داخلها كانت توجد مائدة خضراء من خشب، قد غاص نصفها في التراب، وأحاطت بها مقاعد هي أيضاً خضراء، وما يزال يمكن الجلوس عليها. كان أليوشا قد لاحظ فوراً حالة الحماسة التي كان عليها أخوه، فلما دخل الآن الكوخ رأى على المائدة زجاجة كونياك ممتلئ نصفها، وإلى جانبها قدح صغير.

قال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً:

– هو كونياك يا عزيزي! لا شك أنك تقول لنفسك: «إنه ثمل من جديد». ألا فاطرد هذه الأشباح من خاطرك!

أكانيب يروجها أناس لا أخلاق لهم

فلا تسمع لها أبداً. وبدد كل أوهامك...[77]

لا... إنني لا أسكر... ولكنني «أتلذذ»، كما يقول صديقك، ذلك الخنزير راكيتين... الذي سيصبح في يوم من الأيام مستشار دولة، دون أن يكفَّ عن أن يتكلم كما يتكلم رجل من الأرياف. اجلس هنا. وددت لو أضمك إلى صدري، يا صغيري أليوشا، ضماً قوياً حتى لأكاد أحطمك، هل تعلم هذا؟ ذلك إنك في الواقع... في الوا... قع... (افهمني جيداً، افهمني جيداً!)... ذلك أنك في الواقع... الإنسان الوحيد... الذي أحبه في العالم!

نطق دمتري فيدوروفتش كلماته الأخيرة هذه بنوع من النشوة والوجد.

- أنت الكائن الوحيد الذي أحبه، أنت وكائن آخر، هو «مخلوقة دنيئة» عشقتها لأضيع وأهلك... ولكن العشق شيء آخر غير الحب. فإن من الممكن أن يكون الإنسان عاشقاً، مع شعوره بالكره. احفظ هذا الكلام! إنني أتكلم الآن في فرح ومرح! اجلس هنا، قربي، إلى هذه المائدة. وسأجلس أنا إلى جانب حتى أراك بشكل واضح وأنظر إليك وأتكلم طوال الوقت وستصمت أنت طول الوقت، بينما سأتكلم أنا، لأنه قد آن الأوان! بالمناسبة، أنا أرى أن الأفضل أن نتكلم هنا همساً... ذلك أن من الجائز... هل تعلم؟... من الجائز أن توجد هنا آذان لا نتوقع وجودها... سأشرح لك كل شيء. تابع كلامي... لماذا كنت أحرص على أن أراك بغير إبطاء، لماذا كنت في مثل تلك الحاجة القوية إليك خلال تلك الأيام كلها وفي هذه اللحظة بعينها (لقد ألقيت مرساتي هنا منذ خمسة أيام) لماذا؟ لأنك الوحيد الذي يمكن أن أركن إليه ركوناً تاماً، لأنك الوحيد الذي يمكن أن أفضي إليه بكل شيء، ولأن هذا

ضروري، ولأنك لا غنى لي عنك، ولأنني سأسقط غداً من السحب، ولأن غداً تنتهي الحياة وتبدأ. هل شعرت يوماً، في المنام مثلاً، بأنك تنحدر من جبل في هاوية؟ فاعلم أنني الآن أتدحرج إلى هاوية، وليس هذا حلماً. ولكنني لست خائفاً، وليس عليك أن تخاف من شيء أنت أيضاً. أقصد... أنا أشعر بخوف، ولكنه شعور عذب جداً، بل ليس شعوراً عذباً، وإنما هو شعور رائع.. لا يدري إلا الشيطان ماذا... فليكن ما يكون. روح قوية، روح ضعيفة، روح امرأة... ليس هذا بذي بال على كل حال! ألا فلنمجِّد الطبيعة: ما أكثر الشمس في كل مكان، ما أصفى السماء الآن! لا شيء إلا الخضرة... نحن في قلب الصيف، والساعة لم تكد تبلغ الرابعة بعد. صمت شامل مطبق! إلى أين كنت ذاهباً؟

- كنت ذاهباً إلى أبينا، ولكنني كنت أنوي أن أمرَّ أولاً بكاترينا إيفانوفنا.

- إليها وإليه.؟ أوه... يا للمصادفة العجيبة!... هل تدري لماذا كنت أنتظرك فارغَ الصبر إلى ذلك الحد؟ هل تدري لماذا كنت ظامئاً إلى رؤيتك ظمأ الصحراء إلى المطر؟ هل تدري لماذا كنت أناديك من جميع مسام روحي وجسمي؟ هل تدري لماذا؟ لأنني كنت أريد أن تذهب إلى الأب رسولاً مني، وأن تذهب بعد ذلك إلى كاترينا إيفانوفنا، بغية أن أصفِّي الأمر معه ومعها... كان لا بد لي أن أرسل إليهما ملاكاً. كان في وسعي أن أكلف بهذا أي إنسان، ولكنني كنت أريد ملاكاً. وها أنت ذا تذهب إليها وتذهب إلى الأب.

- هل كنت تريد أن ترسلني حقاً؟

كذلك سأله أليوشا بلهجة تنبئ عن ألم شديد. فقال له دمتري:

- إذاً كنت تعلم هذا. إنني أرى أنك قد فهمت كل شيء دفعة واحدة. عليك بالصمت خاصة، لا تقل كلمة واحدة الآن. لا تأسف على شيء، ولا تبك قط!

قال دمتري فيدوروفتش ذلك، ثم نهض، وفكّر بضع لحظات واضعاً إبهامه على جبينه، ثم سأله:

- هي التي استدعتك، أليس كذلك؟ لا بد أنها كتبت إليك. أو فعلت شيئاً من هذا القبيل، وإلا لما ذهبت إليها من تلقاء نفسك فيما أظن؟

أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه ويمدها إليه:

- هذه بطاقتها.

قرأ ميتيا البطاقة بنظرة سريعة، ثم قال له:

- وسلكتَ طرقاً مختصرة لتذهب إليها. أيتها الآلهة المحسنة.. شكراً على أنك وجّهته في هذا الطريق فقدتِ خطاه نحوي، كتلك السمكة الذهبية الصغيرة التي تروي الحكاية أنك أرسلتها إلى ذلك الصياد العجوز الغبي[78]. اسمع أليوشا! إصغ إليّ يا أخي! لقد قررت الآن أن أقول لك كل شيء. لا بد لي من أن أفتح قلبي لإنسان ما. لقد سبق أن أفضيت بما في قلبي إلى ملاك في السماء، ولكنه لا بد لي من أن أبوح بسري إلى ملاك من ملائكة الأرض أيضاً. وأنت، أنت الملاك على هذه الأرض. ستصغي وتفهم، وتغفر لي... إن بي حاجة قوية إلى أن يغفر لي إنسان أعلى وأسمى. اسمع: إذا تحول اثنان عن جميع مشاغل الأرض وهمومها، واندفعا أو اندفع أحدهما على الأقل نحو المجهول، فإذا هو، في اللحظة التي يهم فيها أن يحلق أو يهلك، يلقى إنساناً آخر فيقول له: «قدّم لي هذه الخدمة، اعمل من أجلي هذا الأمر الذي لا

يمكن أن يطلبه أحد من أحد أبداً، اللّهم إلا وهو على فراش الموت. . .» فهل يمكن أن يرفض هذا الشخص الآخر طلبه. . إذا كان صديقه، إذا كان أخاه؟

فأجابه أليوشا:

- سأفعل ما تطلبه مني، ولكن قل ما هو، وقل بسرعة.

- بسرعة. . . هِمْ. . . لا تتعجل، يا أليوشا! إنك تستعجل وتقلق. فلا داعي للاستعجال الآن. إن العالم يفتح الآن صفحة جديدة. إنها لخسارة كبيرة يا أليوشا أنك لا تستطيع أن ترقى إلى حيث تبلغ الانبهار! ولكن لماذا آخذ عليه هذا في الواقع؟ أعليك أنت أن ترتقي هكذا؟ يا لي من أحمق حين أقول:

كن نبيلاً يا أيها الإنسان! [79]

من قائل هذا البيت من الشعر؟

قرر أليوشا أن يصبر. لقد أدرك أن كل ما يستطيع أن يقوم به من عمل قد يتركز الآن في هذا المكان بالذات. وفكّر ميتيا دقيقةً، متكئاً بكوعه على المائدة، واضعاً رأسه في راحة يده. صمت الاثنان كلاهما.

استأنف ميتيا كلامه يقول:

- أليوشا! أنت وحدك تستطيع أن تسمعني دون أن تضحك! أريد أن أبدأ اعترافي. . . مرتلاً نشيد الفرح الذي كتبه شيللر إلى الفرح!». ولكنني لا أجيد اللغة الألمانية، ولا اعرف من النشيد إلا عنوانه: An die Freude. حذار خاصة أن يذهب بك الظن إلى أنني سكران. ليس السكر هو ما يجعلني أتكلم. الكونياك هو الكونياك، ولكن لا بد لي من زجاجتين على الأقل حتى أسكر:

سيلين ذو الوجه المزهر

قد أمتطي يوماً حماراً يتعثر[80]

وأنا لم أشرب إلا ربع زجاجة في أكثر تقدير. ثم إنني إن لم أكن سيلين، فأنا سيليون (قوي). أنا قوي لأنني اتخذت قراري، وقد اتخذته إلى الأبد! اغفر لي التلاعب بالألفاظ. وهناك، عدا هذا التلاعب، أمور كثيرة أخرى سيكون عليك أن تغفرها لي اليوم. اطمئن بالاً... إنني لا أهذر ولا أهرف... إنني أتكلم جاداً، وأَمسُّ قلب الموضوع. لا يخطر ببالي أبداً أن أتيه في لف ودوران. انتظر... إنني أحاول أن أتذكر...

ورفع دمتري فيدوروفتش رأسه مفكراً، ثم أخذ يتلو هذه الأبيات من الشعر بلهجة نافذة:

سكان الكهوف الخائفون الوجلون[81]

اختبأوا شبه عراة في المغاور

بينما كان البداة العتاة

يسلبون السهول والغابات

كان الصيادون المسلحون بالحراب والنبال

يبثون الذعر في قلب كل حي يتنفس

ويل لمن ترميه الأمواج الهائجة

على شاطئ أجنبي

من أعلى الأولمب الهادئ

هبطت سيريس الأم على الأرض

تبحث عن بروزربين.

ناصبتها الأرض العداء

لم يستقبلها أحد

لم تجد مأوى لها في مكان

بحثت الآلهة عبثاً عن معبد

يمجد ألوهيتها.

لا يرى أحد في المآدب

ثمار الطبيعة مضيئة ساطعة

وعلى الهياكل الدامية

يتصاعد دخان القرابين المضحى بها.

تأملت سيريس المشهد الأليم

بنظرات تفيض حزناً وأسى

في كل مكان يذل الإنسان

وعذابه شديد لا حدود له!..

وفجأة أخذ صدر ميتيا يعلو ويهبط من شدة الانتحاب. وأمسك يد أليوشا.

- أخي، أخي، صديقي! مذلٌّ هو الإنسان حتى اليوم. رهيب مصير الإنسان، شديدة آلام الإنسان! لا تحسبنّ، أنني امرؤ فظ برتبة ضابط، لا يعنيه إلا أن يشرب الكونياك ويمارس الفجور. إنني في الواقع لا أفكر إلا في مصير البشر الذي يدعو إلى العطف والشفقة والرثاء، ذلك هو اهتمامي الوحيد تقريباً حين لا أكذب. فليساعدني الله كي لا أكذب ولا أتباهى في هذه اللحظة! إنني أفكر في هذا الإنسان لأنني أنا نفسي إنسان مثله.

لا بد للإنسان[82]

من أجل أن تبعث نفسه بعثاً جديداً

وأن ترتفع بعد سقوط.

لا بد له أن يقطع للآلهة القديمة «أم الأرض»

عهداً إلى الأبد.

ولكن الصعوبة هي هذه: ما عساني أفعل من أجل أن أعاهد الأرض؟ أنا لا أقبل سطح الأرض، ولا أزرعها ولا أفتح جوفها؟ هل يجب أن أصبح فلاحاً أو راعياً صغيراً؟ إنني أسير دون أن أعرف ألأنا أغوص في الوحل والعار، أم أنا أتقدم نحو الضياء والفرح؟ ذلك هو بعينه البلاء: إن كل شيء في هذا العالم لغز حين كان يتفق لي أن أغوص إلى القرارة من هوة الدناءة والعهر (ولم يحدث لي شيء غير هذا على كل حال)، فقد كنت في كل مرة أعيد قراءة تلك القصيدة التي تحدثنا عن سيريس وعن الإنسان. فهل أصلحني ذلك؟ كلا ثم كلا! لأنني كارامازوف. فحين أُسقط في الهوة أتدهور تدهوراً تاماً، رأسي في الأمام، وقدماي في الفضاء، حتى لقد أشعر عندئذٍ بسعادة من سقوطي على هذا النحو المذل المهين؛ وأعتبره شيئاً جميلاً. فإذا بلغت القرارة من هوة الدناءة والخسة، طفقت أترنم بنشيد. ألا فلأكن ملعوناً، ألا فلأكن منحطاً سافلاً، ولكنني أريد، أنا أيضاً، أن أقبل ذيل الثوب الذي يتدثر به إلهي. لئن اتبعت الشيطان في الوقت ذاته يا رب، فإني، مع ذلك، أظل ابنك، وأحبك، وفي نفسي سبيل إلى الفرح الذي لولاه ما وجد الكون.

روح العالم التي خلقها الله[83]

تغني الفرح إلى الأبد.

الفرح قائم في أعماق الحياة

يحركها بقوة مستترة.

ينبت العشب من الأرض

يحيل السديم شمساً

ينشر ضياءه الخير

في الفضاوات التي لا نهاية لها.

كل حي يبتهج
في حضن الطبيعة
جميع الكائنات، جميع الشعوب،
تعيش به وحده.
يزين مصائبنا
يهب لنا أصدقاءً وأزهاراً وثماراً
هو الشهوة في الحشرة...
وهو الله في الملاك

ولكن كفانا شعراً! لقد سكبت بضع عبرات، دعني أبكي قليلاً. أسلّم بك بأن في هذا حماقة وسخفاً. وربما ضحك الآخرون منه، أما أنت فلا... لقد رأيت شعلةً تومض في عينيك يا أليوشا. كفانا الآن شعراً. أريد أن أحدثك عن أولئك «الحشرات»، عن أولئك الذين وهب لهم الله الشهوة.

هو الشهوة في الحشرة

أنا تلك الحشرة بعينها يا أخي! هذه الأبيات من الشعر إنما تستهدفني أنا خاصة. ونحن، آل كارامازوف، نحن جميعاً سواء في هذه النقطة! فيك أيضاً تحيا هذه الحشرة، فيك أنت الملاك! إنها تُغلي دمك تُهِبُّ العاصفة في نفسك. العاصفة! ذلك أن الشهوة أقوى من عاصفة، بل شر من عاصفة! الجمال شيء رهيب مخيف! هو رهيب لأنه لا يُحدّد... ولا يمكن تحديده لأن... الله ملأ الأرض ألغازاً وأسراراً. الجمال! هو الشطآن تتقارب، هو الأضداد تتحد ويحل بينها الوئام. لست على جانب كبير من الثقافة يا أخي، ولكنني فكرت ملياً في هذا الأمر. ما أكثر الأسرار والألغاز التي تضني الإنسان في هذا العالم! «ألا إن نفسي لتضطهد اضطهاداً حين

تعيش تبين هذه الألغاز التي ما من سبيل لحلّها» حلّها كما تستطيع، ودبّر أمرك بحيث تخرج منها سالماً». الجمال! إن الشيء الذي لا أطيق احتماله هو أن أرى رجالاً متمتعين بفكرٍ سام وقلب رفيع، يتخذون مادونا في أول الأمر مثلاً أعلى يعبدونه، ثم يهوون إلى سدوم فيتخذونها هي مثلاً أعلى يمحضونه الحب والعبادة! غير أن ما هو أفظع من ذلك أيضاً أن ينذر الرجل نفسه لسدوم دون أن يستطيع التنكر لمادونا مثلاً أعلى، وأن يشعر بهذا المثل الأعلى مشتعلاً في قلبه على الدوام، اشتعالاً صادقاً، كما كان يشتعل في سني الشباب التي تبرأت من الخطيئة. النفس الإنسانية واسعة، مسرفة في السعة... وددت لو أستطيع أن أضيقها... الشيطان وحده يعلم ما الذي يختبئ في قرارة هذا على كل حال. إن ما يبدو للعقل عاراً، هو للقلب جمال كامل. هل في سدوم جمال؟ ثق أن الجمال، في نظر أكثر الناس، لا وجود له إلا في الخطيئة والضياع. هل كنت تعرف هذا السر؟ أفظع ما في الجمال ليس أنه مخيف، بل إنه سر لا يُفهم. في الجمال، يصطرع الرحمن مع الشيطان.. وفي قلب الإنسان إنما تدور رحى هذا الصراع. لئن تكلمت على هذا كثيراً، فلأن بي منه عذاباً. استمع إليّ الآن. لقد وصلت إلى الحديث عن الوقائع.

– 4 –

اعتراف قلب حار في حكايات

نعم لقد لهوت وعبثت وتلذذت هناك! ادّعى أبونا في هذا الصباح أنني كنت أرمي ألوف الروبلات من أجل أن أغوي البنات! هذا كلام مقزّز وكذب وضيع. . . لم يحدث شيء من ذلك قط! أما ما حدث فلم يُطلب مني شيء من مال من أجله. المال بالنسبة لي أمر ملحق، حمى غابرة، زينة لا أكثر. أحب سيدة في ذات يوم، فإذا أنا في الغداة أؤثر عليها بنتاً من بنات الشوارع. وأنا أنفق على هذه وتلك كلتيهما وألقي بالنقود دون حساب، والموسيقى تصدح، والصخب، والغجريات. وكنت أعطيهن هن أيضاً مالاً إذا اقتضى الأمر، ذلك أنهن يحرصن على هذا، بل يحببنه حباً قوياً (يجب أن أعترف بذلك) وهن يقبَلْنه فرحات ممتنات. أحبتني نساء من المجتمع الراقي. . . لا جميعهن، بل عدد كاف منهن. . . ولكن كانت تجذبني دائماً قبل كل شيء الحواري الضيقة، والأزقة المسدودة المظلمة، البعيدة عن العمران. فهنالك المغامرة، هنالك الشيء الذي لا تتوقعه. هنالك الورود التي تنبت على الدمن. أقول ذلك الآن مجازاً يا أخي. أما في هذه المدينة فلم تكن هناك أزقة فعليّة بيد أنه كانت أزقة خُلُقية. لو كنت مثلي لفهمت قصدي. لقد أحببت المجون كما أحببت عاره. لقد أحببت القسوة: ألستُ بقّة، ألست حشرة خبيثة؟ إنني في كلمة

واحدة: كارامازوف! إن مجتمع المدينة التي كنت أعيش فيها قد نظّم في ذات يوم نزهة جماعية. ركبنا سبع عربات ترويكا. كان ذلك في فصل الشتاء. ففي العربة التي كنت فيها أخذتُ، بفضل الظلمة، أشد على يد فتاة كانت جارتي، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتي. كانت طفلة. هي بنت موظف صغير. إنها فقيرة حلوة، عذبة، طيّعة، لطيفة... سمحت لي أن أتمتع بحريات كبيرة في الظلام! كانت المسكينة تتخيل أنني سأذهب من الغد إلى أبويها لأخطبها (كنت أقدّر خاصةً كخطيب ممكن). ولكنني لم أخاطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك، وتجاهلتها تجاهلاً تاماً مدة خمسة أشهر. كنت أرى عينيها في أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعاني من ركن من الصالة، فألاحظ وميض الحنق الوديع الذي يشتعل في نظرتها. فكان هذا والله لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة في نفسي. وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر، وسافرت دون أن تغفر لي وتصفح عني، ولعلها ظلت تحبني... وقد سعد الزوجان بعد ذلك. لاحظ أنني لم أقصص هذه الحكاية على أحد، وأنني لم أعرّض سمعة الفتاة لسوء. صحيح أن لي رغبات منحطة، وأنني أجد لذة في الانحدار إلى حضيض الخسة، ولكنني لست مجرّداً من الشرف... إن وجهك يتخضّب الآن بحمرة شديدة، وإن عينيك تلتمعان. طيب... لن أزعجك بعد الآن بسرد مثل هذه الحكايات القذرة. ولكن ما ذكرته لك ليس إلا شيئاً قليلاً... هو زخرفات إضافية على طريقة بول دو كوك[84]، ولكن الحشرة القاسية قد نمت في نفسي واستولت عليّ واستبدت بي. ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندي... إن لي منها «ألبوماً» كاملاً فليمتعهن الله بالصحة أولئك العزيزات... ولقد كنت أحاول دائماً، حين أقطع صلتي بإحدى النساء، أن أتقي المشاكل

والمشاهد. ثم إنني ما أفشيت سراً في حياتي قط، ولم أعرّض سمعة إحداهنّ لسوء. ولكن كفاني ما قلته حتى الآن في هذا. أرجو أن لا يدور في خلدك أنني جئت بك إلى هنا لأقصّ عليك هذه المبائس! هناك أمر أشق من هذه الأمور أحب أن أفضي به إليك. ولا يدهشك مع ذلك أنني لا استحي منك وأنني ربما ألتذ بانعدام الخجل في حضورك...

قاطعه أليوشا قائلاً:

- أنت تقول هذا لأنك رأيت احمرار وجهي. إن وجهي لم يحمرّ بسبب حكاياتك، ولا بسبب سلوكك، بل لأنني مثلك...

- أنت؟ أنت مثلي؟ ألا إنك لتبالغ قليلاً...

قال أليوشا بحرارة:

- لا... لا أبالغ (كان واضحاً أن هذه الفكرة قد شغلته منذ مدة طويلة). ليس بيننا إلا فرق في المقدار. نحن لا نقف على درجة واحدة من السلّم. فأنا ما زلت في أسفل، بينما وصلت أنت إلى أعلى، إلى الدرجة الثالثة عشرة مثلاً. هذا هو رأيي، ولكن الأمر واحد في الحقيقة، واحد تماماً... إن من وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم لا بد أن يبلغ ذروته.

- ففي رأيك إذن إن على المرء أن يتجنب وضع قدمه على الدرجة الأولى؟

- يجب على المرء أن يتجنب ذلك إذا استطاع.

- هل تستطيع هذا أنت؟

- يبدو أنني لا أستطيع.

- اسكت يا أليوشا، اسكت يا عزيزي الطيب. وددت لو أقبّل يدك، هكذا، حناناً وعطفاً. إن تلك الوغدة جروشنكا خبيرة في

نفوس الناس. لقد أكّدت لي ذات مرة أنها ستزدردك في يوم من الأيام لقمةً واحدة. ها أنذا أمسك عن الكلام فما أقول شيئاً بعد. دعنا من هذه العفونة، ولنصل إلى مأساتي الشخصية... التي ليست خيراً منها على كل حال، فهي معجونة بالخسّة والدناءة أيضاً. اسمع: لئن افترى أبونا عليّ حين تحدث عن فيتات بريئات لطخت شرفهن، فهذا لا ينفي أن ذلك عينه هو ما حدث في مأساتي، رغم أنه لم يحدث إلا مرة واحدة، أو قل أخيراً إنه لم يحدث قط. وأبونا العجوز الذي اتهمني بأفعال لا وجود لها، يجهل هذه القصة بالذات. إنني لم أحدّث عنها إنساناً في يوم من الأيام. ستكون أنت أول من أطلعه عليها، بعد إيفان طبعاً. ذلك أن إيفان يعرف كل شيء، وقد عرفه قبلك بزمن طويل. ولكن إيفان قبر.

- إيفان قبر؟

- نعم.

كان أليوشا يصغي إلى كلام أخيه بانتباه شديد.

- رغم أنني كنت ملازماً في تلك الكتيبة، وهي كتيبة ترابط على الحدود، فقد كنت تحت المراقبة بمعنى من المعاني، أشبه أن أكون منفياً. وقد استقبلني مجتمع المدينة الصغيرة التي فيها المعسكر استقبالاً ممتازاً واحتفى بي. كنت أنفق المال بغير حساب، وكانوا يظنونني غنياً، وكنت أنا أظن نفسي غنياً كذلك. يبدو على كل حال أنهم قد استلطفوني لسبب آخر أيضاً. كانوا كثيراً ما يهزون رؤوسهم مستغربين، ولكنهم كانوا يحبونني حقاً. وفجأة أخذ المقدم، وهو رجل طاعن في السن، يناصبني العداء، ويلتمس الفرص لمناكدتي ومشاكستي. غير أنني لم أكن بلا سند أعتمد عليه، وعدا ذلك كانت المدينة كلها تتحزب لي. ثم إنه كان من الصعب عليه أن يجد ما

يستحق الشكوى مني وإلحاق الأذى بي. ولا شك في أنني كنت مخطئاً في حقه، لأنني تعمدت أن لا ألتزم ما ينبغي أن ألتزمه تجاهه من واجبات التوقير. لقد كنت أصطنع التكبر والاستعلاء. إن ذلك العجوز العنيد، الذي لم يكن امرءاً خبيثاً شريراً وكان رب أسرة طيب السريرة، كان قد تزوج مرتين، ولكن ماتت زوجتاه كلتاهما. فأما الأولى، وهي من بسطاء الناس أصلاً، فقد خلّفت له بنتاً بسيطة كأمها كانت في ذلك الأوان تقترب من السنة الرابعة والعشرين من عمرها. كانت تعيش عند أبيها مع إحدى خالاتها. وكانت الخالة امرأة بسيطة النفس مذعنة الطبع. ولكن ابنة أختها، كبرى ابنتَيْ المقدم، كانت تجمع إلى بساطة الخلق كثيراً من الجرأة والإقدام. إنه ليسرني وأنا أستحضر ذكراها أن أطريها وأثني عليها: إنني يا صديقي لم ألق في حياتي امرأة تضارع تلك الفتاة جمال طبع. كان اسمها أجافيا... تصور... أجافيا إيفانوفنا. ولم تكن خالية من الحسن في الذوق الروسي: قامة طويلة ممتلئة قوية، عينان رائعتان، ولكن في تعبيرهما شيئاً من عامية. ولم تتزوج الفتاة، رغم أنها خُطبت مرتين. لقد رفضت الخطبة الأولى والخطبة الثانية كلتيهما، دون أن تفقد بشاشتها وجذلها وصفاء مزاجها. وقد انعقدت الصلة بيني وبينها - لا على تلك الطريقة، لأن كل شيء قد ظل بيننا طاهراً بريئاً - وإنما أصبحنا صديقين لا أكثر. والواقع أنه كثيراً ما اتفق لي أن صادقت بعض النساء مصادقة خالصة شريفة. وكنت حين أتحدث معها أخرج على هذه الأمور أحياناً، من باب الصراحة، فما تزيد على أن تضحك. أعلم أن نساء كثيرات يحببن الصراحة... ولكن تلك كانت عدا ذلك فتاة، فكان هذا يسليني كثيراً. يجب أن أضيف إلى ذلك أنه لم يكن في وسع المرء أن يسميها آنسة. وكانت الفتاة

وخالتها تعيشان في منزل الأب ذليلتين بإرادتهما، لا تضعان نفسيهما في مستوى سائر أفراد المجتمع. وكان الناس جميعاً يحبون أجافيا حباً عظيماً ويحتاجون إليها، لأنها كانت تملك موهبة فذة في الخياطة، ولكنها لا تتقاضى عن خدماتها مالاً، وإنما هي تعمل لتكون نافعة للناس لا أكثر. على أنها كانت لا ترفض المال إذا أُهدي إليها، أما المقدم فقد كان من نوع مختلف كل الاختلاف. لقد كان شخصية من أهم شخصيات المدينة. كان يعيش حياة عريضة، ويستقبل الضيوف في منزله كثيراً، ويقيم مآدب غداء، وينظم أمسيات رقص. وحين وصلتُ إلى المدينة والتحقت بالكتيبة لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث عن ابنة المقدم الصغرى التي ستصل قريباً من العاصمة، والتي يقال إنها ذات جمال خارق نادر، والتي تركت منذ زمن قصير مدرسة داخلية ارستقراطية ببطرسبرج أتمت فيها دراستها. إن هذه الفتاة الأخرى ليست إلا كاترينا إيفانوفنا نفسها، بنت المقدم من زوجته الثانية التي ماتت هي أيضاً. كانت زوجته الثانية هذه تنتمي إلى أسرة كبيرة - أحسب أن أباها كان جنرالاً معروفاً - رغم أنها لم تحمل إلى زوجها، هي أيضاً، مهراً ضخماً... ذلك أمر عرفته من مصدر مطلع. لقد كان لها إذاً أقرباء، وربما كانت لها آمال في أكثر تقدير، أما المال فلم يكن عندها مال... على أن وصول طالبة بطرسبرج إلى المدينة (وقد جاءتها زائرةً فحسب) قد كان حدثاً من الأحداث ردّ إلى المدينة صباها إن صح التعبير. فهؤلاء أرقى سيدات مجتمعنا، وهن زوجتا «صاحبي سعادة»، وزوجة عقيد، وسيدات أخرى كثيرات، هؤلاء هن يحطن بالفتاة ويحتفين بها ويتبارين في إقامة المآدب لها. لقد أصبحت الفتاة ملكة حفلاتنا الراقصة ونزهاتنا ورحلاتنا، حتى لقد أقيمت على

شرفها حفلة تمثيلية رُصد ريعها لإعانة مربيات عجائز لا أدري مَنْ هنّ. لم أقل أنا شيئاً، بل بقيت بعيدا متنحياً، ألهو وأقصف على ما يشاء لي هواي. وفي تلك الآونة بعينها إنما اقترفت فضيحة من تلك الفضائح التي أثارت المدينة كلها. لقد لاحظت في ذات مساء، أثناء حفلة استقبال أقامها قائد الكتيبة، أنها كانت ترمقني بنظرها، ولكنني لم أقترب منها بل تظاهرت بالاستخفاف بهذه الفرصة التي عرضت لي للتعرف بها. وبعد ذلك بزمن قصير، قررت أثناء سهرة أخرى، أن أتجه إليها بالكلام. فلم تكد ترضى أن تتنازل فتنظر إليّ، وعبّرت شفتاها عندئذٍ عن احتقار. قلت بين وبين نفسي عندئذٍ: «اصبري قليلاً... سأعرف كيف أثأر لنفسي!» وكنت في ذلك الأوان شرس الطبع، شديد التهور... وكنت أعرف ذلك في نفسي... وقد شعرت خاصة أن «كاتينكا» ليست واحدة من تلك الآنسات الساذجات الكثيرات بنات المدارس الداخلية، وإنما هي إنسانة قوية الطبع، ذات كبرياء وخيلاء، فاضلة طاهرة حقاً... والأمر الذي أشعرني بالمذلة خاصة أنها عدا ذلك ذكية مثقفة، على حين أنني لا ذكي ولا مثقف. لعلك تظن أنني أردت أن أخطبها؟ أبداً. كل ما كنت أتمناه هو أن أستطيع، أنا الفتى البارز المرموق، أن أثأر منها لنفسي، لأنها لم تعرف قيمتي ولم تحسّ بقدري. وبانتظار ذلك اندفعت ألهو وأقصف بغير قصد ولا اعتدال، حتى إن المقدم انتهى به الأمر إلى حبسي ثلاثة أيام. وفي تلك الآونة إنما أرسل إليّ أبونا ستة آلاف روبل بعد أن بعثت إليه بتنازل مكتوب عن جميع حقوقي الأخرى. لقد اعترفت في ذلك التنازل بأننا قد «صفينا حساباتنا»، وبأنني لن أطالبه في المستقبل بشيء البتة. ولقد كنت لا أفهم شيئاً من أمر هذه الحسابات آنذاك. ويجب أن أعترف لك يا أخي، أنني قبل مجيئي إلى هنا،

وحتى الآونة الأخيرة، بل وحتى يومنا هذا الذي نحن فيه، لم أفهم قط شيئاً من أمر هذه الخلافات المالية بيني وبين أبينا. على كل حال، دعنا من هذه المسألة الآن... وإن لي إليها عودة. المهم أنني بعد أن تلقيت المال بزمن قصير علمت علم اليقين، من رسالة بعث بها إليّ صديق، أمراً يمكن أن يهمني كثيراً، وهو أن المراجع العليا مستاءة من صاحبنا المقدم، وأنها تشتبه في أمره وتظن فيه سوء الإدارة وارتكاب المخالفات، أي إن أعداءه يدبرون له مكيدة خبيثة. وها هو ذا آمر الفرقة يصل على حين فجأة، فيقرّع صاحبنا المقدم تقريعاً شديداً، وما هي إلا فترة قصيرة إذا به يتلقى أمراً بتقديم استقالته. لن أقصّ عليك تفاصيل هذه الحكاية. فإنما المهم أن هذا الرجل كان له في الواقع أعداء. وقد تنكرت له المدينة كلها فجأة، وأظهرت له ولأسرته فتوراً شديداً وصار الناس يتحاشونهم تحاشي مرضى مصابين بالطاعون. وفي تلك الاونة إنما ارتكبت فعلتي الأولى. ففي ذات يوم التقيت بأجافينا إيفانوفنا التي ظللت صديقاً لها:

- هل تعلمين أن الأموال التي في عهدة أبيك تنقص أربعة آلاف وخمسمائة روبل؟

فقالت لي أجافيا:

- كيف هذا؟ لماذا تقول هذا الكلام؟ لقد جاء الجنرال مفتشاً منذ مدة قصيرة، فكان المال كله كاملاً...

قلت لها:

- صحيح. يومذاك كان كاملاً، أما الآن فهو ناقص.

جزعت كثيراً وقالت:

- لا تخفني! من قال لك هذا الكلام؟

فأجبتها:

- اطمئني... لن أقول لأحد كلمة واحدة. أنت تعلمين أنني كالقبر صمتاً حين يجب الصمت. ولكنني أحب أن تعرفي أيضاً ما يلي «على كل حال»، كما يقال، إذا طولب أبوك بهذه الأربعة آلاف وخمسمائة روبل، فلم يستطع أن يردها فسيكون عليك حتى لا يمثل أمام المحاكمة وحتى لا يُحكم عليه في آخر عمره بأن يصبح جندياً بسيطاً سيكون عليك أن تبعثي إليّ، خفيةً، بأختك الطالبة. لقد تلقيت أخيراً مبلغاً ضخماً، سأعطيها منه أربعة آلاف وخمسماية روبلاً وسأحفظ السر حفظ شيء مقدس فلا يعرف أحداً شيئاً عن هذا الأمر في يوم حتى الأيام.

هتفت تقول:

- يا للوغد! (تلك هي الكلمة التي استعملتها) ألا إنك لوغد شرير! كيف تجرؤ أن....؟.

وتركتني مستاء أعنف الاستياء، وصحت أقول لها مرة أخرى إنني سأحافظ على السر محافظة تامة، وأكتمه كتماناً كاملاً. يجب أن أقول لك فوراً إن هاتين المرأتين، أجافيا وخالتها، قد تصرفتا في هذه القضية تصرف مَلاَكَين. كانتا في الواقع تعبدان كاترينا المتكبرة عبادةً، تنمحيان أمامها امحاءً، وتسعيان بين يديها كخادمتين... ومع ذلك أسرعت أجافيا تقص الحادث على أختها، أي تروي لها حديثي معها. عرفت ذلك فيما بعد. لقد قالت لها كل شيء. وكان ذلك هو المطلوب بالنسبة لي طبعاً.

ففي ذات يوم وصل رائد جديد على حين فجأة ليستلم قيادة الكتيبة. وتمت الإجراءات المعتادة. فإذا بالمقدم العجوز يمرض بغتة، ويعلن أنه لا يستطيع مبارحة السرير، ولا يسلّم أموال الدولة.

وقد أكد طبيبنا كرافتشنكو أنه مريض حقاً، وأنه لا يتظاهر بالمرض تظاهراً. ولكنني كنت أعرف حقيقة الأمر، فقد اطلعت على تفاصيل المسألة سراً منذ زمن طويل: وهي أن المال يكون في الخزنة عند إجراء الحسابات في موعدها من كل سنة، ولكنه يختفي بعد ذلك دائماً إلى حين، وذلك منذ أربع سنين. لقد كان المقدم يقرض هذا المبلغ رجلاً موثوقاً أميناً من تجار المدينة هو الأرمل العجوز تريفونوف ذو اللحية الطويلة والنظارتين الذهبيتين. فكان تريفونوف يمضي بالمبلغ إلى السوق فيعقد صفقات ويبرم أعمالاً حتى إذا عاد إلى المدينة رد المبلغ المقترض إلى المقدم مضيفاً إليه بعض الفوائد وبعض الهدايا. ولكن تريفونوف حين رجع هذه المرة من السوق لم يرد المبلغ (عرفت هذه التفاصيل بمصادفة محضة من ابنه القذر الذي هو وريثه والذي هو أفسد مخلوق في هذا العالم). ولم يرد تريفونوف المبلغ إذن. فلما هرع إليه المقدم يطالبه برد المال قال له تريفونوف: «أنا لم أقترض منك شيئاً، ولا كان في وسعي أن أقترض منك شيئاً على كل حال». فإذا بصاحبنا المقدم يرقد في فراشه، ويغطي رأسه بمنشفة، وتأخذ السيدات الثلاث تضع على يافوخه ثلجاً. وفجأة يصل إلى منزله فرّاش حاملاً دفتر الحسابات مع أمر بردّ «أموال الدولة بغير إبطاء، في غضون ساعتين على أكثر تقدير». فيضع العجوز توقيعه على المذكرة المرسلة إليه، وقد رأيت بنفسي توقيعه في هذا الدفتر فيما بعد، ثم ينهض قائلاً إنه يريد أن يرتدي بزته العسكرية، فيمضي إلى غرفة نومه، فيتناول بندقية صيد بروحين، فيحشوها برصاص من رصاص الحرب، ويخلع حذاء قدمه اليمنى، ويضع فوهة البندقية على صدره، ويتلمس الزناد بإصبع قدمه. ولكن أجافيا التي ساورت فكرها شبهات، لأنها تذكرت

الحديث الذي جرى بيني وبينها، كانت قد تسللت وراءه خلسةً ورأت في الوقت المناسب ما كان يريد أن يصنعه بنفسه، فهرعت إلى الغرفة وارتمت على أبيها من خلف وأمسكت ذراعيه، فانطلقت الرصاصة في اتجاه السقف لم تجرح أحداً. وهرعت المرأتان الأخريان أيضاً، فتمت السيطرة على العجوز، وانتُزعت منه البندقية. لقد رُوي لي هذا المشهد تفصيلاً فيما بعد. وكنت في تلك اللحظة في مسكني. وكان الوقت بعد الغروب، فأنا أستعد للخروج. لقد ارتديت ثيابي، وصففت شعري، وعطّرت منديلي... وإني لأتناول قبعتي، إذا بالباب يُفتح فجأة، وإذا بكاترينا إيفانوفنا أمامي، في مسكني.

إن مصادفات غريبة تقع أحياناً.. لم يرها أحد من سكان المدينة آتية إليّ، فلم يعرف أحد بهذه الزيارة. كنت أسكن في شقة أجّرتنيها أرملتا موظفين صغيرين، طاعنتان في السن جداً، تخدماني باحترام، وتطيعان أوامري طاعة عمياء. أمرتهما أن لا تنطقا بحرف واحد في أمر هذه الزيارة، فكانتنا خرساوين كخرس الشبوط. أدركت كل شيء من أول نظرة طبعاً. دخلت الفتاة، ونظرت إليّ وجهاً لوجه. كان في عينيها القاتمتين عزم وحزم، بل كان فيهما تحدٍ، غير أن شيئاً من تردد كان يلم بشفتيها ويطوف حول فمها.

- قالت لي أختي إنك ستعطيني أربعة آلاف وخمسمائة روبل إذا جئت أطلبها منك... بنفسي. فها أنذا جئت... هات المبلغ!..

لم تستطع أن تزيد على ذلك شيئاً، فقد اختنقت وجزعت وتكسر صوتها وارتجفت شفتاها، واختلج خداها. أتصغي إليّ يا أليوشا أم تُراك نمت؟

قال أليوشا منفعلاً:

- ميتيا، أنا أعلم أنك ستقول لي الحقيقة كلها.

- سأقول لك الحقيقة، اطمئن. سأقول لك الحقيقة ولن أداري نفسي. إليك الحقيقة إذاً: الفكرة الأولى التي ساورتني هي فكرة جديرة بواحد من آل كارامازف. لقد اتفق لي في الماضي يا أخي أن لدغتني حشرة فرقدت في فراشي أسبوعين من الحمى. فاعلم أن حشرة أخرى قد لدغتني في تلك اللحظة في قلبي... هي الحشرة المفترسة الكاسرة، هل تفهم؟ شقلتُ الفتاة ببصري. هل رأيتها؟ إنها جميلة جمالاً رائعاً، ولكن ليس وجهها هو الذي بدا لي جميلاً عندئذٍ: لقد كانت في تلك اللحظة جميلة بنبل نفسها وعظمة روحها بالقياس إليّ أنا الشقي، كانت جميلة بالتضحية التي تقدمها في سبيل أبيها بالقياس إليّ أنا البقة الحقيرة! وها هي ذي الآن تقع تحت سلطان هذه البقة، ها هي ذي الآن خاضعة خضوعاً كاملاً لي أنا، أنا الشقي، خاضعة كلها، روحاً وجسماً. كانت محاصرة... سأعترف لك بالحقيقة من غير لف ولا دوران: إن هذه الفكرة التي خطرت ببالي، إن فرحة الحشرة هذه التي نبتت في نفسي، قد استولت عليّ في أول الأمر استيلاءً تاماً وملأت قلبي إلى حيث أوشك أن ينفجر من فرط اللوعة. بدا لي أنه ليس ثمة مجال لمقاومة، وأنه لم يبق لي إلا أن أتصرف تصرف بقة، تصرف رتيلاء مفترسة، بغير شفقة ولا رحمة... وكادت تنقطع من ذلك أنفاسي. افهمني حق الفهم... إنه لبديهي أنني لو فعلتُ لمضيت أخطبها في اليوم التالي، لأختم هذه المغامرة بأناقة ونبل إن صح التعبير، فما يعلم أحد بما جرى، ولا يستطيع أن يعلم. صحيح أن لي شهوات دنيئة، ولكنني مع ذلك رجل شريف. غير أنني في تلك اللحظة سمعت كأن صوتاً يهمس في أذني قائلاً «دعك من هذا... إن هذه المرأة لن تستقبلك إذا

ذهبت تخطبها في الغد، وستكتفي بأن تأمر حوذيّها بأن يخرجك مطروداً، قائلة لك بذلك: افضح سمعتي، وشهّر بي في المدينة كلها، فأنا لا أخاف منك!» ألقيت نظرة على الفتاة، فأدركت أن ذلك الصوت لم يكذّبني، فذلك بعينه ما سيحدث. لسوف أطرد شر طردة: إنني أقرأ هذا في عينيها حتى في هذه اللحظة، استولى عليّ حنق مسعور حين خطرت ببالي هذه الفكرة، فاشتهيت فجأة أن أقوم بأحقر وأسفل عمل ممكن، أن أقوم بعمل خليق بصاحب دكان: أنظر إليها مبتسماً وأدمّرها تدميراً في مكانها، هنا، أمامي، قائلاً لها بلهجة لا يجيدها إلا صاحب دكان:

- أتحسبينني أعطيك أربعة آلاف؟ أنا قلت ما قلته مازحاً يا آنسة! ألا إنك قد برهنت إذاً على خفة وطيش حين حملت كلامي محمل الجد! مائتا روبل، معقول!... لو سألتني أن أعطيك مائتي روبل لفعلت، ولفعلت مسروراً... أما أربعة آلاف روبل يا آنسة، فذلك مبلغ أضخم من أن نبذّره من أجل أمور تافهة كهذه! لقد أزعجت نفسك في غير طائل يا آنسة!

هل ترى يا أليوشا؟ لو قد قلت لها هذا الكلام لضاع كل شيء طبعاً! كانت ستهرب... ولكنني أكون قد ثأرت لنفسي ثأراً رهيباً، وأكون قد أرضيت كرامتي الجريحة إرضاءً جهنمياً! كنت سأظل أبكي طوال حياتي بعد ذلك حسرةً وأسفاً، ولكنني لو قلت لها ذلك الكلام لاستطعت على الأقل أن أنتصر عليها في تلك اللحظة انتصاراً ساحقاً! صدقني إذا قلت لك إنني لم يتفق لي يوماً أن نظرت إلى أي امرأة في ظرف كهذا الظرف نظرةً فيها كره، أما في تلك المرة فقد لبثت ثلاث ثوان أو خمساً أتفرس فيها وأنا أشعر بكره رهيب... أحلف لك... هو ذلك النوع من الكره الأهوج الطائش الذي لا

تفصله عن الحب الجامح المجنون إلا شعرة! اقتربت من النافذة، ووضعت جبيني على زجاجها البارد. . . إنني أتذكر الآن أن ملامسة الزجاج المتجلد قد أحدثت لي إحساساً مثل حرق قوي. اطمئن: لم أبقها عندي طويلاً. التفتّ، واتجهت نحو منضدتي، ففتحت الدُرج وأخرجت منه الحوالة (كنت قد أودعتها معجمي الفرنسي)، وهي بمبلغ خمسة آلاف روبل تدفع «لحامله». أريتها الحوالة دون أن أنطق بكلمة واحدة، ثم طويتها وأعطيتها إياها. وبعد ذلك فتحت باب الممر بنفسي، ثم تراجعت خطوة إلى وراء، وحييتها منحنياً حتى الحزام، تحيةً فيها أعظم الاحترام. . . تستطيع أن تصدّق ذلك! . . . ارتعشت الفتاة من أخمص قدميها إلى قمة رأسها، وحدقت إليّ لحظة، وانكفأ لونها انكفاءً رهيباً، ثم إذا هي، على حين فجأة، دون أن تنطق بكلمة واحدة، ودون أن تظهر شيئاً من اندفاع، تنحني هي أيضاً، برفق وعمق، فما تزال تميل حتى يلامس جبينها الأرض، فتحييني ساجدة هذا السجود، لا على طريقة آنسة تعلمت في مدرسة داخلية، بل على الطريقة الروسية! ثم نهضت بوثبة واحدة، وولّت هاربة. وكنت حاملاً سيفي في تلك اللحظة فسللته ووددت لو أغمده في صدري. لماذا؟ لا أدري! لو قد فعلت لكان هذا مني حماقة طبعاً، ولكن أحسب أن ذلك كان ثمرة الحماسة. هل تفهم أن من الممكن ان يقتل الإنسان نفسه في بعض لحظات الحماسة؟ على أنني لم أفعل شيئاً من ذلك، واكتفيت بأن قبّلت السيف، ثم أعدته إلى غمده. تلك تفاصيل لم يكن من الضروري أن أرويها لك على كل حال. ويخيّل إليّ أنني قد زخرفت دوري قليلاً حين وصفت لك الصراعات كلها، إنني قد أضفت عدة أشياء لأمجّد نفسي. لا ضير. . . لنسلّم بهذا. . . تباً لجميع الجواسيس على قلب الإنسان!

تلك هي «حادثتي» مع كاترينا إيفانوفنا! اثنان يعرفانها الآن: أنت وأخي إيفان. . . ولا أحد يعرفها سواكما!

نهض دمتري فيدوروفتش، وسار بضع خطوات، مضطرباً اضطراباً شديداً، وأخرج منديله فجفف به جبينه. ثم عاد فجلس، لكنه لم يجلس في المكان الذي كان يجلس عليه حتى تلك اللحظة، وإنما جلس على المقعد المواجه، المستند إلى الجدار المعارض، فاضطر أليوشا أن يستدير حتى يقابله وجهاً لوجه.

- 5 -

اعتراف قلب حار
«والقدمان في الفضاء»

قال أليوشا:

- الآن عرفت الجزء الأول من هذه المسالة.

- تفهم الجزء الأول، وهو دراما مُثّلت في مدينة أخرى أما الجزء الثاني فهو مأساة ستجري أحداثها هنا.

قال أليوشا:

- لم أفهم حتى الآن شيئاً من هذا الجزء الثاني.

- وهل تظن أنني، أنا نفسي، أفهم شيئاً منه؟

- لحظةً يا دمتري. هناك عنصر أساسي. قل لي: أنت خطيبها، أليس كذلك؟ وما زلت خطيبها؟

- لم أخطبها فوراً، وإنما خطبتها بعد الحادث بثلاثة أشهر. قلت لنفسي غداة ذلك اليوم إن كل شيء قد انتهى، وإنه لن يكون لما وقع تتمة، فإن مضيت أخطبها كان ذلك حطة وصغاراً. وهي، من جهتها، لم تحرك ساكناً طوال الأسابيع الستة التي قضتها في المدينة بعد ذلك، ولا أشعرتني بوجودها، اللّهم إلا مرة واحدة في الواقع: ففي اليوم الذي أعقب زيارتها جاءتني خادمتها وأعطتني حزمة دون أن تنطق بكلمة واحدة. قرأت على الحزمة عنواني. وفضضت

الحزمة فوجدت فيها بقية الخمسة آلاف روبل. لقد كانت في حاجة إلى أربعة آلاف وخمسمائة فقط، فباعت السند بخسارة قدرها أكثر من مائتي روبل، ثم أرسلت إليّ الباقي وهو مائتان وستون روبلاً فيما أظن، ولكنني لا أتذكر مقدار المبلغ تذكراً واضحاً. لم يكن في الحزمة إلا المال... لم يكن فيه كلمة شرح واحدة. بحثت في داخل الحزمة عن أية إشارة ولو بالقلم الرصاص، فلم أظفر بشيء. ما العمل؟ اندفعت ألهو وأقصف مزيداً من اللّهو والقصف، وبلغت من ذلك حداً اضطر معه الرائد الجديد أن يقرّعني تقريعاً شديداً. أما المقدم فقد ردّ أموال الدولة كاملة لا تنقص كوبكاً واحداً، فدهش جميع الناس، لأنهم كانوا مقتنعين بأنه بدّد هذا المبلغ. وما لبث بعد ردّ المال أن مرض فلزم فراشه وظل راقداً حوالى ثلاثة أسابيع ثم أصيب بضمور دماغي على حين بغتة فمات بعد خمسة أيام. وقد شيّعت جنازته تشييعاً عسكرياً لأن وقته لم يكن قد اتسع لتقديم الاستقالة التي طُلِبَ إليه أن يقدمها. وسافرت كاترينا إيفانوفنا إلى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام، تصحبها أختها وخالتها. وفي تلك اللحظة فقط (أنا ما رأيتهن ولا ودّعتهن في المحطة) إنما تلقيت بطاقة صغيرة من ورق أزرق هو ورق الرسائل الأنيق ذي الحافة المخرّمة الجميلة، وقد كتب على البطاقة سطر واحد بالقلم الرصاص: «سأكتب إليك. انتظر رسالتي. ك». ذلك كل شيء.

سأسرد لك التتمة مقتضباً. في موسكو تغير حالهن بين عشية وضحاها، تغيراً مفاجئاً لا يعرف المرء له مثيلاً إلا في الحكايات العربية. لقد فقدت قريبتُها الجنرالة ابنتَيْ أختها على حين فجأة، وهما أقرب ورثتها إليها، فقدتهما مصابتين بالجدري الذي خطف الأولى ثم خطف الثانية بعد أيام قليلة، فاهتزت الجنرالة اهتزازاً عميقاً

لهذا المصاب فاحتضنت كاترينا وفرحت برؤيتها كأنها ابنتها، وأصبحت كاترينا نجمتها الهادية، أنها الأمن والسلام في وحدتها الموحشة. استولت الجنرالة على كاترينا، وسرعان ما كتبت وصية جديدة لمصلحتها. على أن الوصية تخص المستقبل، أما الآن فقد وهبت لها ثمانين ألف روبل أعطتها إياها بغير إبطاء، بحجة أن هذا المبلغ مهر لها، من أجل أن تستطيع التصرف فيه على ما يشاء لها هواها. كانت الجنرالة امرأة هستيرية، وقد أتيح لي أن ألاحظها بعد ذلك في موسكو. في ذات يوم، تلقيت بالبريد أربعة آلاف وخمسمائة روبل، فاستغربت طبعاً وعقدت الدهشة لساني. وبعد تلقي المال بثلاثة أيام وصلتني الرسالة الموعودة. إن الرسالة معي الآن، فأنا أحملها دائماً، وسأحتفظ بها حتى الممات. هل تريد أن ترى الرسالة؟ اقرأها. . . إنني أحرص على أن تقرأها حتماً، إن كاترينا إيفانوفنا تعرض عليّ في هذه الرسالة أن تصبح خطيبتي، تعرض عليّ هذا بنفسها. كتبت تقول ما معناه: «إنني أشعر نحوك بحب لا حدود له. ليكن أنك لا تحبني، لا يهم، كل ما أطلبه منك هو أن توافق على أن تتزوجني. لا تخش شيئاً: فإنني لن أزعجك، ولن أكون إلا قطعة أثاث في منزلك، لن أكون إلا السجادة التي سوف تمشي عليها. . . إنني أريد أن أحبك إلى الأبد، إنني أتمنى لو أنقذك من نفسك. . .» لا أستحق يا أليوشا أن أكرر هذه الأسطر التي كتبتها لي، لا أستحق أن أرددها بألفاظي القذرة، بهذه النبرة الحقيرة التي لازمتني طوال حياتي والتي لم أستطع التخلص منها في يوم من الأيام! لقد حطمت تلك الرسالة قلبي، فما يزال ينزف بتأثيرها حتى الآن. أتظن أنني مرح النفس في هذه الأيام، وأن وضعي لا يعذبني عذاباً شديداً؟ ولقد أسرعت أجيبها (لأنني كنت لا أستطيع أن أسافر إلى موسكو فوراً)،

كاتباً لها من خلال الدموع. غير أن هناك شيئاً سأظل أشعر منه بالخزي والعار ما حييت. لقد ذكرت في رسالتي التي بعثت بها إليها أنها أصبحت تملك الآن ثروة طائلة، وأن لها بائنة ضخمة، أما أنا فلست إلا ضابطاً شحاذاً. نعم، لقد كلمتها عن المال، كلمتها هي عن المال! كان ينبغي لي أن أقبل هذا التفاوت بيني وبينها صامتاً، ولكن هذا الكلام قد أفلت مني رغم أنفي... وكتبت في الوقت نفسه إلى إيفان الذي كان يومئذٍ بموسكو. عرضت عليه الموقف عرضاً دقيقاً في حدود الإمكان - ضمّت الرسالة ست صفحات - وكلفت إيفان أن يذهب إليها. لماذا تنظر إليّ هكذا؟ ما بالك تحملق هذه الحملقة؟ نعم... لقد وقع إيفان في حبها، وما يزال يحبها، أنا أعرف ذلك... في رأيكم أنتم في رأي الناس أنني ارتكبت بهذا حماقة كبرى... ولكن من الممكن أن تكون الحماقة هي الآن سبيلنا الوحيد إلى الخلاص جميعاً! ألست ترى مدى ما تكنه له من تقدير، بل وما تحمله له من احترام؟ كيف يكون في وسعها إذا هي وازنت بيني وبينه، أن تحب رجلاً مثلي ولا سيما بعد كل ما حدث هنا؟

- أما أنا فأعتقد أنها لا تستطيع أن تحب إلا رجلاً مثلك أنت لا مثله هو.

- هي؟ لا... إنها لا تحبني أنا، وإنما تحب نبل نفسها وشهامة روحها...

ذلك ما أفلت من لسان دمتري فيدوروفتش مع شيء يشبه أن يكون كرهاً. ثم سرعان ما أخذ يضحك، ولكن عينيه سطعتا بعد بضع ثوان، واحمرّ وجهه، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة، وصاح يقول بغضب رهيب على نفسه، غضب رهيب لكنه صادق:

- أحلف لك يا أليوشا... صدّق أو لا تصدق... أحلف لك

صادقاً صدق وجود الله وصدق أن يسوع المسيح ربّنا، أحلف لك أنني، مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بعواطفها الرفيعة، أعلم حق العلم أن نفسي لا تعدل جزءاً من مليون جزء من نفسها، وأن لها من صدق ونبل القلب ما لا ينعم به إلا ملاك من ملائكة السماء! وأن يقيني من هذا هو بعينه مأساتي كلها!..أي ضير في أن يحب الإنسان العبارات الجميلة وأن يشوبَ أطهر اندفاعاته شيء من تمثيل؟ ألست أستعمل أنا عبارات مصطنعة؟ ومع ذلك فأنا صادق، صادق تماماً. أما إيفان فإنني أتخيل أنه في هذه الساعة يلعن الطبيعة ولا شك، يلعن الطبيعة هو الرجل الذكي ذلك الذكاء كله! من الذي تفضله المرأة؟ إنها تخص بإيثارها الإنسان النذل الذي برهن هنا، وهو خاطب يعرفه الجميع، على عجزه عن أن يتحكم بميله إلى الدعارة والفجور، وفي حضور خطيبته، هل تفهم؟ نعم... فهذا الرجل الذي هو أنا، يُؤثَر، أما الآخر فيُبعَد... ولماذا ذلك كله؟ لأن فتاة من الفتيات تريد انسياقاً لنبلها أن تتحدى قدرها، وأن تقهر سعادتها! سخف! أنا طبعاً لم أطلع إيفان على خواطري هذه في يوم من الأيام، ولا هو اعترف أي اعتراف أو أشار أية إشارة حول هذا الأمر. ولكن يجب أن ينال كل واحد منا نصيبه، فأما الأفضل فيحتل المكان الذي يستحقه، وأما الآخر الذي لا يستحق ذلك المكان فيغوص في الأزقة المظلمة القذرة. إن هذا الآخر سيجد له مأوى في الأزقة الموبوءة العفنة التي يحبها، والتي تستهويه وتجذبه إليها، والتي يشعر فيها أنه في بيته، ليهلك هنالك في الحقارة المقزّزة راضياً متلذذاً. إنني أسترسل الآن في عبارات جوفاء، وأقول ألفاظاً بالية أجمعها من هنا وهناك. ولكن الأمور ستجري هذا المجرى الذي أصفه. سأغطس أنا في الأزقة، وستتزوج هي إيفان.

قاطعه أليوشا مرة أخرى يقول وقد اضطربت نفسه اضطراباً شديداً:

- لحظةً يا أخي! هنالك نقطة لم تشرحها لي مع ذلك حتى الآن: إنك خطيبها، أليس كذلك؟ أنت خطيبها رغم كل شيء... فكيف يخطر ببالك والحالة هذه أن تفصم خطبتك إذا كانت هي، خطيبتك، لا تريد ذلك؟

- أنا خطيبها، هذا صحيح. وقد احتفلنا بخطوبتنا وفقاً لجميع القواعد المقررة، ونلنا جميع المباركات المألوفة المعهودة. تمّ ذلك فور وصولي إلى موسكو وعلى أفضل صورة في كثير من الأبهة والأيقونات. وقد باركتنا الجنرالة، حتى لقد هنأت كاتيا - هل تصدق ذلك؟ - هنأتها قائلة لها: «أحسنت الاختيار يا بنيتي... إنني أرى قرارة نفس هذا الفتى». أما إيفان فقد ناصبته العداء - هل تتصور؟ - ولم ترض أن تهنئه... وقبل أن أترك موسكو جرت بيني وبين كاتيا أحاديث طويلة، فكشفت لها عن نفسي بنبل وإخلاص، ووصفت لها أخلاقي وصفاً دقيقاً صادقاً، فكانت تصغي إلى ما أقول بانتباه شديد.

فكان استحياء وكانت دموع

وكان كلام رقيق وديع

وكان كذلك كلامٌ فيه كبرياء وخيلاء. وأجبرتني على أن أقطع على نفسي عهداً لأُصلحن حالي. قطعت لها على نفسي ذلك العهد. وهاأنت ذا ترى...

- ماذا؟

- لقد ناديتك اليوم، ودعوتك أن تجيء إلى هنا في هذا النهار - تذكَّر التاريخ!- من أجل أن أوفدك قبل حلول المساء إلى كاترينا إيفانوفنا، فتبلغها...

- أبلغها ماذا؟

- إنني لن أذهب إليها بعد اليوم قط. وانقل إليها تحيتي واحترامي.

- أهذا ممكن؟

- إن غير الممكن هو أن أذهب إليها بنفسي، ولذلك أرسلك إليها بدلاً مني، فكيف أستطيع أن أقول لها هذا الأمر؟

- وما الذي ستفعله بعد ذلك؟

- أضيّع نفسي في الأزقة!

- هي إذن جروشنكا! ستذهب إلى جروشنكا؟

بهذا هتف أليوشا سائلاً بلهجة مرة وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى. وتابع كلامه:

- أيكون ما قاله راكيتين هذا صحيحاً؟ أعترف لك بأنني قد خطر ببالي أنك قد ترددت عليها، لكنني كنت آمل أن تكون قد سئمتها

- أتردد عليها وأنا خطيب؟ أتظن أن هذا ممكن ومقبول، على مرأى ومسمع من جميع الناس، لا سيما والخطيبة فتاة كتلك الفتاة؟ إن لي شيئاً من شرف رغم كل شيء. صحيح أنني منذ اللحظة التي بدأت أختلف فيها إلى جروشنكا قد فقدت صفة الخطيب وفقدت صفة الإنسان الشريف. ذلك أمر أفهمه كل الفهم. ما بالك تنظر إليّ هكذا؟ إعلم أنني حين ذهبت إليها أول مرة إنما ذهبت إليها لغرض واحد هو أن أضربها. كنت أعلم وأعلم الآن علم اليقين أن ذلك الضابط الذي يكلفه أبي بقضاء أعمال له، قد أعطى جروشنكا سنداً ممهوراً بإمضائي، لتطالب بملاحقتي فتضطرني بهذه الوسيلة أن أنسحب. لقد أرادوا تخويفي. لذلك قررت أن أضربها وكنت قد رأيتها مرة من بعيد، فلم تحدث في نفسي أثراً لأول وهلة، وكنت

أعرف وجود صاحبها ذاك التاجر العجوز، الذي هو الآن مريض راقد في فراشه قد بارحته قواه، ولكنه سيترك لها مع ذلك بعد موته كنزاً كبيراً؛ وكنت أعلم أيضاً أنها تحب المال حباً عظيماً، وتحاول أن تربح المزيد منه بالإقراض بِرِبا فاحش لا يعرف الشفقة ولا الرحمة، هذه الوغدة، هذه الحقيرة... فذهبت إليها لأضربها... فإذا أنا أؤخذ بها... كان الأمر صاعقة أو طاعوناً أو ما شئت فسمِّه... ولكنني قد أصبت وما أزال. وأنا أعلم أن كل شيء قد انتهى ولن أرى في الحياة بعد اليوم شيئاً سواها. دارت دورة الزمن. هذا هو حالي. وقد اتفق عرضاً في تلك اللحظة، كأنما على عمد وقصد، أن كان معي ثلاثة آلاف روبل، أنا الذي لست إلا شحاذاً... فذهبنا معاً إلى موكرويه التي تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخاً، فاستدعيت هنالك غجراً، رجالاً ونساءً، وفتحت زجاجات شمبانيا، فأخذت أسقي جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات، أسقي بسخاء، بوفرة... كنت لا أحسب ما أنفق من مال، فالألف يذهب وراء الألف، فما هي إلا ثلاثة أيام حتى خلا وفاضي فلم يبق معي شيء... فهل تظن أنني قد وصلت معها إلى شيء؟ أبداً... لم أنل منها شيئاً البتة لم ترني جسدها حتى عن بعد! إن في جسمها نوعاً من تثنٍ... لن أقول لك إلا هذا... تراه في الساق أيضاً، وتراه حتى في الإصبع الصغير من قدمها اليسرى. لقد رأيت هذا الإصبع، وقبلته... ولكن ذلك كان كل شيء، أحلف لك! كانت تقول لي: «سأتزوجك إذا شئت، رغم فقرك - عِدْني بأن لا تضربني، وبأن تدع لي أن أفعل في المستقبل ما يحلو لي، فربما قبلت عندئذٍ أن أصبح زوجتك». كانت تقول ذلك ضاحكة، وهي ما تزال تضحك إلى الآن!

نهض دمتري فيدوروفتش على حين فجأة وقد بدا عليه نوع من غضب مسعور. أصبح كالسكران دفعة واحدة. احتقنت عيناه دماً.

- وهل تريد أنت حقاً أن تتزوجها؟

- إذا وافقتْ تزوجتها فوراً؛ وإذا رفضت بقيت إلى جانبها ولو كناساً في فناء بيتها هل تعلم أنت... أنت...

توقف دمتري فيدوروفتش فجأة أمام أليوشا، فأمسكه من كتفيه، وأخذ يهزه بكل ما أوتي من قوة. - هل تعلم، أيها الطفل البريء، هل تعلم أن هذا كله ليس إلا هذياناً، ليس إلا كلاماً يدل على جنون، وأن الأمر في الواقع أمر مأساة؟ اسمع يا أليوشا: قد أكون أحياناً رجلاً دنيئاً منحطاً تستبد به رغبات حقيرة وتضيعه شهوات سافلة، أما أن أكون لصاً، لصاً صغيراً يسرق من جيوب السترات في المداخل، فذلك ما لن يكونه دمتري كارامازوف أبداً! إلا فاعلم إذاً أنني لص صغير يسرق المال من المداخل ومن الجيوب! ففي ذلك الصباح الذي ذهبت فيه إلى جروشنكا لأضربها، كانت كاترينا إيفانوفنا قد استدعتني إلى منزلها سراً، وكلفتني (راجيةً أن أنفذ طلبها في الخفاء فما يعلم به أحد)، أن أذهب إلى مركز الإقليم فأرسل هناك بالبريد ثلاثة آلاف روبل إلى أختها أجافيا إيفانوفنا بموسكو. ذلك أنه كان يجب أن لا يطلع أحد من سكان مدينتنا على هذا الأمر. فهذه الثلاثة آلاف روبل هي التي كانت في جيبي حين ذهبت إلى جروشنكا، وبهذه الثلاثة آلاف روبل إنما مضيت أنا وجروشنكا إلى موكرويه. ولقد تظاهرت بعد ذلك بأنني ذهبت إلى مركز الإقليم، ولكنني لم أسلّم كاترينا إيفانوفنا إيصال البريد، وإنما أكدت لها أنني أرسلت المال ووعدتها بأن آتيها بالإيصال في يوم آخر. ولم أعطها الإيصال طبعاً حتى هذه الساعة، متعللاً بالنسيان. فتخيل الآن

أنك ذهبت إليها اليوم، فنقلت إليها تحيتي واحترامي، فسألتك: «والمال؟»، فعندئذٍ تقول لها: «إنه شهواني وضيع ومخلوق حقير يستسلم لأهوائه. إنه لم يرسل نقودك آنذاك، بل بددها لأنه لم يستطع أن يكبح نفسه، كالحيوان». ولكن كان بوسعك أن تضيف: «ولكنه ليس لصاً مع ذلك، هذه هي نقودك، الثلاثة آلاف، يردها إليك، فلترسليها بنفسك إلى أجافيا إيفانوفنا، أما هو فيبلغك تحياته». فما عساك قائلاً لها اليوم إذا سألتك «والمال؟».

– أنت شقي يا ميتيا... هذا أكيد! ولكن لا تبالغ! إن البلية أهون مما تظن. لا تدع لليأس أن يصعقك، لا تدع لنفسك أن تتحطم هذا التحطم!

– أتُراك تظن أنني سأنتحر لأنني لن أستطيع أن أجد ثلاثة آلاف روبل أردها إليها؟ ألا إن البلية بعينها هي أنني لن أنتحر، فلست أملك من القوة ما يمكنني من الانتحار الآن. قد أفعله في المستقبل. أما الآن فإنني ذاهب إلى جروشنكا... وليكن ما يكون!

– وما الذي ستفعله عندها؟

– أصبح زوجها. أنال هذا الشرف. فإذا جاء عشيقها يزورها انسحبت إلى الغرفة المجاورة. وسأنظف أحذية أصدقائها، وسأغلي الماء في السماور، وأكون صبياً عندها...

قال أليوشا فجأة بصوت مهيب:

– إن كاترينا إيفانوفنا ستفهم كل شيء، ستفهم مدى شقائك، وستغفر لك. إن لها ذكاءً فذاً. لا يمكن أن يكون أحد أشقى منك، وستدرك هي هذا.

فأجابه ميتيا يقول مكشراً:

– لن تغفر لي قط. هناك يا أخي أشياء لا يمكن أن تقبلها أية

امرأة. هل تعرف ما هو أفضل شيء يجب أن نعمله؟

- ماذا؟

- أن نرد إليها الثلاثة آلاف روبل.

- ولكن من أين؟ اسمع: إنني أملك ألفي روبل، ولا شك أن إيفان سيعطي ألفاً آخر، فيكون المجموع ثلاثة آلاف. خذها ورُدَّها إليها.

- ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة في جيبك؟ إنك ما زلت إلى الآن قاصراً، ولا بد حتماً أن تذهب إليها موفداً مني، في هذا اليوم نفسه، بالمال أو بدون المال، لأنني لا أستطيع أن أماطل أكثر من ذلك. لقد بلغت الأمور حداً لا يمكن معه التأجيل. في غد سيكون الأوان قد فات، سيكون قد فات. سوف أرسلك إلى أبينا.

- إلى أبينا؟

- نعم، تذهب إليه قبل أن تذهب إليها، وتطلب منه هذه الثلاثة آلاف روبل.

- ما هذا الكلام يا ميتيا؟ إنه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال.

- أقدِّر ذلك. هل تعلم يا أليوشا ما هو اليأس؟

- أعلم.

- فاسمع إذن: إنني أعلم أن أبانا ليس مديناً لي بشيء من الناحية القانونية، فقد أخذت حقوقي كاملة. ولكنه مدين لي من الناحية الأخلاقية، أليس كذلك؟ لقد شق طريقه في الحياة بمبلغ الثمانية وعشرين ألف روبل التي خلفتها أمي، فجنى من استثمار هذا المبلغ مائة ألف. فليعطني من هذه الثمانية وعشرين ألفاً ثلاثة آلاف فقط، فينقذ روحي من هذا الجحيم، وتُغفر له بذلك خطايا كثيرة في مقابل

ذلك! وأقسم لك يميناً لا مين فيه أنني سأختفي متى ملكت هذه الآلاف الثلاثة، فما يرى وجهي بعدئذٍ ولا يسمع عني. هذه آخر فرصة أتيحها له ليتصرف تصرف أب. قل له إن الله نفسه هو الذي يهب له هذه الفرصة.

- أوه... ميتيا... إنه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال.

- أعلم أنه سيرفض أن يعطي المبلغ. أنا من ذلك على يقين مطلق، اليومَ أكثر من أي وقت مضى! بل إنني أعلم شيئاً آخر أيضاً: لقد أدرك منذ زمن قصير جداً، في الأيام الأخيرة، ربما أمس فقط. ولأول مرة، أدرك فعلاً (لاحظ كلمة «فعلاً» هذه)، أن جروشنكا لا تمزح، لا تهزل، وأنها قد تريد أن تتزوجني حقاً. إنه يعرف طبعها، إنه يعرف أية قطة هي! فهل يمكن علاوة على ذلك أن يعطيني مالاً ليمهد سبيلاً لهذه الفرصة، بينما هو مجنون بها هياماً؟ وليس هذا كل شيء، فسأقول لك المزيد: أنا أعلم أنه، منذ خمسة أيام، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل، وأبدلها أوراقاً نقدية من ذات المائة روبل، فوضعها في حزمة كبيرة مختومة، وربط الحزمة بشريط أحمر متصالب في الاتجاهين. ها أنت ذا تلاحظ أنني مطلع على أدق التفاصيل! وقد كتب على الحزمة هذه العبارة: «إلى ملاكي جروشنكا، إذا هي رضيت أن تجيء». كتب هذه العبارة بخط يده في كثير من العناية، وفعل ذلك كله سراً في الخفاء، فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجد الآن عنده، ما من أحد يعرف هذا الأمر إلا الخادم سمردياكوف الذي يثق به ثقته بنفسه. وهو الآن ينتظر مجيء جروشنكا منذ ثلاثة أيام أو أربعة آملاً أن يجتذبها هذا المبلغ. لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها، فأجابته بأنها «قد تعزم أمرها». ولكن إذا ذهبت إلى العجوز فكيف أستطيع أن

أتزوجها بعد ذلك؟ فهل أدركت الآن لماذا أختبئ في هذا المكان مترقباً وما الذي أترصده؟

- أتترصدها هي؟

- نعم. إن هاتين العجوزين الشمطاوين، صاحبتي المنزل، قد أجَّرتا فوما غرفةً من بيتهما الصغير، فوما هذا رجل من مدينتنا كان قد خدم جندياً، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس في الليل. إنه في النهار يمضي إلى صيد ديوك الغابة فيجني من ذلك بعض الرزق. وأنا الآن مقيم عند فوما هذا. فلا هو ولا العجوزتان يعرفون السرَّ، أو يخطر ببالهما أنني هنا أترقب وأترصد.

- هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر؟

- وحده. ثم إنه سيبلغني مجيئها بإشارة سريعة إذا هي جاءت إلى العجوز.

- أهو الذي حدثك عن تلك الحزمة؟

- نعم، في الخفاء. وإيفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المال وعن بقية الأمر. لقد قرر العجوز أن يرسل إيفان إلى تشرماشنيا يومين أو ثلاثة. لقد جاء إليه أحد المشترين يعرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل، فألحَّ العجوز على إيفان قائلاً له: «اذهب إلى هناك نيابةً عني. قدم لي هذه الخدمة». وإنما يهدف العجوز إلى أن لا يكون حاضراً حين تجيء جروشنكا.

- أهو ينتظر إذاً أن تجيء إليه جروشنكا اليوم كما انتظر في الأيام الماضية؟

- لا... لن تجيء إليه اليوم. هنالك قرائن تثبت لي ذلك. لن تجيء اليوم حتماً! (كذلك صاح ميتيا فجأة). وهذا رأي سمردياكوف أيضاً. ولا بد أن يكون الأب جالساً الآن إلى المائدة يسكر، وإلى

جانبه أخونا إيفان. اذهب إليه يا ألكسي، واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة. . .

- ميتيا، عزيزي، ماذا دهاك؟

بهذا صاح أليوشا وهو ينهض فجأة، ويتفرس في دمتري فيدوروفتش الذي أصبح خروجه عن طوره واضحاً. حتى لقد خطر ببال أليوشا أن أخاه قد جُن.

قال دمتري فيدوروفتش ببطء فيه ما يشبه الأبهة والجلال وهو يحدق إلى أخيه هادئاً:

- اطمئن. ما زلت أملك عقلي كاملاً. إنني أعرف ما الذي أعمله حين أرسلك إلى أبينا. إنني أعتقد بحدوث معجزة.

- معجزة؟

- معجزة إلهية. إن الله يعرف ما بقلبي، ويعلم ما أنا فيه من يأس. إنه يرى ما يجري هنا. فلن يرضى - أنا واثق من هذا - لن يرضى أن يتم هذا الأمر الفظيع. إنني أؤمن بالمعجزة يا أليوشا! إذهب إليه!

- سأذهب. هل ستنتظرني هنا؟

- سأنتظر. أنا أعلم أن الأمر سيستغرق زمناً، وانك لن تستطيع أن تنجح في مهمتك فوراً، وأنه لن يكفي أن تذهب إليه فتقول له: «ها أنذا. . . هات المال!» لا بد أنه في هذه اللحظة سكران. سأنتظر ما وجب الانتظار، سأنتظر ثلاث ساعات، أربعاً، خمساً، بل سبعاً بل إذا لزم. واعلم مع ذلك أن عليك أن تذهب في هذا اليوم نفسه، ولو في منتصف الليل، أن تذهب إلى كاترينا إيفانوفنا، بمال أو بغير مال، لتقول لها: «كلفني بأن أنقل إليك تحياته». إنني أحرص حرصاً مطلقاً على أن تقول لها هذه العبارة: «كلفني بأن أنقل لك تحياته».

- ميتيا! فماذا لو جاءت جروشنكا غداً أو بعد غد.. . هذا إذا لم تجئ اليوم؟

- جروشنكا؟ سأترصدها، ثم أسرع إلى منزل العجوز فأحول دون الأمر مهما يكن الثمن. . .

- فإذا حدث رغم كل شيء أن. . .

- إذا حدث؟ عندئذٍ سأقتل! لن أطيق الاحتمال.

- من تقتل؟

- أقتل العجوز. أما هي فلن أقتلها.

- أخي، أخي، ما هذا الكلام الذي تقوله؟

- لا أدري، أصبحت لا أدري. . . قد لا أَقْتُل، ولكن قد أُقتَل. . . أخشى أن لا أطيق رؤية وجهه القذر الكريه في تلك اللحظة! إنني أكره جوزة عنقه، أكره أنفه، أكره عينيه، أكره ضحكته الصغيرة الوقحة. إنه يوقظ فيَّ اشمئزازاً جسمياً. ذلك ما أخشاه خاصة. قد لا أستطيع أن أسيطر على نفسي. . .

- أنا ذاهب إليه يا ميتيا. إنني مؤمن بأن الله سيفعل كل شيء حتى لا تقع هذه الفظاعة.

- وسأنتظرك أنا هنا آملاً أن تحدث معجزة. أما إذا لم تحدث المعجزة ف. . .

اتجه أليوشا إلى منزل أبيه مطرقاً مفكراً.

- 6 -

سمردياكوف

دخل أليوشا على أبيه فوجده ما يزال جالساً إلى المائدة فعلاً. ولقد قُدِّم الطعام في الصالون، كما جرت العادة بذلك، رغم أن بالمنزل غرفة طعام. الصالون أوسع حجرة في المنزل، وقد حرص صاحبه على أن يكون أثاثه قديماً من باب الأبهة والعظمة. إن الأثاث كله قديم جداً، أبيض اللون منجّد بقماش عتيق أحمر من حرير وقطن. وعلى الجدران بين النوافذ قد صُفَّت مرايا لها أطر مفخّمة من طراز بال، بيضاء اللون أيضاً، ولكنها مذهّبة. والحيطان المغطاة بالورق الأبيض المتشقق في مواضع كثيرة، مزدانة بلوحتين كبيرتين، إحداهما صورة أمير من الأمراء كان حاكماً للمنطقة قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت، والثانية صورة أسقف مات هو أيضاً منذ زمن بعيد جداً. وفي الركن الذي يواجه باب المدخل توجد عدة أيقونات تُشعل أمامها في المساء مصابيح زيت، لا من قبيل التقى بل لتظل الغرفة مضاءة أثناء الليل. ذلك أن فيدور بافلوفتش لا ينام إلا في ساعة متأخرة جداً، فهو يأوي إلى فراشه في الثالثة أو الرابعة من الصباح، ويقضي وقته قبل ذلك سائراً في الغرفة إلى غير نهاية، أو جالساً على مقعد من المقاعد يفكر طويلاً. لقد أصبح هذا عادة فيه. وكان في بعض الأحيان يبقى وحيداً أثناء الليل، بعد أن يصرف خدمه إلى المبنى الملحق. ولكنه في أكثر

الأحيان يحتفظ بخادمه سمردياكوف الذي ينام في الدهليز على دكة.
حين دخل أليوشا الغرفة كانت وجبة الطعام قد انتهت، وجيء بمربى وقهوة. إن فيدور بافلوفتش يجب أن يصيب شيئاً من الحلوى بعد الغداء، أثناء شرب قدح صغير من الكونياك. وكان إيفان فيدوروفتش بجانبه، يحتسي القهوة معه. وكان الخادمان جريجوري وسمردياكوف واقفَيْن قرب المائدة. وكان يبدو في تصرف السيدَيْن والخادمَيْن، على السواء، مرح غير مألوف وفرح غير معهود. كان فيدور بافلوفتش يضحك ملء حنجرته، وقد سمع أليوشا، منذ وصل الدهليز، النبرات الحادة التي تتصف بها هذه الضحكة والتي يعرفها في أبيه حق المعرفة من قبل؛ فاستنتج من هذه النبرات أن أباه ما يزال بعيداً عن حالة السكر، بل هو منشرح المزاج فحسب.

صرخ فيدور بافلوفتش يقول ضاجاً صاخباً وقد سرَّه فجأة أن يرى أليوشا:

- ها هو ذا! ها هو ذا! تعال معنا! اجلس. قهوة؟ إنها شراب صيامي، وهي ساخنة ولذيذة. لا أقدم إليك كونياكاً، فأنت صائم، بل ربما تريد؟ الأفضل أن أعطيك خمرة لذيذة، خمرة عظيمة! يا سمردياكوف، افتح الخزانة... الخمرة على الرف الثاني يمنة، إليك المفاتيح. هيا أسرع!

حاول أليوشا أن يرفض شرب الخمرة، فقال له أبوه مشرق الوجه متهلل الأسارير:

- على كل حال سيؤتى بها إلينا نحن، ما دمت لا تريد أن تشربها... بالمناسبة، هل تغديت؟

- تغديت، ولكن هل لي أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة؟

بهذا أجاب أليوشا الذي لم يكن قد أكل في الواقع إلا كسرة من

خبز وقليلاً من شراب الكفاس في مطبخ كبير الرهبان.

قال الأب:

- مرحى! إلا إنك لفتى طيب! سوف يشرب قهوة. إلا يحسن تسخين القهوة؟ ولكن لا... إنها ما تزال تغلي. هي قهوة ممتازة، هل تعلم؟ لقد أعدَّها سمردياكوف. إن صاحبي سمردياكوف فنان في إعداد القهوة وتحضير أنواع الكوليبياكا[85]، وكذلك في طهي حساء السمك. هذا حق. يجب أن تجيء إلينا ذات يوم، فتذوق حساء السمك هذا، ولكن عليك أن تنبئني بمجيئك سلفاً. آ... صحيح.. نسيت! ألم آمرك في هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك وأن تعود إلى المنزل نهائياً؟ هل أتيت بفراشك؟ هأ هأ هأ...

أجابه أليوشا وهو يضحك أيضاً:

- لا، لم آت به.

- لقد أخفتك في هذا الصباح، هه؟ لقد روَّعتك، أليس كذلك؟ يا طائري الصغير، أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أدخل الحزن إلى قلبك. إيفان، إيفان، إنني لأشعر باضطراب شديد حين ينظر إلى عينيَّ هذه النظرة ضاحكاً. إن أحشائي لتأخذ تتحرك عندئذٍ... ذلك أنني أحبه، هذا الفتى! اقترب يا أليوشا، فإنني أريد أن أمنحك بركتي الأبوية.

نهض أليوشا، ولكن أباه كان قد عدل عن رأيه، فقال له:

- لا بل حسبي اليوم أن أرسم عليك إشارة الصليب، هكذا... أجلس هنا... سوف تتسلى الآن، وذلك بصدد مسألة مألوفة عندك. سوف تضحك يا عزيزي. تخيل أن حمارة بلعام[86] قد أخذت تتكلم. هي تتكلم الآن، تتكلم... وما أفصحها!

ولم تكن حمارة بلعام التي يعنيها الأب إلا الخادم سمردياكوف. إن سمردياكوف، وهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، كان يبدو شديد التوحش دائم الصمت، ليس لأنه خجول، فهو في الواقع متكبر حتى ليظهر عليه أنه يحتقر جميع الناس، ولا بد أن نقول في هذه المناسبة: إن مارفا اجناتيفنا وجريجوري فاسيلفتش هما اللذان توليا تربيته، ولكنه «قد شب على نكران الجميل» كما كان يقول جريجوري عنه، صبياً متوحشاً ينظر إلى جميع الناس نظرة شزراء. كان أثناء طفولته يجد لذة كبيرة في أن يشنق قططاً ثم يدفنها بعد ذلك محتفلاً بدفنها احتفالاً كبيراً، فهو يتدثر في هذه المناسبات ببطانية يتخذها بمثابة جبة كاهن، ويأخذ يرتل بعض الصلوات محركاً يديه فوق جثة القطة كمن يحمل مبخرة. وكان يسترسل في هذه اللعبة في خلوة تامة وخفاء كامل فلما فاجأه جريجوري في ذات يوم يمارس هذه الرياضة عاقبه بالسياط معاقبة شديدة. فانزوى الصبي يومئذٍ في ركن من الأركان، وصام عن الكلام أسبوعاً برمته. كان جريجوري يقول لمارتا أجناتيفنا: «إن هذا الصبي الشاذ لا يحبنا كلينا، وهو لا يحب أحداً على كل حال. ثم يضيف وهو يلتفت فجأة إلى سمردياكوف: «أأنت كائن إنساني؟ ما أنت بإنسان... لقد نشأت من رطوبة الحمامات، هذا أنت...» لم يغفر سمردياكوف لجريجوري تلك الأقوال في يوم من الأيام، كما اتضح ذلك فيما بعد. ولقد علّمه جريجوري القراءة، فلما تجاوز الصبي السنة الثانية عشرة من عمره، أراد جريجوري أن يعلمه «التاريخ المقدس». ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل. ففي ذات يوم، أثناء الدرس الثاني أو الثالث أخذ الصبي يضحك على حين فجأة. سأله جريجوري وهو يرشقه بنظرة قاسية من وراء نظارتيه:

- ما بك؟

- لا شيء. إن الرب قد خلق الضياء في اليوم الأول، وفي اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم.، من أين جاء الضياء إذاً في اليوم الأول؟

بُهت جريجوري لحظة. وكان الصبي ينظر إلى معلمه نظرة ساخرة، حتى لقد كانت عيناه تعبران عن استعلاء. فلم يستطع جريجوري أن يكظم غيظه، فإذا هو يلطم تلميذه على وجهه لطمة قوية وهو يقول له صائحاً: «من أين؟ من هنا!» تلقى الصبي الصفعة دون أن يقول كلمة واحدة، ولكنه حرن وأمسك عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام. وبعد ذلك الحادث بأسبوع إنما وقعت له أول نوبة من نوبات الصرع، وهو المرض الذي لم يبارحه بعد ذلك طوال حياته. فلما علم فيدور بافلوفتش بالأمر تبدل موقفه من الفتى تبدلاً كاملاً بعد أن كان حتى ذلك الحين لا يعبأ به ولا يكترث له، رغم أنه لم يقرّعه في يوم من الأيام، حتى لقد كان ينفحه كوبيكاً كلما لقيه، وكان يتفق له في حالات الكرم والطيبة التي يمر بها أن يرسل إلى الصبي من مائدته بعض الحلوى. ولكن فيدور بافلوفتش، بعد أن عرف بمرضه، أخذ يهتم به اهتماماً جاداً، حتى لقد استدعى طبيباً وأراد أن يعالجه. غير أن المرض استعصى على الشفاء، واتضح أنه لا برء منه. كانت نوبات الصرع توافي الصنبي مرة في الشهر وسطياً، على تفاوت في طول المدة، واختلاف في قوة النوبة، فالنوبة خفيفة تارة، خطيرة كل الخطورة تارة أخرى. وقد حظر فيدور بافلوفتش على جريجوري أن ينزل في الصبي عقوبات جسمية حظراً صارماً، وسمح للصبي أن يأتي إليه من حين إلى حين، كما عارض في تعليم الصبي أي شيء خلال تلك الفترة. ومع ذلك حدث في ذات يوم أن

فاجأ فيدور بافلوفتش الفتى الذي أصبح مراهقاً في نحو الخامسة عشرة من عمره، فاجأه قرب خزانة الكتب يقرأ عناوين المؤلفات من خلال زجاج الخزانة. كان فيدور بافلوفتش يملك عدداً كبيراً من الكتب، كان يملك نحو مائة كتاب، ولكن أحداً لم يره قارئاً في يوم من الأيام. وسرعان ما بادر فيدور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح خزانة الكتب قائلاً له: «اقرأ ما يحلو لك أن تقرأه، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتي.. ذلك خير من التسكع في فناء المنزل. تناول كتاباً وأجلس. اسمع، خذ هذا الكتاب أولاً». ومد فيدور بافلوفتش إليه كتاب «سهرات في المزرعة قرب ديكانكا»(87).

قرأ الفتى الكتاب، ولكن لم يظهر عليه أنه افتتن به، حتى أنه لم يبتسم مرة واحدة أثناء قراءته، بل إنه قطَّب حين فرغ منه.

سأله فيدور بافلوفتش:

- هيه... كتاب مضحك أليس كذلك؟

فصمت سمردياكوف ولم يجب بشيء.

فألح فيدور بافلوفتش قائلاً:

- هلاّ أجبت يا أهبل؟

فتأتأ سمردياكوف يقول وهو يطلق ضحكة صغيرة:

- هذا كله أكاذيب... أمور لم تحدث.

- شيطان يأخذك! نفس خادم!... طيب خذ... اقرأ إذاً «التاريخ العام» من تأليف سماراجدوف(88). ستجد هاهنا أحداثاً صادقة. اقرأ.

ولكن سمردياكوف لم يصل من الكتاب حتى إلى صفحته العاشرة، فقد رآه مملاً. وأُعيد إغلاق المكتبة. وبعد ذلك بقليل نقل جريجوري ومارفا إلى فيدور بافلوفتش أن الصبي أصبح يقف من

الطعام موقفاً فيه حساسية شديدة وتأذٍّ كبير يتفاقمان يوماً بعد يوم: أصبح حين يجلس إلى المائدة ليتناول حساءه يمسك الملعقة فيأخذ يقلب بها الحساء مرة بعد مرة فاحصاً مدققاً، ويميل على الطبق فينعم النظر فيه طويلاً، ثم يملأ ملعقة ويمضي بها نحو الضوء يتأملها ملياً. فكان جريجوري يسأله:

- هل وجدت في الحساء خنفسة؟

وتضيف مارفا ساخرة:

- أم لعلك وجدت فيها ذبابة؟

ولكن الفتى العيوف المحب للنظافة لم يجب بشيء أبداً. وقد تصرف هذا التصرف نفسه إزاء جميع أنواع الطعام، سواء أكان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك. إنه يرفع شوكته فيأخذ ينعم النظر في اللقمة طويلاً قبل أن يأكلها، كأنما هو يفحصها بمكروسكوب، ويظل يتردد برهة طويلة، إلى أن يعزم أمره فجأة فيضعها في فمه. فكان جريجوري ينظر إليه فيهمهم قائلاً: إنه يعد نفسه سيداً من السادة.

فلما أُبلغ فيدور بافلوفتش بخصلة سمردياكوف الجديدة هذه، قرر فوراً أن الفتى يصلح أن يصبح طاهياً فأرسله إلى موسكو ليتعلم فيها المهنة. قضى سمردياكوف عدة سنين يتعلم الطهي في موسكو، ثم عاد منها وقد تغيرت سحنته تغيراً كبيراً. لقد دبت فيه الشيخوخة على نحو غريب، فتغضن وجهه تغضناً لا يتفق وسنّه، واصفرّ وأصبح شبيهاً بخصيّ. أما من الناحية النفسية فإنه لم يكد يتغير: فهو ما يزال، كما كان من قبل، متوحشاً لا يشعر بحاجة إلى أن يعيش في صحبة الناس. ولقد لبث في موسكو كما عُرف فيما بعد كثير الصمت أيضاً. ولم تشغفه المدينة الكبيرة كثيراً، ولم يعرف منها إلا أماكن قليلة ظل يجهل كل ما عداها. وقد شهد في ذات مرة حفلة

تمثيلية، فلم تخرجه هذه الحفلة عن صمته المطبق، ولا أبدلت استياءه رضى. غير أنه، في مقابل ذلك، قد عاد إلينا من موسكو شديد العناية بهندامه، فهو يرتدي ثياباً أنيقة وملابس داخلية نظيفة جداً، وهو ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين في اليوم على الأقل، وهو يجد لذة خاصة في أن يدهن حذاءيه الأنيقين، المصنوعين من جلد العجل، بدهن إنجليزي خاص، ثم ما يزال يفركهما إلى أن تلمعا لمعان مرآة. وبرهن سمردياكوف على أنه طاهٍ عظيم. وحدَّد له فيدور بافلوفتش أجراً معلوماً، فكان ينفق كل أجره تقريباً في اقتناء الملابس وشراء العطور وما إلى ذلك. وكان يبدو مع ذلك أنه يحتقر النساء احتقاره للرجال. فهو يعاملهن برصانة، حتى لكأن وصولهن إليه مستحيل. وقد دهش فيدور بافلوفتش من هذه الظاهرة، وأخذ ينظر إليها نظرة خاصة، لأن له رأيه في هذا الموضوع. ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدت وتكاثرت في ذلك الأوان، حتى أن مارفا أجناتيفنا اضطرت أن تقرر إعداد وجبات الطعام بنفسها في تلك الأيام، وذلك أمر لم يهتم به فيدور بافلوفتش، وإنما كان يقول للطاهي الجديد في بعض الأحيان، وهو يتفرس في وجهه وينظر إليه نظرة اشتباه:

– إنني أتساءل لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع، أفلا يكون من المستحسن أن تتزوج؟ هل تريد أن أجد لك زوجة؟..

ولكن سمردياكوف لا يجيب عن هذه الأسئلة، ولا يزيد على أن يصفرَّ وجهه حزناً وحسرة، فينصرف عند فيدور بافلوفتش عندئذٍ محركاً يده بحركة تعبِّر عن العجز. المهم أن أمانة هذا الخادم لم تكن محلَّ شبهة أو شك، كما أمكن أن يقتنع فيدور بافلوفتش بذلك مرة إلى الأبد، فهو لا يمكن أن يسطو على شيء، ولا يمكن أن يسرق مولاه يوماً. إن فيدور بافلوفتش، وقد استبدّ به السكر في ذات

يوم، قد أضاع في فناء منزله ثلاث أوراق نقدية ملونة[89] كان قد قبضها منذ قليل: سقطت الأوراق في الوحل، ثم لم يفتقدها فيدور بافلوفتش إلا في الغداة، ولكنه ما إن أخذ ينبش جيوبه كلها باحثاً عنها حتى لمحها على مكتبه. فمن أين جاءت إلى هنا؟ وعرف فيدور بافلوفتش أن سمردياكوف قد عثر عليها فحملها إلى مكتب مولاه منذ البارحة. قال فيدور بافلوفتش آنذاك لخادمه بلهجة جازمة: «يميناً ما لقيت في حياتي أناساً مثلك». ثم أسرع يهدي إليه عشرة روبلات. يجب أن نضيف إلى هذا أن فيدور بافلوفتش لم يكن مقتنعاً بأمانة سمردياكوف فحسب، وإنما كان يحبه أيضاً، لا يدري أحد لماذا، رغم أن الفتى كان ينظر إليه نظرة شزراء كنظرته إلى الآخرين، وهو لا يكاد يفتح فمه بكلمة في حضوره يوماً. وكان الفتى لا يتكلم إلا نادراً على كل حال، فلو تساءل متسائل في ذلك الأوان، وهو ينظر إلى سمردياكوف، عمّا لعله يشغل بال الفتى، وعن الهموم التي يمكن أن تكون مسيطرة على فكره، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جواباً. ومع ذلك كان يتفق لسمردياكوف، سواء في المنزل، أو في الفناء، أو في الشارع، أن يتوقف على حين فجأة، فإذا هو يبدو عليه أن يسترسل في تفكير عميق خلال عشر دقائق أو أكثر. وأغلب الظن رغم هذا أنه لو نظر إليه في مثل تلك اللحظات عالم من علماء الفراسة لأدرك من دراسة قسمات وجهه أن ليس ثمة تفكير أو تأمل من أي نوع، وأن الأمر لا يعدو أن يكون استسلاماً لأحلام عابرة. إن هناك لوحة جميلة رسمها الرسّام كرامسكوي[90] وجعل عنوانها «المتأمل الحالم». إن اللوحة تمثل غابة في فصل الشتاء، وقد وقف على الممر الذي يقطعها، فلاح يرتدي قفطاناً ممزقاً وينتعل خفين باليين، فهو في عزلة تامة. لقد ضل

الفلاح طريقه هناك، فهو يبدو في هذه الخلوة الكاملة مسترسلاً في التأمل. والحق أن الرجل لا يتأمل، وإنما هو غارق في «أحلام غامضة»، فلو لكزه أحد بكوعه في تلك اللحظة لانتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم، ناظراً حوله لا يفهم شيئاً مما جرى له، وسرعان ما يثوب إلى رشده، فلو سألته في تلك اللحظة عما كان يفكر فيه لما استطاع أن يجيبك بشيء. ولكن لا شك في أنه سيظل محتفظاً في قرارة نفسه بالمشاعر التي تجمعت له أثناء استرساله ذاك في أحلامه، وهي مشاعر عزيزة عليه، يجمّعها في نفسه طوال حياته على نحو لا يدركه بل ولا يشعر به. وهو لا يدري طبعاً لماذا يفعل ذلك. ولعل هذه المشاعر التي تراكمت في نفسه خلال سنين أن تدفعه ذات يوم إلى أن يهجر كل شيء على حين فجأة فيمضي إلى القدس حاجاً ينشد الخلاص، أو تدفعه، لا تدري لماذا، إلى أن يشعل النار في قريته فيحرقها. وقد يفعل الأمرين كليهما. إن هؤلاء الحالمين كُثُر في شعبنا. ولا شك أن سمردياكوف واحد منهم، فهو يراكم في نفسه مشاعر فوق مشاعر، مندفعاً إلى ذلك في حماسة وحميًا، دون أن يعرف بعد لماذا يفعل ذلك.

- 7 -

مجادلة

شرعت حمارة بلعام تتكلم فعلاً. وكانت المناسبة غريبة غرابة كافية: إن جريجوري، حين كان في الصباح عند التاجر لوكيانوف لشراء بعض الأشياء قد سمع قصة ذلك الجندي الروسي[91] الذي وقع في أيدي أفراد قبيلة مسلمة على حدود آسيا، فأرادوا إكراهه على إنكار المسيحية واعتناق الإسلام، وإلا عذبوه وقتلوه، فرفض أن يرتدّ عن دينه، وارتضى أن يستشهد في سبيل عقيدته، فسُلخ جلده حياً ومات وهو يمجِّد المسيح. كانت الصحف في ذلك اليوم تتحدث عن هذا الجندي، وعن تضحيته البطولية، وكان جريجوري قد روى ما سمعه أثناء الغداء. إن فيدور بافلوفتش يحب أن يمزح بعد الغداء عند تناول الحلوى، ولا يأنف أن يدخل في حديث لهذا الغرض ولو مع الخادم جريجوري. ثم إنه كان في ذلك اليوم هاشاً هشاشة خاصة، وكان مَرِح المزاج مبتهج النفس. فبعد أن أصغى إلى ما رواه جريجوري وهو يشرب قدح كونياك، قال إن من الواجب أن تبارك الكنيسة ذلك الجندي وأن تعدّه ولياً من الأولياء بغير إبطاء، وأن من المستحسن أن يُهدى جلده المسلوخ إلى دير من الأديرة، «بغية أن يجتذب الجماهير والمال». فقطب جريجوري حاجبيه عابساً، حين لاحظ أن مولاه استرسل في التجديف على عادته بدلاً من أن يتأثر.

وفي تلك اللحظة إنما سُمع سمردياكوف يُطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب. كان الخادم الشاب قد سُمح له مراراً، حتى في السنوات الماضية، أن يشهد وجبات الطعام، أعني أن يشهد المناقشات التي تعقبها. ولكنه تعوَّد منذ وصول إيفان فيدوروفتش إلى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الغداء في يوم من الأيام تقريباً.

سأله فيدور بافلوفتش حين سمع ضحكه فأدرك على الفور أنه يسخر من جريجوري، سأله قائلاً:

- ما بك؟

فاندفع سمردياكوف يلقي خطاباً بصوت عالٍ وطريقة لم تكن في الحسبان، فيقول:

- بصدد تلك القصة. فأنا أرى أن فعل ذلك الجندي الجدير بالإطراء والثناء قد كان فعلاً بطولياً عظيماً ولا شك، ولكنني أرى أنه ما كان ليعد خاطئاً آثماً لو أنكر اسم المسيح في ذلك الظرف وتنازل عن تعميده إنقاذاً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظاً بها لحسنات تكفِّر، بعد سنين، عن لحظة الضعف والتخاذل تلك.

تدخل فيدور بافلوفتش قائلاً:

- ما كان ليعد خاطئاً آثماً؟ كيف هذا؟ أنت تكذب، وستذهب إلى جهنم رأساً بسبب ذلك وستُشوى كما يُشوى خروف.

وفي تلك اللحظة بعينها إنما وصل أليوشا فابتهج أبوه لوصوله ابتهاجاً قوياً، وقد سبق أن رأينا ذلك، وقال لأليوشا وهو يدعوه أن يجلس وأن يصغي إلى المناقشة:

- هذا موضوع مألوف لك. إنما هو موضوعك!

قال سمردياكوف مؤكداً:

- لا أوافق على موضوع الخروف المشوي. ولن يكون هناك

عقاب بسبب ذلك، لا يجب أن يكون هناك عقاب إذا أردنا العدل والإنصاف.

- إذا أردنا العدل والإنصاف؟ ماذا تقول؟

كذلك صاح فيدور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح وهو يلكز ركبة أليوشا.

قال جريجوري فجأة، وهو يحدق إلى عيني سمردياكوف قائلاً بلهجة هادئة صابرة.

- أما عن قولك بأنني وغد، فأرجو يا جريجوري فاسيلفتش أن تتمهل قليلاً وتقضي في الأمر بنفسك: هب أن جلادي الجنس المسيحي قبضوا عليّ ذات يوم وطالبوني بأن ألعن اسم الرب وأن أتنكر لتعميدي المقدس: إن العقل يجيز لي في هذه الحالة أن أفعل ذلك، ولن يكون في هذا إثم.

صاح فيدور بافلوفتش يقول:

- سبق أن قلت ذلك. فلا تكرر ما سبق أن قلته، وإنما عليك أن تبرهن على رأيك بالأدلة والحُجج!

ودمدم جريجوري يقول باحتقار:

- طاهي حساء!

فقال سمردياكوف:

- أما عن قولك بأنني طاهي حساء، فأرجو يا جريجوري فاسيلفتش أن تتمهل بعض التمهل أيضاً. لا تشتمني، وإنما فكِّر قليلاً: هب أنني قلت للذين يعذبونني: «ليكن لكم ما تريدون... إنني أرتد عن ديني المسيحي وأتنكر لإلهي الحق». أفلا تدينني المحكمة الإلهية في تلك اللحظة نفسها، وتكفّرني على الفور صراحة؟ إذاً سأكون منذ تلك الدقيقة قد أُخرجت من الكنيسة

المقدسة، وسأكون قد حُرمت منها كأي وثني، منذ تلك الدقيقة، بل منذ اللحظة التي نطقت فيها بتلك الكلمات، بل منذ اللحظة التي راودتني فيها نية النطق بهذه الكلمات، بحيث لا يمضي ربع ثانية إلا وأكون قد حُرمت من الكنيسة؟ أليس هذا صحيحاً يا جريجوري فاسيلفتش؟

كان واضحاً أن سمردياكوف يجد لذة في الاتجاه بكلامه إلى جريجوري، رغم أنه لا يجيب في الواقع إلا عن أسئلة فيدور بافلوفتش، وذلك أمر كان سمردياكوف يشعر به شعوراً تاماً، ولكنه يتخابث فيتظاهر بأن تلك الأسئلة إنما طرحها جريجوري.

هتف فيدور بافلوفتش فجأة يقول:

- إيفان! مِلْ عليَّ حتى أستطيع أن أهمس في أذنك بشيء. من أجلك إنما يقول هذا الكلام، وهو ينتظر استحسانك، فامدحه إذن.

أظهر إيفان كثيراً من الاهتمام والجد في الإصغاء إلى هذه الملاحظة التي أسرَّ بها إليه أبوه. وعاد فيدور بافلوفتش يقول:

- اسكت الآن يا سمردياكوف.

ثم أهاب بابنه إيفان مرة أخرى أن يميل عليه قائلاً له:

- هناك شيء آخر أريد أن أهمس به في أذنك.

فمال إيفان على أبيه من جديد مظهراً ذلك الجد نفسه الذي أظهره في المرة الأولى. فقال له الأب:

- إنني لا أحبك أقل مما أحب أليوشا. لا يخطرن ببالك أنني لا أحبك. قليلاً من الكونياك؟

- بكل سرور.

وقال إيفان لنفسه وهو يتفرس في أبيه: «لقد سكر بعض السكر منذ الآن». وكان من جهة أخرى يرقب سمردياكوف بانتباه شديد.

وصاح جريجوري يقول فجأة:

- كافر! أنت ملعون منذ الآن. كيف تجرؤ أن تستمر في المناقشة أيها الوغد؟

فقاطعه فيدور بافلوفتش:

- لا تشتمه، يا جريجوري، لا تشتمه!

وقال سمردياكوف:

- مهلاً يا جريجوري فاسيلفتش اصبر عليَّ ولو لحظة قصيرة، واصغ إلى كلامي حتى النهاية، لأنني لم أتممه بعد. أعود فأقول إنني متى لعنني الله فوراً، يصبح شأني في تلك اللحظة بالذات، تلك اللحظة الحاسمة، شأن أي وثني، ويكون تعميدي قد أُلغي تبعاً لذلك، فلا يحسب له أي حساب، أليس هذا صحيحاً؟

فاستحثه فيدور بافلوفتش وهو يتلذذ ببلع جرعة من الكونياك، استحثه قائلاً:

- أوصلنا إلى النتيجة التي تريد أن تخلص إليها، أسرع يا بني.

فتابع سمردياكوف حديثه:

- فإذا لم أعد مسيحياً، فإنني لا أكذب على الذين يعذبونني ويسألونني: «أتعدّ نفسك مسيحياً أم لا؟»، ذلك أن الله نفسه يكون قد أخرجني من المسيحية بسبب نيتي وحدها قبل أن يتسع وقتي للإجابة عن سؤال معذبي بكلمة واحدة. فإذا كنت قد أُخرجت من المسيحية فكيف يمكن أن أُحاسب في العالم الآخر، وأي عدالة ترضى أن أحاسب في العالم الآخر كما يُحاسب مسيحي ارتدّ عن دينه، مع أنني أكون قد جُرِّدت من تعميدي بسبب نيتي وحدها حتى قبل أن أرتد عن ديني بالقول؟ إنني بعد أن جُرِّدت من مسيحيتي، لا أكفر بالمسيح، لأنني لا يكون قد بقي لي دين أرتد عنه. هل يخطر

ببال أحد يا جريجوري فاسيلفتش أن يلوم تترياً كافراً على أنه لم يولد مسيحياً؟ من ذا الذي يريد أن يعاقب مثل هذا التتري، حتى في السماء؟ ما من أحد يسلخ بقرة واحدة مرتين! وهب أن الله العلي القدير سيحاسب هذا التتري بعد موته: إنه لن يوقع فيه إلا عقاباً يسيراً (فمن غير المقبول أن لا يعاقَب البتة)، ذلك أن الله يقدر أن هذا التتري لم يأثم حين ولد كافراً من أبوين كافرين. إن الله لا يمكن أن يبطش بهذا التتري ويقول عنه إنه كان مسيحياً أيضاً. فإن عدّه مسيحياً كان هذا كذباً ظاهراً واضحاً، والله الذي هو رب السماوات والأرض لا يمكن أن يكذب ولو في كلمة واحدة من كلماته!

أصيب جريجوري بالبكم من شدة ذهوله، ونظر إلى الخطيب محملقاً. فهو رغم أنه لم يستطع أن يتابع المناقشة قد أدرك إدراكاً غامضاً بعض ما يشتمل عليه هذا الكلام المضطرب، فتجمد كرجل صدم الحائط بجبهته على حين فجأة. وأفرغ فيدور بافلوفتش في جوفه قدح الكونياك، وأطلق من صدره ضحكة حادة.

- أليوشا، أليوشا، ما رأيك؟ يا له من مجادل! لا شك أنه تعلم هذا لدى اليسوعيين، ألا ترى ذلك يا إيفان؟ اذهب أيها اليسوعي العفن، من ذا الذي لقّنك هذه الضلالات؟ غير أن ما تقوله كذب، كذب، كذب أيها المتحايل. اطمئن يا جريجوري، سوف نهدّم آراءه، سوف نحيلها دخاناً، سوف نحيلها عدماً، حالاً بلا إبطاء! أجب عن هذا السؤال يا حمارة: لنفرض أنك على صواب في موقفك من معذِّبيك. إن هذا لا ينفي أنك أنكرت دينك في قرارة نفسك، وأصبحت في تلك اللحظة كافراً، كما تعترف بذلك أنت نفسك، فإذا كفرت فلن تكافأ على هذا في جهنم فيما أتخيل. فبماذا تجيب عن هذا السؤال أيها اليسوعي الظريف؟

- لا أنكر إنني أكون قد ارتددت عن ديني في قرارة نفسي، ولكن ليس في هذا أي إثم كبير، وإذا كان ثمة خطأ فهو خطأ عادي جداً.

- عادي؟ كيف؟

قال جريجوري بصوت صافر:

- أنت تكذب، أيها المل.... عون.

تابع سمردياكوف كلامه يقول بلهجة هادئة واثقة، شاعراً بانتصاره ولكن مصطنعاً هيئة الكرم والتسامح مع خصم طُرح أرضاً:

- اقض في الأمر بنفسك يا جريجوري فاسيلفتش: لقد جاء في الكتاب المقدس أن الذي يملك الإيمان الحق، ولو لم يملك منه إلا ذرة صغيرة، يستطيع أن يأمر الجبل قائلاً له: «اذهب أيها الجبل إلى البحر»، فإذا بالجبل يذهب إلى البحر فوراً عند أول أمر يصدر إليه[92]. فياجريجوري فاسيلفتش، ما دمت تبلغ من عمر الإيمان ما يهب لك حق إهانتي بغير انقطاع، فحاول أن تأمر هذا الجبل القريب لا أن يذهب إلى البحر (فالبحر بعيد جداً) بل أن يتقدم قليلاً نحو ذلك الجدول الصغير النتن الذي يجري وراء حديقتنا. فلسوف ترى عندئذٍ أن الجبل لن ينصاع لأوامرك، وأن كل شيء سيبقى على ما كان، مهما يكن صراخك شديداً. فهذا يبرهن يا جريجوري فاسيلفتش على أنك أنت أيضاً لا تملك الإيمان الحق، على حين أنك لا تكف عن إهانة الناس بحجة أنهم لا يملكون الإيمان الحق. يجب أن نعترف على كل حال أنه ليس في زماننا هذا أحد، ليس أنت فقط، بل لا أحد على الإطلاق، سواء أكان أقوى الناس سلطاناً وأرفعهم منزلة أم كان أحقر فلاح من الفلاحين، يملك القدرة على أن يدحرج هذا الجبل إلى البحر ربما باستثناء رجل واحد أو رجلين اثنين في أكثر تقدير، ولكن هذين الرجلين لا بد أن يكونا مختبئين

في صحراء ما من صحاري مصر، يحققان لنفسيهما هنالك الخلاص والسلام، فلا نستطيع أن نهتدي إليهما ونعثر عليهما مهما نبحث عنهما. فإذا كان الرجال الآخرون ليسوا بالمؤمنين حقاً، فكيف نسلّم بأن الرب سيلعنهم جميعاً، وبأنه سيحرم الإنسانية كلها إلا ذينك الرجلين في الصحراء، وبأنه لن يغفر لأحد وهو الغفور الرحيم؟ لذلك تراني آمل، إذا أنا شككت أن أحظى بمغفرة الرب، بعد أن أسكب دموع الندم والتوبة.

- قف! أنت تسلّم إذاً بأن هناك رجلين على الأقل في العالم يستطيعان أن يحركا الجبال! سجّل هذا يا إيفان، سجل هذه النقطة! هنا يتبدى الإنسان الروسي كله!

كذلك صرخ فيدور بافلوفتش بصوت حاد وهو في قمة الإعجاب.

فقال إيفان فيدوروفتش مؤمناً على رأي أبيه مبتسماً ابتسامة تأييد:

- ملاحظتك صحيحة تماماً. تلك سمة خاصة يتميز بها إيمان الشعب الروسي.

- أنت تشاطرني هذا الرأي! لا بد إذاً أن أكون على صواب! أليس كذلك يا أليوشا؟ ذلك هو الإيمان الروسي الحق، أليس كذلك؟

فقال أليوشا بلهجة جادة حاسمة:

- لا. . . إن إيمان سمردياكوف ليس روسياً البتة.

- لست أتكلم عن إيمانه، بل عن هذه السمة، عن فكرة ذينك الناسكين عن هذه السمة الصغيرة وحدها، أليس هذا سمة روسية خاصة؟

قال أليوشا يوافق مبتسماً:

- نعم هي سمة روسية، روسية جداً.

قال فيدور بافلوفتش يخاطب سمردياكوف:

- قولك هذا يساوي عشرة روبلات ذهبية يا حمارة، سأرسلها إليك في هذا اليوم نفسه. أما في كل ما عدا ذلك فقد كذبت، نعم كذبت، أعود فأكرر لك ذلك. ألا فاعلم أيها الغبي أن خفة العقل وحدها هي التي جعلتنا جميعاً غير مؤمنين، ذلك أن وقتنا لا يتسع للإيمان: فنحن أولاً منصرفون إلى أعمالنا التي تحتكرنا احتكاراً، والرب ثانياً قد ضنَّ علينا بالساعات فجعل يومنا أربعاً وعشرين ساعة فقط، فنحن لا نملك حتى الوقت اللازم لأن ننام نوماً كافياً. فأين لنا الوقت اللازم للندامة والتوبة؟ أما أنت فقد ارتددت عن دينك أمام معذبيك في اللحظة التي لا يمكن أن يكون في ذهنك خلالها، فكرة أخرى غير فكرة الإيمان والتي كان لا بد فيها من أن تؤكد إيمانك! ألم تجر الأمور على هذا النحو يا صديقي؟

- لقد جرت الأمور على هذا النحو حقاً. ولكنك تسلم أنت نفسك يا جريجوري فاسيلفتش، أن ذلك يجعل الخطيئة أهون شأناً ما دامت الأمور قد جرت على هذا النحو. لنفرض أنني اعتقدت، في ساعة المحنة، بما كان يجب أن أعتقد به: إنني لأرتكب عندئذٍ إثماً إذا أنا رفضت الاستشهاد في سبيل ديني، وارتضيت اعتناق دين محمد. ولكنني في مثل هذه الحالة لا أصل إلى الاستشهاد، إذ يكفيني أن أقول للجبل في تلك الدقيقة: «تحرك أيها الجبل فأسحق الجلاد»، فإذا بالجبل يرتمي على الجلاد فيخنقه بثقله كأنه خنفساء، وإذا أنا أمضي في سبيلي هادئاً أمدح الله وأمجده. فإذا راودتني هذه الأفكار لتحقيق هذه الغاية منادياً: «اسحق الجلادين أيها الجبل»، فإذا بالجبل لا يستجيب لندائي، أفلا يهاجمني الشك عندئذٍ لا محالة؟

هلاّ قلت لي كيف يمكنني في تلك الساعة الرهيبة من الخوف القاتل أن لا يراودني الشك؟ لقد علمت سلفاً أنني لن أظفر بملكوت السماوات كاملاً (لأن الجبل لم يطع أوامري، وذلك دليل على أن إيماني ليس محلّ ثقة هناك في السماء، ودليل على أنني لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة في الحياة الآخرة). فأي جدوى إذاً في أدع لهم أن يسلخوا من جلدي نصفه، فناديت الجبل مرة أخرى أهيب به أن يسحقهم، فإن الجبل لن يتحرك من مكانه رغم جميع صرخاتي. وفي تلك اللحظة يمكن أن لا يساورني الشك فحسب، وإنما يمكن أيضاً أن أفقد عقلي بسبب ذعري الشديد بحيث أصبح عاجزاً حتى عن التفكير. أفيكون إثمي والحالة هذه كبيراً إذا أنا أردت عندئذٍ، بعد أن لم أظفر بنفع لا من هنا ولا من هناك، وبعد أن لم أستطع أن أرجو مكافأة، أن أنقذ جلدي على الأقل؟ ذلك هو السبب وأنا واثق ثقة كاملة بالرحمة الإلهية، في أنني آمل أن تغفر لي السماء غفراناً كاملاً.

– 8 –

أثناء شرب الكونياك

انتهت المجادلة، ولكن الأمر الغريب هو أن فيدور بافلوفتش الذي كان مرحاً في أول الأمر قد عبس واكفهرّ وجهه في النهاية. وها هو ذا، وقد بدا عليه الامتعاض واضحاً، يفرغ في جوفه قدحاً آخر من الكونياك، متجاوزاً الحدَّ الممكن تجاوزاً كبيراً. وصاح يقول للخادمين:

– انصرفوا، اخرجوا... أيها اليسوعيون! امض يا سمردياكوف. ستصلك العشرة دنانير الذهبية التي وعدتك بها، ولكن هيا انصرف! وهوِّن عليك يا جريجوري، عد إلى مارفا فترد إليك هدوءك وتضعك في سريرك.

فما إن نفَّذَ الخادمان أمره فانصرفا، حتى أضاف يقول بحدة وشراسة:

– إن هؤلاء الأوغاد لا يدعون لي شيئاً من راحة بعد الغداء، أنت الذي تجتذبه يا إيفان. ماذا فعلت حتى فتنته؟

كذلك سأل الأب ابنه إيفان. فأجابه هذا بقوله:

– لم أفعل شيئاً البتة. خطر له أن يظهر احتراماً نحوي لا أدري لماذا... هو خادم ووضيع... ولكنه واحد من أولئك الذين يندفعون إلى الصف الأمامي متى حانت الساعة.

- إلى الصف الأمامي؟

- سيكون هنالك آخرون، وسيكون هنالك أناس أفضل منه. ولكن سيجيء أيضاً أناس مثله. وأمثاله هم الذين سيؤكدون أنفسهم أولاً، ثم يجيء دور من هم أفضل منه.

- ومتى تحين تلك الساعة؟

- سوف تشتعل الأسهم النارية ثم ربما انطفأت فالشعب لا يحب بعد الإصغاء إلى هؤلاء المحرّضين كثيراً.

- إن تلك الحمارة قد أخذت تفكر، ولا يدري إلا الشيطان إلى ماذا يمكن أن تؤدي أفكارها.

قال إيفان ماكراً ساخراً:

- إنه يجمّع آراء ويراكم أفكاراً.

قال الأب:

- أنا أعلم تماماً أنه يكرهني كما يكره الآخرين، وكما يكرهك أنت أيضاً رغم ما تظنه من أنه يكنُّ لشخصك «الاحترام». أما شعوره نحو أليوشا فهو أسوأ من ذلك أيضاً: إنه يحتقره. ولكن يجب أن نعترف أنه في مقابل ذلك لا يسرق، وأنه ليس بنمَّام، فهو يعرف كيف يصمت، ولا يثرثر خارج المنزل عن ما يسمعه بالمنزل. وهو إلى هذا يجيد طهي أنواع الكولبياكا. أما فيما عدا ذلك، فشيطان يأخذه! أليس هذا صحيحاً؟ وهل يستحق منا عناء التحدث عنه طويلاً؟

- لا... لا يستحق طبعاً.

- أما فيما يتعلق بالأفكار التي يمكن أن تقوم في رأسه، فأنا من جهتي أعتقد على وجه العموم بأن الفلاح الروسي يستحق أن يُضرب ضرباً مبرحاً. لقد أكدت هذا الرأي دائماً. إن فلاحينا أوغاد لا

يستحقون الشفقة. ويميناً إنه لمن الخير أنهم يضربون من حين إلى حين، في أيامنا أيضاً، هؤلاء الأوغاد... إن قوة روسيا في أشجار البتولا التي تؤخذ منها العصيّ فمتى قطعت الغابات ضاعت بلادنا. أنا شخصياً أحب العقل. ولا شك أننا قد كففنا عن ضرب الفلاحين لإفراطنا في حب العقل. ولكن الفلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم[93]. وخيراً يفعلون: على قدر الفعل يكون الجزاء... أو شيئاً من هذا القبيل... على كل حال... ينالون الجزاء... أما روسيا فهي بلد قذر حقير... ليتك تعلم يا صديقي كم أكره روسيا... أو قل إنني لا أكره روسيا بل أكره هذه العيوب... وربما كرهت روسيا أيضاً... Tout cela c'est de la cochonnerie[94] هل تعرف ما الذي أحبه أنا؟ أنا أحب الفكاهة.

- لقد شربت قدحاً آخر منذ هنيهة. أظن يكفيك.

- لا، مهلاً. سأشرب قدحاً، فقدحاً ثانياً، ثم أتوقّف بعد ذلك. ماذا كنت أريد أن أقول؟ قطعتَ سلسلة أفكاري.. ها.. نعم.. حين كنت ماراً بموكرويه سألت رجلاً عجوزاً فأجابني بما يلي: «نحن نحب كثيراً أن نحكم على البنات بالجلد، ونعهد بذلك إلى الشباب. فكثيراً ما يحدث أن نرى الفتى الذي جلد الفتاة بالأمس يجيئها اليوم خاطباً. وهكذا تنتفع البنات أيضاً من الأمر، كما يقال». ما رأيك في شبابنا أنصار المركيز دي ساد[95]؟ منظر ظريف على كل حال. ليتنا نذهب يوماً لرؤية المشهد، هه؟ مالك يا أليوشا تحَمّر؟ لا تخجل يا صغيري! يا لها من خسارة أنني لم أحضر مأدبة كبيرة الرهبان لأقص على الرهبان قصة بنات موكرويه هذه! لا تؤاخذني يا أليوشا على أنني أهنتِ صاحبك كبير الرهبان منذ قليل. فالغضب يستبد بي أحياناً... لا شك أنني أكون آثماً، ولا شك أنني

سأعاقب، إذا كان الله موجوداً. ولكن إذا لم يكن الله موجوداً فإنه لا بد من أن يُعامَل آباؤك الرهبان بقسوة أكبر! إذا لم يكن الله موجوداً فإنه لقليل جداً أن نقطع رؤوسهم، لأنهم يعوقون التقدم! هل تصدقني يا إيفان إذا قلت لك إن هذا يعذب عواطفي؟ لا... أنت لن تصدقني... إنني أرى هذا في عينيك. أنت تظن كما يظن سائر الناس أنني مهرج لا أكثر. أليوشا، هل تصدق أنني لست مهرجاً فحسب؟

- أنا أعلم أنك لست مهرجاً فحسب.

- أصدقك. أعرف أنك تتكلم الآن مخلصاً. أنت تقول الحقيقة.. وعيناك لا تكذبان، أما إيفان فلا... هو رجل مزهو بنفسه... مع ذلك، لو كنت في مكانك لتركت هذا الدير وانتهيت منه... هذه الصوفية يجب اجتنباتها تماماً من الأرض الروسية كلها في ذات يوم، لنردَّ الأغبياء إلى العقل، ونرجعهم إلى الرشاد. ما أكثر الفضة ما أكثر الذهب الذي يمكن أن تستردّه خزانة الدولة بهذه الطريقة!

سأل إيفان:

- لماذا نلغيها؟

- لماذا؟ لنعجّل انتصار الحقيقة في هذا العالم.

- أفلا تدري إذاً أنه إذا انتصرت الحقيقة فستكون أنت أول من يجرِّدونه في البداية، ثم... يلغونه؟

- هة... بالفعل، قد تكون مصيباً، يا لي من حمارة! قال فيدور بافلوفتش ذلك، لطم جبينه بيده لطمة خفيفة على حين فجأة، وأضاف:

- إذن فلا نمسنَّ ديرك بسوء يا أليوشا، ما دام الأمر كذلك. أما

نحن، معشر الأذكياء، فلنستمر.. نعيش في رخاء ونحتسي الكونياك! إن الله نفسه، يا عزيزي إيفان، هو الذي لا بد أنه أراد إقامة ذلك النظام. ولكن قل لي يا إيفان: هل الله موجود أم غير موجود؟ ولكن قف! إنني أريد جواباً صادقاً، بجدّ لا هزل! لماذا تضحك من جديد؟

- أضحك لأنني تذكرت الفكرة التي عبرت عنها منذ برهة تعبيراً فكهاً في اعتقاد سمردياكوف بوجود ناسكَيْن قادرين على تحريك الجبال.

- هل يذكرك كلامي الذي أقوله الآن بسمردياكوف في هذه النقطة؟

- جداً.

- معنى هذا أنني أنا أيضاً روسي حقاً، أتصف بما يتصف به الروسي من خصائص تميزه. ولا بد أن تكون أنت أيضاً متصفاً بهذه الخصائص، مهما تكن فيلسوفاً. هل تريد أن أبرهن لك على ذلك بالوقائع؟ إنني أراهن على أنني سأستطيع ذلك منذ الغد. ومع ذلك أجبني: هل الله موجود أم لا؟ إيّاك أن تهزل! فإنني أريد الآن أن تتكلم جاداً.

- لا.. لا يوجد إله.

- أليوشا، هل الله موجود؟

- الله موجود.

- سؤال آخر يا إيفان: هل هناك خلود؟ هل هناك أي خلود، ولو صغير، صغير جداً؟

- لا يوجد خلود كذلك.

- أياً كان؟

- أياً كان.

- أهو العدم المطلق إذاً؟ أم يوجد شيء ما؟ ربما يوجد شيء ما مع ذلك؟

- لا شيء إلا العدم الكامل.

- أليوشا، هل هناك خلود؟

- نعم هناك خلود.

- إذن يوجد إله ويوجد خلود؟

- نعم، يوجد إله ويوجد خلود والخلود يوجد في الإله.

- هِمْ... لا شك أن إيفان هو صاحب الرأي الصحيح. ومع ذلك ما أكثر التضحيات التي ضحاها الإنسان في سبيل هذا الاعتقاد، وما أكثر القوة التي أنفقها على هذا الأمل في غير طائل، منذ ألوف السنين!.. فمن ذا الذي يضحك على الإنسانية هذا الضحك، من ذا الذي يسخر منها تلك السخرية! إنني ألقي عليك هذا السؤال يا إيغان آخر مرة، أريد جواباً قاطعاً جازماً: الله موجود أم لا؟ أسألك لآخر مرة!

- أجيبك لآخر مرة: لا!

- فمن ذا الذي يسخر إذن من البشر يا إيفان؟

فقال إيفان ضاحكاً بسخرية:

- قد يكون الشيطان.

- وهل الشيطان موجود؟

- لا... والشيطان أيضاً غير موجود.

- خسارة... لا يعلم أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به، ذلك الذي اخترع الله أولَ من اخترعه! إن الشنق قليل عليه.

- لولا أن اختُرع الله لما وُجدت المدنية.

- المدنية؟ لولا الله لما وُجدت المدنية؟

- بلى... ولما وُجد الكونياك أيضاً! أحسب أنه قد آن مع ذلك أن ننتزع منك قارورة الكونياك هذه.

- لحظة، لحظة يا عزيزي! كأساً صغيرة أخرى... لقد أسأتُ إلى أليوشا. الم تزعل مني يا ألكسي؟ ألم تغضب مني يا عزيزي الصغير أليوشا، يا بنيَّ الطيب الشهم؟

- لا... لست غاضباً. أنا أعرف أفكارك. إن القلب فيك خير من الرأس.

- قلبي خير من رأسي؟ وهو الذي يقول هذا الكلام يا رب! إيفان، هل تحب أليوشا؟

- أحبه.

- يجب أن تحبه (كان فيدور بافلوفتش في تلك اللحظة قد أخذ السكر منه مأخذه). اسمع يا أليوشا. لقد أسأت إلى شيخك في هذا الصباح. ولكنني كنت مهتاجاً اهتياجاً شديداً. ألا إن لهذا الشيخ شيئاً من ظرافة، ما رأيك يا إيفان؟

- صحيح.

- نعم نعم... Il ya du Piron là-dedans[96] إنه يسوعي، أقصد إنه روسي. وهو، ككل إنسان ذي عواطف رفيعة ومشاعر سامية لا بد أن يسوءه أحياناً في الخفاء أن يضطر إلى التظاهر.. أن يصطنع مظاهر قديس.

- لكنه يؤمن بالله.

- هو؟! أبداً. ألم تكن تعرف ذلك؟ ثم إنه يعترف بهذا هو نفسه لجميع الناس... لا لجميع الناس طبعاً... بل للأذكياء ممن يزورونه. لقد قال جازماً قاطعاً وهو يتحدث إلى المحافظ شولتس: أنا أؤمن، ولكن لا أدري بماذا.

- أهذا ممكن؟

- تماماً. وأنا أحترمه مع ذلك. إن فيه عنصراً مفستوفيلسياً، أو قل إن هناك شيئاً بينه وبين «بطل من هذا الزمان»، آربينين[97] إذا صدقت ذاكرتي... أقصد أنه رجل شهواني. وهو يبلغ من الميل إلى النساء أنني أكون، حتى اليوم، قلقاً على زوجتي أو على ابنتي، إذا هما ذهبتا تعترفان له... فتخيل!.. هل تعلم أنه يتفق له أن يروي قصصاً من تلك القصص... منذ ثلاث سنين دعانا إلى احتساء الشاي عنده مع خمور (إن السيدات يرسلن إليه خموراً)، فأخذ يستحضر صوراً من ماضيه... حتى إننا أمسكنا بطوننا حتى لا ننفجر من شدة الضحك... ولا سيما حين حدثنا عن تلك المرأة العاجزة التي شفاها... لقد قالن له: «لولا أن ساقيَّ مريضتان هذا المرض، لرقصت لكم رقصة من تلك الرقصات!» هه؟ ظريف، أليس كذلك؟ وقد أسرَّ إلينا يومئذٍ قوله: «كانت لي في حياتي مغامرات!» وقد سلب التاجر ديميدوف ستين ألف روبل.

- ماذا؟ سرقها؟

- استودعه الرجل المبلغ أمانةً لما عرف به من صلاح وفضل. قال له: «احتفظ لي به عندك، لأن منزلي سيفتَّش في الغد». فاحتفظ الآخر بالمبلغ. قال له: «أنت قد وهبت المبلغ لمبرات الكنيسة». فقلت له أنا: «أنت وغد». فقال لي: «لا... لست وغداً، بل أنا واسع النظرة»... ولكن لا... لا... لقد أخطأت... لم يجر الحديث معه هو... لقد خلطت بينه وبين شخص آخر... دون أن ألاحظ ذلك. كأساً أخرى، كأساً أخيرة، يا إيفان، ثم ارفع قارورة الكونياك. لقد كذبت، لماذا لم توقفني عن الكلام يا إيفان؟ لماذا لم تقل لي إنني أكذب؟

- كنت أعرف أنك ستتوقف من تلقاء نفسك.

- غير صحيح! إنك لم تفعل ذلك بدافع الخبث، بدافع الخبث وحده. إنك تحتقرني. لقد جئت تعيش معي، ثم أنت تعاملني باحتقار حتى في منزلي.

- سأرحل إذاً. إن الكونياك قد شوش عقلك!

- لقد تضرعت إليك، باسم يسوع المسيح، أن تذهب إلى تشرماشنيا... يوماً أو يومين... ثم لم تفعل!

- سأذهب غداً ما دمت تلح.

- لن تذهب. إنك تريد أن تراقبني هنا. تلك هي غايتك يا ذا النفس السوداء! لذلك لن تذهب!

لم تهدأ ثائرة العجوز. لقد وصل من نشوة الكحول إلى تلك المرحلة التي يشعر فيها بعض السكيرين الذين هم في العادة أناس مسالمون بحاجة مفاجئة إلى أن يغضبوا، وأن يظهروا ما هم قادرون عليه.

- مالك تتفرس فيَّ هكذا؟ يا لعينيك هاتين ما أقذرهما! إنك تنظر إليّ فأقرأ في نظرتك قولك: «أيها السكير الدنيء»! آه من هاتين العينين اللتين تفيضان شكاً وريبة واحتقاراً!.. أنت إنما جئت إلى عندي لغاية معينة في نفسك... ولا كذلك أليوشا... إنه ينظر إليّ بعينين تشرقان صراحة. أليوشا لا يحتقرني. يا ألكسي إياك أن تحب إيفان...

قال أليوشا بحزم مباغت:

- لا تغضب من أخي! اكفف عن إهانته.

- طيب، أظن أنني فعلاً... أف... ما أشد هذا الصداع! هذا الكونياك يا إيفان! هذه ثالث مرة أطلب إليك فيها أن ترفع هذا الكونياك.

قال فيدور بافلوفتش ذلك، ثم أطرق يفكر، واستطالت شفتاه بابتسامة ماكرة:

- لا تغضب يا إيفان من هذا العجوز المهووس. انا أعرف أنك لا تحبني ومع ذلك لا تغضب مني. وليس هناك ما يوجب أن تحبني على كل حال... اذهب إلى تشرماشنيا، وسألحق بك حاملاً إليك حلوى... وسأعرِّفك هناك ببنت من تلك المنطقة لاحظتها منذ زمن طويل. هي الآن فتاة صغيرة رثة بائسة. لا تخش الصبايا الرثات. لا تحتقرهن قط... فهنَّ لآلئ في كثير من الأحيان!

قال ذلك وقبَّل يده قبلة مدوِّية. ثم أردف وقد انتعش فجأة كأن إثارة موضوعه المفضل قد ردته إلى الوعي للحظة.

- ما أنتم أيها الفتية إلا صبية، إلا خنزيران صغيران... أنا لم توجد بالنسبة لي طوال حياتي امرأة قبيحة... تلك هي مبادئي! أأنتم قادرون على أن تفهموا هذا؟ ولكن أنى لكم أن تفهموه! إن عروقكم ليس فيها بعد إلا لبن... ما أنتم إلا أفراخ! إن القاعدة التي ألتزمها في سلوكي هي أن في كل امرأة شيئاً خاصاً شائقاً لا يمكن أن يوجد في امرأة أخرى.. وإنما المهم أن يستطيع المرء اكتشافه... وذلك فن... ذلك فن يحتاج إلى موهبة! ما من امرأة أمكن أن تكون في نظري دميمة في يوم من الأيام. حسبها أن تكون امرأة.. هذا وحده نصف الأمر.. ولكن أنى لكم أن تفهموه! حتى العوانس لا بد أن يكتشف المرء فيهن متى عرضت الفرصة أشياء يُذهله أن يتصور أن هناك أناساً أغبياء تركوا لهن أن يَشِخْنَ دون أن يلاحظوهن! وأول شيء يجب أن يعمد إليه الرجل مع هاته الصغيرات الرثات الدميمات هو أن يدهشهن. بهذه الوسيلة إنما يجب الوصول إليهن. ألم تكن تعرف ذلك؟ يجب أن تبلغ بهن الدهشة حد النشوة، حدَّ التأثر، حدَّ

الشعور بالخزي من أن سيداً أنيقاً أمكن أن يتوله حباً ببنت من الرعاع أمثالها. إلا أنه لشيء رائع أنه سيبقى في هذا العالم إلى الأبد سادة وخدم، ففي هذه الحالة سيظل هناك صغيرة رثّة ما، يحلو لها أن تُفرِحَ سيدها ومولاها. تلك هي سعادة الحياة! انتظر... هل تعرف يا أليوشا؟ أنني قد بعثت الدهشة دائماً في نفس المرحومة أمك، ولكن بمعنى آخر. كنت أدعها مدة طويلة بلا ملاطفات ومداعبات، ثم إذا أنا في ذات يوم، في دقيقة من تلك الدقائق التي يتفق لي أن أعرفها، أسترسل فجأة في إظهار جميع أنواع العواطف، حتى لأزحف على ركبتَيّ، واقبل قدميها الصغيرتين، فأنقلها في كل مرة - ما زلت أتذكر هذا كأنه حدث بالأمس - أنقلها في كل مرة إلى حالة نفسية خاصة، فإذا هي تأخذ تضحك... تأخذ تضحك ضحكاً فريداً من نوعه... ضحكاً واهناً رناناً في آن واحد، ضحكاً عصبياً خاصاً. وكان ذلك على كل حال هو النوع الوحيد من الفرح الذي عرفته. وكنت أعلم أن مرضها إنما يبدأ عندها بهذه الطريقة نفسها، فهي تأخذ في الغداة تصرخ مثل كليكوشا، وذلك الضحك الخاص لم يكن يعبّر في الواقع عن أي فرح. ومهما يكن ذلك خداعاً فهو فرح على كل حال. فهل رأيتم أنه لا بد من مهارة العثور في كل شيء على جانب مميز جذاب؟ وقد اتفق في ذات يوم أن بيليافسكي - وهو رجل غندور غني جداً كان يسعى إليها واستطاع أخيراً أن يدخل بيتي - قد صفعني على وجهي في بيتي بحضورها فماذا حدث؟ لقد أوشكت هذه المرأة التي تشبه أن تكون حملاً، أوشكت أن تضربني بسبب هذه الصفعة! ليتكم سمعتم كيف أخذت تؤنبني وتقرعني: «سمحت له أن يضربك؟ أن يضربك؟... ارتضيت أن تتلقى صفعة من هذا الشخص؟ لقد أردت ان تبيعني له... كيف تجرؤ أن

يصفعك أمامي؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم قط! هيا اطلبه للمبارزة.. أسرع».. هكذا أخذت تقول لي. أخذتها آنذاك إلى الدير لأهدئ روعها، ولكي يزجرها الرهبان هناك. ولكنني أقسم لك يا أليوشا أمام الله أنني لم ألحق بها أذى في يوم من الأيام، لم ألحق أي أذى بصغيرتي العزيزة الكليكوشا!.. اللّهم إلا مرة واحدة، أثناء السنة الأولى من حياتنا. وكانت في ذلك الأوان تسرف في الصلاة في رأيي، وتراعي أعياد السيدة العذراء مراعاة دقيقة، فتطردني إلى مكتبي للنوم بعيداً عنها. خطر ببالي مرة أن أطرد هذه الأفكار من ذهنها، فقلت لها: «هل ترين هذه الأيقونة؟ سأمضي إليها الآن، فأرفعها من مكانها... إنك تعتقدين بأن هذه الصورة تحقق معجزات... طيب.. سأبصق عليها الآن أمامك، فلا يحدث لي شيء!..» يا إلهي! حين نظرت إليها عندئذٍ فرأيت تعبير وجهها، خيِّل إليّ أنها ستقتلني فوراً. ولكنها لم تزد على أن نهضت ورفعت ذراعيها في الهواء، ثم غطت وجهها بيديها، وأخذت ترتعش من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، ثم هوت على الأرض منهارة انهياراً تاماً أليوشا، أليوشا؟ ما بك؟ ماذا دهاك يا صغيري؟

وثب العجوز عن مقعده مذعوراً. كان وجه أليوشا قد بدأ يتغير تعبيره شيئاً فشيئاً منذ أخذ العجوز يتحدث عن أمه. لقد أحمر في أول الأمر، واشتعلت عيناه، وأخذت شفتاه تختلجان... وكان العجوز السكران يقذف من فمه رذاذاً من لعاب أثناء كلامه دون أن يلاحظ شيئاً، إلى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب: لقد صار أليوشا إلى تلك الحالة نفسها التي وصفها أبوه في كلامه عن الكليكوشا: نهض عن مكانه فجأة كما فعلت أمه في القصة التي رواها أبوه عنها، ورفع ذراعيه في الهواء، ثم غطى وجهه

بيديه، ثم عاد يتهاوى على كرسيه كتلة واحدة، وأخذ يرتجف جسمه كله ويهتز في نوبة هستيرية تصاحبها دموع صامتة. وقد دُهش العجوز دهشة خاصة من هذا التشابه الخارق الذي ظهر في تلك اللحظة بين أليوشا وأمه. فقال ينادي إيفان:

- إيفان! إيفان! هات ماء، أسرع! هو مثلها، مثل أمه تماماً آنذاك! رشّ عليه ماء من فمك، فذلك ما كنت أفعله أنا بها.

ودمدم مخاطباً إيفان: - هذا بسبب أمه، أمه..

ـ أمه؟ يخيّل إليّ أن أمّه هي أمي أيضاً، ألا تقدّر ذلك؟

هكذا انفجر يقول إيفان على حين فجأة، في سورة من غضب شديد واحتقار هائل، فانتفض العجوز حين رأى نظرته الحانقة المسعورة. عندئذٍ حدث شيء عجيب، ولكنه لم يدم إلا بضع ثوان. يبدو أن العجوز قد نسي فعلاً أن أم أليوشا هي أم إيفان أيضاً، فها هو ذا يقول مدمدماً دون أن يفهم:

- أمك؟ كيف؟ ماذا تريد أن تقول؟ عن أي أم تتكلم؟ أتكون هي حقاً؟... آه... لعن الله الشيطان! نعم... هي أمك أيضاً! لعن الله الشيطان! يا لاختلال العقل هذا، الذي لم أعرف مثله في حياتي! معذرة يا إيفان. لقد خيّل إليّ أن... هأ هأ هأ!...

قال العجوز ذلك ثم توقف. وملأت وجهه ابتسامة بلهاء طويلة من ابتسامات السكيرين. وفي تلك اللحظة نفسها سمعت فجأة من الدهليز جلبة رهيبة. وضوضاء شديدة تقطعها صرخات حادة عنيفة. وانفتح الباب بما يشبه الإعصار، وظهر دمتري فيدوروفتش مندفعاً إلى الغرفة. ارتمى العجوز نحو إيفان وقد استولى عليه جزع هائل، وطفق يصيح وهو يتشبث بحافة رداء إيفان بكل ما أوتي من قوة:

- سيقتلني، سيقتلني!.. لا تتركني له.. لا تتركني!

- 9 -

الشهوانيون

ما إن دخل دمتري فيدوروفتش الغرفة حتى هرع جريجوري وسمردياكوف في أثره. كانا قد حاولا في الدهليز أن يمنعاه بالقوة من الدخول (تنفيذاً للأوامر التي أصدرها إليهما فيدور بافلوفتش منذ بضعة أيام)، فلما صار دمتري فيدوروفتش في الصالون، فتوقف لحظة قصيرة ليعرف ما حوله. انتهز جريجوري هذه الفرصة فدار حول المائدة، ومضى إلى الباب الذي يوجد في آخر الصالون ويفضي إلى الغرف الداخلية فأغلق مصراعيه ووقف أمامه مصالباً عليه ذراعيه كأنه مستعد لأن يمنعه من الدخول منه إلى آخر رمق. فلما رآه دمتري لم يطلق صرخة حادة فحسب، بل قل زأر زئيراً رهيباً وارتمى على الخادم العجوز، قائلاً:

- هي إذن هنا! خبأتموها هنا! ابتعد أيها الشقي! أراد دمتري أن يقصي جريجوري، ولكن جريجوري دفعه عنه، فجُنَّ جنون دمتري حنقاً، فرفع ذراعه وهوى على الخادم بضربة قوية، فسقط الخادم على الأرض كتلة واحدة، وقفز دمتري من فوقه، واقتحم الباب. أما سمردياكوف فقد ظل في الطرف الآخر من الصالون يشد نفسه إلى فيدور بافلوفتش شاحب الوجه مرتعد الجسم.

صرخ دمتري فيدوروفتش يقول:

- هي هنا حتماً. رأيتها تتجه إلى هذا المنزل منذ هينهة، ولكنني لم أستطع أن أدركها. أين هي؟ أين هي؟

أحدثت هذه الصرخة «هي هنا!» في فيدور بافلوفتش أثراً خارقاً، فتبدد خوفه وزال جزعه دفعة واحدة، وزأر يقول وهو يندفع وراء دمتري فيدوروفتش:

- أوقفوه! أوقفوه!

وكان جريجوري قد نهض عن الأرض أثناء ذلك، ولكنه ما يزال طائش اللب. وأسرع إيفان فيدوروفتش وأليوشا يجريان وراء أبيهما ليصداه. وسُمعت في الغرفة الثالثة ضجة سقوط شيء وتناثر حطام: إنها زهرية كبيرة من الزجاج (ليست من أثمن الزهريات) كانت موضوعة على قاعدة من المرمر، فاصطدم بها دمتري فيدوروفتش أثناء جريه.

أعول العجوز من جديد يقول:

- أمسكوه! النجدة!

وأدرك إيفان فيدوروفتش وأليوشا العجوز في تلك اللحظة، واستطاعا أن يرجعاه إلى الصالون بالقوة.

صرخ إيفان فيدوروفتش في غضب مخاطباً أباه:

- دعك من ملاحقته إنه سيقتلك هناك فعلاً!

- بنيَّ فانيا، بني ليوشا[98]! جاءت إذن جروشنكا هي هنا. رآها بنفسه تجري نحو داري.

كان فيدور بافلوفتش يَشْرَقُ بالكلام. كان لا يتوقع أن تجيء جروشنكا في ذلك اليوم، فلما سمع أنها جاءت طاش عقله. كان جسمه كله يرتعد. وكأنه قد أصيب بالجنون.

قال له إيفان حانقاً:

- لقد رأيت بنفسك أنها لم تأت!

- لعلها دخلت من الباب الآخر.

- ولكن الباب الآخر مقفل، ومفتاحه في جيبك...

وفجأة ظهر دمتري مرة أخرى في الصالون. لقد وجد الباب الثاني مغلقاً بطبيعة الحال، لأن مفتاح ذلك الباب كان في جيب فيدور بافلوفتش، وكانت النوافذ موصدة في جميع الحجرات من جهة أخرى، فما كان لجروشنكا إذن أن تستطيع دخول المنزل من أي مدخل ولا أن تغادره من أي مخرج.

أعول فيدور بافلوفتش حين رآه، قائلاً:

- اقبضوا عليه! لقد ذهب يسرق مالاً من غرفة نومي!

واستطاع فيدور بافلوفتش أن يتملص من يدي إيفان، فهجم ثانية على دمتري. ولكن دمتري رفع ذراعيه، وأمسك العجوز فجأة من خصلتي شعره الباقيتين على صدغيه، وشده منهما شداً قوياً فرماه على الأرض في قرقعة، واتسع وقته كذلك لأن يطرق وجه أبيه بكعب حذائه مرتين أو ثلاثاً وهو متمدد بين قدميه، فأطلق العجوز من صدره أنيناً حاداً. ولكن إيفان فيدوروفتش، رغم أنه لا يملك ما يملكه أخوه من قوة، طوق أخاه بكلتا ذراعيه واستطاع أن يبعده عن الأب، وعاونه أليوشا الضعيف على ذلك في حدود طاقته، ممسكاً دمتري من أمام.

صرخ إيفان يقول:

- أيها المجنون، لقد قتلته.

فصاح دمتري يقول وهو يختنق:

- هذا ما يستحقه! وإذا أخطأته هذه المرة، فسأعود مرة أخرى لأجهز عليه! ولن تحموه مني عندئذٍ!

وقال أليوشا بلهجة آمرة:

- اذهب يا دمتري! اخرج من هنا فوراً!

- ألكسي! قل لي الحقيقة كلها. أنت الإنسان الوحيد الذي أثق به وأطمئن إلى صدقه: أكانت هنا منذ قليل أم لا؟ لقد لمحتها متسللة على طول السياج في آخر الزقاق، متجهة نحو هذه الدار، فناديتها فولت هاربة...

- أحلف لك أنها لم تأت هنا، وأن أحداً هنا لم يكن ينتظرها إطلاقاً!

- ولكنني رأيتها بعيني... إذن هي... سوف أعرف حالاً أين هي الآن... إلى اللقاء يا ألكسي! لا تقل لايزوب[99] كلمة واحدة في أمر المال الآن. ومن كل بد اذهب فوراً إلى كاترينا إيفانوفنا. قل لها: «إنه يبلغك احترامه، احترامه، احترامه، يبلغك احترامه مودعاً!» وصِفْ لها هذا المشهد.

وكان إيفان وجريجوري قد أنهضا العجوز أثناء ذلك، وأجلساه على مقعد، كان وجهه دامياً، ولكنه ليس مغشياً عليه فهو يتابع أقوال دمتري وصيحاته بشراهة، وما يزال يسيطر عليه الشعور بأن جروشنكا مختبئة في مكان ما بالمنزل. وحين همَّ دمتري فيدوروفتش أن ينصرف رشق أباه بنظرة تفيض كرهاً وبغضاً، وقال له:

- لست نادماً على أنني سفحت دمك! حذار أيها العجوز إذا كان ما يزال لك أمل، فاحذر من أملي أنا! إنني ألعنك وأتبرأ منك!..

قال ذلك وخرج من الغرفة مسرعاً.

- هي هنا، هي هنا قطعاً! سمردياكوف، سمردياكوف!

هكذا نادى العجوز بصوت محشرج لا يكاد يُسمع، وهو يومئ بإصبعه إلى الخادم.

فصاح إيفان بصوت حانق يقول:

- بل ليست هنا، ليست بالمنزل، أيها العجوز المعتوه.. ها هو ذا يُغمى عليه. هاتوا ماء، أسرعوا، وهاتوا منشفة أسرع يا سمردياكوف!

مضى سمردياكوف بأقصى سرعة لإحضار ماء. وخلعوا عن العجوز ثيابه أخيراً، ونقلوه إلى غرفة نومه، وأرقدوه على سريره، وأحاطوا رأسه بمنشفة مبللة. فما إن لامس رأس العجوز مخدته، وقد أوهنه الكونياك وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية، حتى أغمض عينيه ونام. وعاد إيفان فيدوروفتش وأليوشا إلى الصالون. ولمَّ سمردياكوف حطام الزهرية المهشمة. ولبث جريجوري جامداً قرب المائدة، مظلمَ الوجه، خافض الرأس في عناد.

قال أليوشا لجريجوري:

- يحسن بك أنت أيضاً أن تلفّ رأسك بمنشفة مبللة وأن ترقد في فراشك. سنبقى هنا ونعتني به. لقد ضربك أخي ضربة قوية... على رأسك.

قال جريجوري بصوت مبحوح بطيء:

- تجرأ أن يضربني!

فقال إيفان فيدوروفتش وقد أعوج شدقاه:

- تجرأ؟ لم «يتجرأ» أن يضربك وحدك، بل ضرب أباه أيضاً!

- كنت أتولى غسله بنفسي... ثم هو يتجرأ عليَّ الآن فيضربني!

كذلك ردد جريجوري.

واستأنف إيفان كلامه مخاطباً أليوشا بصوت هامس:

- من يدري؟ لعله كان سيقتله لو لم أبعده عنه بالقوة. تكفي أيزوب ضربة أو ضربتان!

فهتف أليوشا يقول:

- حمانا الله من هذا!

فاستأنف إيفان كلامه هامساً مرة أخرى، ملتوي الوجه من الحنق:

- حمانا الله من هذا؟ فليفترس أحد الأوغاد وغداً آخر! ذلك هو المصير الذي يتسحقانه!

ارتعش أليوشا.

- طبعاً سأحول دون وقوع الجريمة كما فعلت منذ هنيهة. ابق هنا يا أليوشا. وسأخرج أنا إلى الفناء، فقد بدأت أشعر بصداع في رأسي.

عاد أليوشا إلى غرفة نوم أبيه، ولبث عند سريره قرابة ساعة، جالساً بين السرير والحاجز. ثم إذا بالعجوز يفتح عينيه فجأة، فيطيل النظر إلى أليوشا صامتاً، وهو يحاول أن يتذكر وأن يفهم، ثم إذا باضطراب خارق ينعكس على وجهه فيدمدم قائلاً بوجل وخوف:

- أليوشا، أين إيفان؟

- في الفناء. إن به صداعاً. ولكنه ساهر على حراستنا.

- ناولني المرآة. هي هناك، هل تراها؟ ناولنيها.

مد إليه أليوشا المرآة الصغيرة المدوَّرة ذات المسند المطوي التي كانت موضوعة على المنضدة. نظر العجوز في قسمات وجهه: كان أنفه قد تورم تورماً شديداً، وكانت فوق حاجبه الأيسر بقعة حمراء تدل على أن دماً قد نزف.

- ماذا دها إيفان؟ أليوشا. بني الطيب الشهم، أنت وحدك ابني! إنني أخشى إيفان، أخشاه أكثر مما أخشى الآخر. أنا لا أخاف منك وحدك...

- لا تخف من إيفان أيضاً. صحيح أنه يغضب، ولكنه سيدافع عنك.

- أليوشا! والآخر، أين هو؟ ذهب إلى جروشنكا، أليس كذلك؟ يا ملاكي الطيب، قل لي الحقيقة كاملة: أجاءت جروشنكا إلى هنا أم لا؟

- لم يرها أحد هنا. تلك كذبة. إنها لم تجئ!

- يريد دمتري أن يتزوجها، هل تعلم ذلك؟ أن يتزوجها!

- لن توافق هي على هذا.

- لن توافق، لن توافق على أن تتزوجه، لن توافق على هذا أبداً!..

كذلك صاح العجوز جذلاً فرحاً، وقد انتعش دفعة واحدة على حين فجأة، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره كما تسره في تلك الدقيقة هذه الفكرة التي عبَّر عنها أليوشا. ومن فرط حماسته، أمسك يد أليوشا فوضعها بقوة على قلبه، حتى لقد تلألأت دموع في عينيه. خذ الأيقونة، أيقونة العذراء المقدسة، التي تكلمت عنها منذ برهة. إنني أهب لك هذه الأيقونة، انقلها إلى مسكنك. وإني لأعدك أيضاً بأن تعود إلى الدير. لا تؤاخذني يا أليوشا، فإنني ما أردت إلا المزاح. بي صداع يا أليوشا، يا عزيزي أليوشا... هدئ روعي، طمئن قلبي يا من أنت كالملاك، قل لي الحقيقة كلها!

- أفي أمر جروشنكا ثانية؟ أأنها جاءت إلى هنا؟

كذلك سأل أليوشا بلهجة مرة. فقال له أبوه.

- لا.. لا... إنني أصدقك. إليك ما أريده منك: اذهب إلى جروشنكا، أو دبِّر أمرك بحيث تراها، واسألها بأقصى سرعة ممكنة دون أن تضيع من الوقت دقيقة واحدة... حاول أن تعرف منها هي، أو أن تحزر من كلامها: أيّنا تفضل، هو أم أنا؟ هه؟ هل تستطيع أن تفعل هذا في سبيلي؟

دمدم أليوشا يقول مضطرباً:

- سأسألها عن ذلك إذا رأيتها.

- لا، إنها لن تقول لك شيئاً. إنها امرأة متقلبة. سوف تأخذ تُقَبّلك وتجيبك قائلة إنها تؤثرك أنت، إنها تريدك أنت! هي امرأة كذابة، امرأة قليلة الحياء. ما ينبغي أن تذهب إليها، ما ينبغي أبداً!

- ثم إن الذهاب إليها ليس بالأمر الحسن، يا ابتاه!

- قل لي: إلى أين كان يريد أن يرسلك حين صاح قائلاً لك لحظة انصرافه «اذهب إليها»؟

- إلى كاترينا إيفانوفنا.

- للحصول على مال؟ ليسألها مالاً؟

- لا... ليس الأمر أمر مال.

- أنا أعلم أنه لا يملك كوبيكاً واحداً. اسمع يا أليوشا. سأرتاح حتى صباح الغد، وسأفكر في جميع هذه الأمور. دعني الآن. قد تلقاها في طريقك... ولكن تعال إليّ غداً في ساعة مبكرة، تعال حتماً، هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها. هل تجيء؟

- أجيء.

- تظاهر بأنك تجيء من تلقاء نفسك لتسأل عن أخباري. لا تذكر لأحد أني رجوتك أن تجيء. ولا تقل كلمة واحدة لإيفان خاصة.

- طيب.

- إلى اللقاء يا ملاكي. لقد دافعت عني، فلن أنسى هذا أبداً... سأقول لك في الغد شيئاً... يجب أن أفكر في هذا الشيء مزيداً من التفكير...

- وكيف حالك الآن؟

- سأنهض منذ الغد فأخرج. سأكون في غد قد شُفيت سأكون قد أبللت تماماً...

وحين قطع أليوشا فناء المنزل وجد أخاه إيفان جالساً على دكة قرب الباب. كان إيفان بسبيل تدوين بعض الأشياء في دفتره الصغير بالقلم الرصاص. أبلغه أليوشا أن العجوز قد استيقظ واسترد شعوره وأضاف إلى ذلك أنه قد أذن له بالعودة إلى الدير لليل.

قال له إيفان ناهضاً وقد بدا في وجهه كثير من التودد والتحبب:

- أليوشا، أحب كثيراً أن أراك غداً في الصباح.

فدُهش أليوشا من هذه البشاشة التي لم يألفها فيه. وأجابه:

- سأكون غداً عند السيدة خوخلاكوفا وابنتها. ومن الجائز أيضاً أن أذهب غداً إلى كاترينا إيفانوفنا إذا لم أجدها الآن في دارها...

- أأنت ذاهب إذن إلى كاترينا إيفانوفنا مع ذلك؟ لتنقل إليها «احترامه»؟

كذلك سأله إيفان وهو يبتسم على حين فجأة. اضطرب أليوشا وأردف إيفان يقول:

- أحسب إنني فهمت الموقف مما قاله لك منذ قليل، ومن ملاحظات أخرى سابقة. أغلب الظن أن دمتري رجاك أن تذهب إليها لتبلغها أنه يريد... أنه يريد... أقصد أنه يريد أن «يودعها» أليس كذلك؟

سأله أليوشا:

- قل لي يا أخي! كيف ستنتهي هذه الفظاعة بين دمتري وأبينا؟

- يستحيل التنبؤ بذلك. قد يسوَّى الأمر، وقد يهدأ الخلاف من تلقاء نفسه. إن هذه المرأة وحش كاسر. مهما يكن من أمر، يجب احتجاز العجوز في المنزل ومنع دمتري من الدخول إليه.

- اسمح لي بسؤال آخر يا أخي: هل يمكن فعلاً أن يكون من حق كل إنسان أن يعيِّن، حين ينظر إلى أقرانه البشر، أولئك الذين

يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يزولوا؟

- ما جدوى أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق؟ إن أكثر الناس لا يحسمون هذا السؤال في قلوبهم على هذا الأساس، وإنما هم يحسمونه مستلهمين اعتبارات مختلفة جداً عن هذا الاعتبار، اعتبارات أقرب كثيراً إلى الطبيعة. أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على إنسان من الناس حقَّ أن يتمنى ما يناسبه؟

- أن يتمنى موت إنسان آخر؟

- حتى ولو كان الموت، فماذا؟ ما ينبغي للمرء أن يكذب على نفسه... إن جميع الناس يعيشون على هذا النحو، وقد لا يكون من الممكن أن يعيشوا على غير هذا النحو... أأنت تلقي عليَّ هذا السؤال بسبب فكرتي تلك عن الوغدين؟ فاسمح لي إذن أن ألقي عليك أنا أيضاً هذا السؤال: هل تعتقد أنني قادر، مثل دمتري، على أن أسفح دم أيزوب، أي أن أقتله؟ هه؟

- ما هذا الكلام يا إيفان؟ لم يخطر ببالي شيء من هذا في يوم من الأيام! وحتى دمتري، ما أظنه قادراً على أن...

قال إيفان ساخراً:

- أشكر لك هذه الثقة على الأقل. اعلم أنني سأدافع عنه في كل ظرف. أما عن أمنياتي مع ذلك، فإنني أحتفظ في هذا المجال بحريتي. إلى اللقاء. إلى الغد. لا تُدِنِّي ولا تحسبني مجرماً.

كذلك أضاف وهو يبتسم.

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا قبل ذلك قط. وأحسَّ أليوشا أن أخاه قد خطا الخطوة الأولى نحوه لغاية في نفسه، وأنه يبيِّت نية من النيَّات حتماً.

- 10 -

المرأتان معاً

خرج أليوشا من دار أبيه أشد حزناً مما كان حين دخلها. إنه يشعر باضطراب عميق في ذهنه. افكاره تتلاحق وتتبعثر بغير تسلسل ينظمها، وبغير رابطة تصل بعضها ببعض. ولكنه يدرك في الوقت نفسه أنه يخشى تجميع أفكاره المشتتة واستخلاص أية نتيجة من المشاعر المتناقضة المعذِّبة التي عاناها في هذا النهار. إن نوعاً من القلق يستبد بقلب أليوشا ويوشك أن يكون يأساً. وذلك أمر لا عهد له بمثله من قبل. هناك مسألة أساسية فاجعة مستعصية كانت تسيطر في فكره على سائر الهموم الأخرى كأنها الجبل ثقلاً: ما عسى يصير إليه هذا النزاع بين أبيه وأخيه دمتري على تلك المرأة الرهيبة؟ إنه شهد خطورة هذه المشكلة الآن، رأى الرجلين يواجه أحدهما الآخر. دمتري أحق الناس بالرثاء على كل حال، لأن شقاءه يبدو رهيباً وبلاءه يبدو مستعصياً لا دواء له ولا برأ منه: إن الكارثة التي لا شك في وقوعها كانت تتربص به. وهناك أشخاص آخرون تمسهم هذه المشكلة أكثر بكثير مما كان يتراءى لأليوشا حتى ذلك الحين. هذا كله كان يبدو غامضاً في نفس إليوشا، لا يفهم. من ذلك مثلاً أن أخاه إيفان قد خطا الخطوة الأولى نحوه متقرباً منه، ولقد طالما تمنى أليوشا هذا التقارب بينه وبين أخيه، ومع ذلك فإن

خطوة أخيه هذه قد بثَّت في نفسه جزعاً لا يفهم له علة. وهاته النساء أيضاً؟ ما أغرب ما يحس به أليوشا الآن! حين كان ذاهباً إلى كاترينا إيفانوفنا منذ بضع ساعات، فإنه قد ملأته تلك الزيارة اضطراباً. وليس الأمر كذلك في هذه اللحظة، فإنه ماضٍ إليها بغير وجل البتة. أكثر من ذلك أنه يستعجل الآن رؤيتها كأنها تستطيع أن ترشده! على أن المهمة التي كلِّف بها تبدو له الآن أصعب: لقد عدل دمتري عدولاً نهائياً عن ردِّ الثلاثة آلاف روبل. هو يرى الآن أن شرفه قد تلطخ إلى الأبد، وهو قد فقد كل أمل، فلن يتردد بعد اليوم عن أي سقوط. ثم إنه قد ألحَّ على أليوشا أن يروي لكاترينا إيفانوفنا المشهد الذي جرى في دار أبيه.

حين وصل أليوشا إلى أمام مسكن كاترينا إيفانوفنا التي تشغل في «الشارع الكبير» منزلاً واسعاً فخماً، كانت الساعة قد بلغت السابعة، وكان الظلام قد أخذ يهبط. إن أليوشا يعلم أن كاترينا إيفانوفنا تعيش في هذا المنزل في صحبة قريبتين لها. فأما أولاهما فلا تمت إليها بقربى إلا من جهة أختها أجافيا إيفانوفنا، وهي بعينها تلك الإنسانة الخضوع الطيِّعة التي عُنيت مع أجافيا تلك العناية كلها بكاترينا بعد خروجها من المدرسة الداخلية. وأما الثانية فهي سيدة من موسكو فارعة القامة شاعرة بخطورة شأنها وعلو منزلتها رغم أنها ليست على جانب كبير من الثراء. وكان يقال إن هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترينا إيفانوفنا في كل شيء، ولا تعيشان قربها إلا مراعاةً للمواضعات الاجتماعية. أما كاترينا إيفانوفنا فهي لا تطيع إلا الجنرالة، المحسنة إليها، التي لبثت في موسكو بسبب حالتها الصحية، والتي كان على كاترينا إيفانوفنا أن تكتب إليها مرتين في الأسبوع لتطلعها على تفاصيل حياتها.

حين دخل أليوشا الدهليز ورجا الخادمة التي فتحت له الباب أن تبلغ أهل الدار وصوله، كان يبدو أن أهل الدار الجالسين في الصالون كانوا على علم بزيارته (لعلهم قد لمحوه من خلال النافذة). فقد سمع أليوشا حركة غامضة ووقع خطوات نساء يبتعدن بسرعة، وحفيف أثواب، كأن امرأتين أو ثلاثاً قد هرعن يبارحن الغرفة. استغرب أليوشا أن يُحدث وصوله كل هذا الاضطراب. ومع ذلك أُدخل الصالون فوراً وهي غرفة واسعة يزدحم فيها أثاث كثير أنيق، على ذوق ليس فيه من ذوق الأرياف شيء. دواوين وصوفات وكنبات وموائد ومناضد، ولوحات تزين الجدران، ومزهريات ومصابيح تنتصب على الموائد، وأزهار كثيرة في كل ركن، بل وحوض أسماك قرب إحدى النوافذ. والغرفة مظلمة قليلاً في هذا الوقت من الغسق. ورأى أليوشا خماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أن أحداً كان جالساً عليه قبل لحظات، ورأى على المائدة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين ما يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولاته، وبسكويتاً وآنية من الكريستال فيها زبيب من زبيب كورنثيا وآنية أخرى فيها سكاكر. لا شك إذن في أن أهل الدار كانوا يقدمون حلوى لضيوف عندهم. فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل أثناء زيارة شعر بحرج كبير. ولكن الستارة أزيحت في تلك اللحظة نفسها، ودخلت كاترينا إيفانوفنا الغرفة بخطى سريعة عجلى، مادةً إلى أليوشا يديها كلتيهما، مبتسمة له ابتسامة فرحة مبتهجة. وسرعان ما دخلت في أثرها خادمة تحمل شمعدانين مشتعلين وضعتهما على المنضدة.

- الحمد لله! ها أنت ذا أخيراً! لقد لبثت طول الوقت أضرع إلى الله أن تجيء. اجلس من فضلك!

إن جمال كاترينا إيفانوفنا كان قد لفت نظر أليوشا حين أخذه

أخوه دمتري إليها قبل ثلاثة أسابيع ليعرِّفها به لأنها أحبت كثيراً أن تعرفه. ولم يتحدثا أثناء تلك الزيارة كثيراً على كل حال. ذلك أن كاترينا إيفانوفنا قد لاحظت ما كان فيه أليوشا من حرج، فدارته في تلك المرة فلم تتجه بكلامها إلا إلى دمتري، وصمت أليوشا طوال الوقت، ولكنه لاحظ المرأة الشابة فأحسن ملاحظتها، وخطف بصرَه ما رآه فيها من مظهر الإرادة المتسلطة والثقة بالنفس وانطلاق الحركات على كبرياء وخيلاء. كانت هذه السمات في طبعها واضحة، وأحسَّ أليوشا أنه لم يضخمها ولا بالغ في تصورها. وقد أعجب أشد الإعجاب بعينيها الواسعتين السوداوين الحادتين اللتين تتسقان اتساقاً تاماً مع لونها الشاحب الضارب قليلاً إلى الصفرة، ومع وجهها المستطيل بعض الاستطالة. ومع ذلك كان في عينيها، كما كان في رسم شفتيها الرائع، شيء يمكن أن يتوله به أخوه تولهاً جامحاً من غير شك، ولكنه لا يبدو أنه يوقظ في النفس حباً باقياً مستمراً. ولقد أعرب أليوشا لأخيه دمتري عن شعوره هذا بصراحة بدون لف ولا دوران تقريباً، حين أصرَّ دمتري، بعد انتهاء الزيارة، على أن لا يخفي عنه أخوه رأيه، وحين تضرع إليه أخوه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيبته. لقد قال له أليوشا يومئذٍ:

– سوف تكون سعيداً معها... ولكن سعادتك قد لا تكون هادئة.

– هذه هي الحقيقية يا أخي! إن النساء اللواتي هن من هذا النوع لا يتغيرن أبداً، ولا يذعنَّ للقدر. أأنت تعتقد إذاً أنني لن أحبها إلى الأبد؟

أفصح أليوشا عن هذا الرأي وهو يحمر استياء في قرارة نفسه، من رضوخه لإلحاح أخيه وقبوله الإعراب عن أفكار «حمقاء» كهذه

الأفكار. ذلك أن رأيه قد بدا له غبياً غباءً رهيباً منذ عبَّر عنه. ثم إنه قد شعر بخزي شديد من جزمه في الحكم على امرأة مثل هذا الجزم؛ وقد ازدادت دهشته الآن حين لاحظ منذ أول نظرة ألقاها على كاترينا إيفانوفنا التي هرعت تستقبله هاشة باشة، أنه لعله قد أخطأ في الحكم عليها خطأً فاحشاً في المرة الماضية. لقد كان وجهها في تلك اللحظة يشرق طيبة بسيطة خالية من أي تصنّع، وكانت قسمات وجهها تعبِّر عن صراحة ملتهبة حارة. ولم يبق من «الكبرياء والخيلاء» اللتين خطفتا بصره من قبل إلا تعبير عن جرأة نبيلة وإيمان بنفسها قوي واضح. وأدرك أليوشا دفعة واحدة، من هيئة الفتاة ومن أولى الكلمات التي نطقت بها، أن مأساة وضعها إزاء رجل تحبه هذا الحب الحاد المندفع كله لم تكن خافيةً عنها، وأنها ربما كانت على علم بكل شيء، بكل شيء إطلاقاً. ورغم ذلك كان يشع منها كل هذا الضياء، وكان يشع منها كل هذا الأمل بالمستقبل. وشعر أليوشا فجأة بأنه مذنب في حقها، كأنما هو أساء إليها إساءة كبيرة، عن عمد. لقد غُلب أليوشا وانجذب فوراً، ولكنه لاحظ مع ذلك، منذ أولى الكلمات التي قالتها، أنها في حالة انفعال نفسي عنيف لعله لم يكن مألوفاً لها أو معهوداً فيها، وهو انفعال يكاد يشبه الحماسة.

قالت كاترينا إيفانوفنا:

- انتظرتك نافدة الصبر، لأنك الإنسان الوحيد الذي أستطيع أن أعرف منه الحقيقة كلها... أنت وحدك!

فتمتم أليوشا يقول وقد اضطربت أفكاره. واختلطت على حين فجأة:

- أنا جئت... أنا جئت... موفداً منه...

- آه... إذاً هو الذي أرسلك، لقد أوجست ذلك. الآن فهمت كل شيء، فهمت كل شيء!

بهذا هتفت كاترينا إيفانوفنا وقد اشتعلت عيناها فجأة، ثم تابعت كلامها تقول:

- لحظة يا ألكسي فيدوروفتش! وسترى أنني أحرص على أن أشرح لك أولاً لماذا انتظرتك فارغة الصبر. إنني ربما أعلم من الأمر أكثر مما تعلمه أنت نفسك. فلن أسألك إذاً معلومات، وإنما أنا أعتمد عليك في شيء آخر: إنني أريد أن تطلعني على رأيك، على شعورك، على آخر ما رأيته فيه ولاحظته عليه في الآونة الأخيرة. إنني أحرص على أن تذكر بصراحة تامة، دون أية مداراة أو مراعاة، بل وبخشونة إذا لزمت الخشونة (بأكبر قدر من الخشونة) أن تذكر لي رأيك فيه وفي حالته الآن بعد لقائك معه اليوم. فلعل ذلك خير من أن أمضي أفاتحه أنا في الأمر، أنا التي أصبح لا يريد أن يراها. هل فهمت ما أريده منك؟ والآن قل لي: ما هي الرسالة التي كلفك بنقلها إليّ (كنت أتنبأ بأنه سيرسلك!) تكلم بلا تردد. قل كل شيء، ولا تخش أن تسيء إليَّ!..

- لقد كلفني بأن... أنقل إليك احترامه... وأن أقول لك إنه لن يجيء بعد اليوم... وأن احترامه...

- احترامه؟ أهذا ما قاله؟

- نعم.

- لعله استعمل هذه الكلمة عرضاً ومصادفةً، دون أن يريد ذلك، لأنه لم يجد كلمةً أخرى؟

- بل لقد حرص حرصاً على أن أستعمل كلمة «الاحترام» هذه. حتى لقد ألحَّ عليها ثلاث مرات، مخافة أن أنساها. تخضّب وجه كاترينا إيفانوفنا بحمرة شديدة.

وقالت:

- ساعدني الآن يا ألكسي فيدوروفتش، أنا في حاجة إلى مساعدتك. سأفتح لك أعماق فكري، وستقتصر أنت على أن تقول لي هل تعد رأيي صحيحاً أم لا؟ اصغ إليّ جيداً. لو كان قد كلفك عرضاً ومصادفةً بأن تبلغني «احترامه» دون أن يلح على هذه الكلمة إلحاحاً خاصاً، فإن كل شيء يكون قد قيل... ويكون الأمر في هذه الحالة قد انتهى! أما وأنه قد ألح على هذه الكلمة إلحاحاً خاصاً، وأنه رجاك رجاءً خاصاً أن تستعمل تعبير «الاحترام» هذا، فمعنى ذلك أنه كان في حالة اضطراب شديد، بل لعله كان خارجاً عن طوره! لقد اتخذ قراراً، ولكن قراره نفسه يبث الجزع في نفسه! إنه لم يتركني بخطى حازمة، وإنما هو أسرع يسقط في هاوية. إن إصراره على استعمال هذه الكلمة لا يمكن أن يفسَّر إلا على أنه تبجّح وتحدّ...

فقال أليوشا مؤيداً:

- هو كذلك، هو كذلك تماماً. وهذا هو شعوري الآن أيضاً.

- فإذا صح هذا فإنه لم يَضِعْ بعد، وليس الأمر إذاً إلاَّ أمر فعلٍ يدفع إليه اليأس. ولكنني أستطيع أن أنقذه على الرغم من كل شيء. لحظة! ألم يكلمك في موضوع مال، في موضوع ثلاثة آلاف روبل؟

- طبعاً... حدثني في هذا الموضوع... بل إن هذا هو ما يرهقه أكثر من أي شيء آخر. قال إن شرفه قد تلطخ، وإن جميع الأمور تستوي لديه بعد الآن.

كذلك قال أليوشا بحرارة وكان يحس في تلك اللحظة بالأمل يملأ قلبه وبأنه قد يكون هنالك فعلاً مخرج لأخيه، وسبيل إلى خلاصه. ثم أضاف يقول وهو يضطرب على حين فجأة:

- أأنت إذن على علم... بما حدث لذلك المبلغ؟

- أنا أعلم بما حدث له، منذ زمن طويل. وعلماً أكيداً لقد أرسلت برقية إلى موسكو لأسأل هل وصل المال، فما لبثت أن عرفت الحقيقة منذ زمن طويل. إنه لم يرسل المبلغ، ولكنني لم أحدثه في الأمر. حتى لقد علمت في هذا الأسبوع الأخير مدى حاجته إلى المال... ولم يكن لي في هذا الشأن إلا هدف واحد: هو أن يعرف من الذي يستطيع أن يتجه إليه في مثل هذه الحالة، ومن هو خير صديق له ولكن لا... إنه لا يؤمن بأنني خير صديق له، لم أخطر بباله في هذا الظرف. هو لا يرى فيَّ إلا المرأة. إن هناك سؤالاً يعذبني منذ أسبوع: ما الذي يجب عليَّ أن أفعله حتى لا يشعر تجاهي بالخزي والعار من أنه أتلف تلك الثلاثة آلاف روبل؟ افهمني حق فهمي: فليشعر بالخجل أمام الآخرين أو أمام نفسه، ولكن ما ينبغي له أن يشعر بالخجل تجاهي! هل يخجل أمام الله من الإفضاء إليه بسرِّه؟ فلماذا لا يعرف حتى الآن ما أنا قادرة على احتماله في سبيله؟ لماذا، نعم، لماذا يجهلني هذا الجهل كله؟ كيف يجرؤ أن يجهلني بعد كل ما جرى بيننا؟ إنني أريد أن أنقذه إلى الأبد. فلينسى أنني خطيبته، لينسى أن لي هذه الصفة ولكنه يخشى أمامي أن يحط من شرفه! هل خشي الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسي فيدوروفتش؟ فلماذا لا أكون حتى الآن جديرة بمثل هذه الثقة؟

نطقت كاترينا إيفانوفنا بهذه الكلمات الآخيرة، بصوت متهدج باكٍ وانبجست الدموع من عينيها.

قال أليوشا بصوت متهدج أيضاً:

- عليَّ أن أروي لك ما وقع بينه وبين أبينا منذ قليل.

- وقص عليها القصة، ذاكراً أن أخاه كان قد كلَّفه بأن يطلب له

مالاً من فيدور بافلوفتش، ثم إذا هو يقتحم الغرفة على حين فجأة. وصف لها كيف ضرب أخوه أباه، وذكر لها أن أخاه قد ألح عليه، بعد ذلك، مرة أخرى، أن يجيء إليها ليبلغها «احترامه». . . - وختم أليوشا كلامه قائلاً وهو يخفض صوته:

- ثم ذهب إلى تلك المرأة. . .

- أتظن أنني لا أستطيع احتمال وجود تلك المرأة في حياته؟ أيحسب أنني لن أطيق وجودها في حياته؟

ألقت كاترينا إيفانوفنا هذا السؤال، ثم قالت فجأة وهي تضحك ضحكاً عصبياً:

- ولكنه لن يتزوجها. هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن يلتهب قلبه بهوى من هذا النوع إلى الأبد؟ ذلك هوى وليس حباً. ثم إنه لن يتزوجها لأنها لن ترضى هي أن تتزوجه. . .

كذلك رددت كاترينا إيفانوفنا وهي تضحك من جديد تلك الضحكة الغريبة نفسها.

فقال أليوشا في حزن وهو يغضّ بصره:

- ولكنه هو قد يتزوجها.

- قلت لك إنه لن يتزوجها! إن هذه الفتاة ملاك حق، هل كنت تعرف ذلك؟ إنك تعرف ذلك!

كذلك هتفت كاترينا إيفانوفنا بحرارة وحماسة قوية. وتابعت تقول: - هي أروع إنسان يمكن أن يلقاه المرء في حياته! أنا أعرف مدى ما تتصف به من فتنة وإغراء، ولكنني أعرف أيضاً طيبتها وشهامتها ونبلها. لماذا تنظر إليّ هكذا يا ألكسي فيدوروفتش؟ لعل كلماتي تدهشك؟ أغلب ظني أنك لا تصدقني، أليس كذلك؟ يا آجرافينا ألكسندروفنا، يا ملاكي (كذلك نادت كاترينا إيفانوفنا وهي

تنظر إلى الغرفة المجاورة)، تعالي إلينا! إنه فتى لطيف! إنه أليوشا. هو على علمٍ بكل ما يتصل بنا. تعالي!

فأجاب صوت نسوي لطيف بل وحتى معسول قليلاً:

- إنما كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التي تنادينني فيها.

وأزيحت الستارة فإذا... بجروشنكا نفسها تظهر. اقتربت من المائدة ضاحكةً وقد بدت في وجهها سعادة. أحسَّ أليوشا في اللحظة الأولى شيئاً من التشنج في داخله. حدق إلى المرأة الشابة بنظرة عنيفة، دون أن يستطيع تحويل عينيه عنها. أهذه هي إذن تلك المرأة المخيفة؟ أهذه هي إذن ذلك «الوحش الكاسر» على حد التعبير الذي أفلت من أخيه إيفان قبل نصف ساعة؟ إن أليوشا لا يرى أمامه الآن إلا امرأة عادية بسيطة طيبة محببة، قد تعدها حسناء إن شئت، ولكنها شبيهة بجميع النساء الأخريات اللواتي يُحسبن حسناوات ولكنهن «عاديات»! والحق أنها جميلة، بل جميلة جداً... لها ذلك الجمال الروسي الذي قد يوقظ في بعض الرجال حباً جامحاً وهوى قوياً. هي طويلة القامة. ولكنها أقل طولاً من كاترينا إيفانوفنا (الطويلة جداً)، ويتميز جسمها الممتلئ بحركات لينة حلوة تشبه أن تكون صامتة، حركات تتصف تلوياتها وانعطافاتها بنفس الليونة المعسولة والرقَّة التي تظهر في تثنيات صوتها. اقتربت، ولكن مشيتها ليست صلبة حازمة كمشية كاترينا إيفانوفنا. إنها تمشي بلا جلبة ولا ضوضاء. تهالكت على مقعد من المقاعد، فكان لحفيف ثوبها الحريري الأسود الفاخر شيء من عذوبة ورقة في السمع أيضاً. وكان يلتف على جيدها الناصع البياض كالزبد، وعلى كتفيها العريضتين، شالٌ ثمين من صوفٍ أسود، يلتف التفافاً منغَّماً. إنها في الثانية والعشرين من عمرها. وإن قسمات وجهها تدل على أنها في هذه

السن تماماً. لونها ناصع البياض، وخداها متوردان توردا خفيفاً عند الوجنتين، وكانت تقاطيع وجهها تبدو وكأنها عريضة أكثر مما ينبغي. وفكها الأسفل بارز بعض البروز، وشفتها العليا دقيقة على حين أن شفتها السفلى الناتئة قليلاً تبدو أسمك من الشفة العليا مرتين حتى لكأنها منتفخة قليلاً. ولكن شعرها الكستنائي الغزير الرائع وحاجبيها القاتمين المخمليين، وعينيها الزرقاوين الرماديتين الفاتنتين، وأهدابها الطويلة، كل ذلك خليق بأن يجعل أقل الرجال اكتراثاً، وأشدهم ذهولاً، ولو في وسط جمهور مضطرب متدافع أو في زحمة الشوارع يتوقف لحظةً أمام هذا الوجه ويذكره طويلاً. وقد أُخذ أليوشا خاصةً بما في هذا الوجه من تعبير عن براءة واضحة صريحة. إن لها نظرة طفل، وكأنها فرحة فرح صبية صغيرة لسبب مجهول. ولقد تقدمت من المائدة في الواقع «متهللة» الأسارير، كأنها تنتظر حادثاً وشيكاً، متعجلة حدوثه نافدة الصبر مطمئنة النفس كطفل. وكان في نظرتها ضياء يبهج القلب، ضياء أحس به أليوشا. وكان يشع منها شيء آخر لم يستطع أليوشا أن يستبينه جلياً في تلك اللحظة، ولكنه أثر فيه تأثيراً لا شعورياً، أعني تلك العذوبة وتلك الرقة في حركات جسمها الشبيهة بحركات القطة في رشاقتها الصامتة. ومع ذلك كانت قوية الجسم والبنية. إن كتفيها العريضتين ترتسمان تحت شالها؛ ومن ينظر إليها يدرك أن لها صدراً كاعباً ما يزال صدر فتاة مراهقة. إن جسدها يَعد بأن يكتسب مع تقدمها في النضج اتساق جسد فينوس ميلو، مع أنه حتى الآن كانت نِسبه مفرطة قليلاً وكان ذلك ملموساً. على أنها لو رآها خبير في جمال المرأة الروسية لتنبأ بأن هذه الرشاقة النضرة الربيعية في جسدها ستفقد انسجامها في نحو الثلاثين من عمرها، وأنها ستثقل وستسمن، وأن عضلات وجهها ستترهل عندئذٍ، وأن

غضوناً ستظهر عند عينيها وعلى جبينها في وقت مبكر، وأن بشرة وجهها ستخشوشن، وقد تصاب بداء الاحمرار، أي إن جمالها، بإيجاز، جمال عارض ليس له غد، كالجمال الذي يلاحظ كثيراً لدى النساء الروسيات. إن أليوشا لم يسترسل في أفكار من هذا النوع طبعاً، ولكنه، رغم افتتانه بالمرأة الشابة، قد تساءل وهو يحس إحساساً غامضاً بنوع من النفور وبنوع من الأسف، لماذا تجرُّ هذه المرأة كلامها جراً، ولا تطلق صوتها في الحديث على سجيته طبيعياً وبغير تكلّف؟ إن المرء ليشعر أنها تحسب الجمال في تلوين ألفاظها بنبرات الغناء المعسولة. والحق أن تلك عادة رديئة تدل على ذوق رديء وتربية وضيعة، وعلى الأفكار المبتذلة التي تكونت في ذهنها منذ طفولتها عن الآداب الاجتماعية. وقد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يكاد يُطاق بين هذا النطق المتصنع والتنغيم المفتعل وبين ما يظهر في وجهها من تعبير عن الفرح البريء والابتهاج الساذج وما يشع في نظرتها الوديعة وداعةَ نظرة الطفل من سعادة هادئة عذبة. وقد أجلستها كاترينا إيفانوفنا على مقعد قبالة أليوشا وقامت بتقبيلها على شفتيها الباسمتين عدة مرات بحماسة وحرارة، حتى لكأنها هائمة بها غراماً...

قالت كاترينا إيفانوفنا مخاطبة أليوشا بفرح وافتتان:

- إننا نلتقي اليوم لأول مرة يا ألكسي فيدوروفتش. كنت أتمنى أن أعرفها، أن أراها، وقد فكرت في أن أزورها، ولكنها جاءتني من تلقاء نفسها منذ عرفت برغبتي. وكنت على ثقة سلفاً سأستطيع التفاهم معها على كل شيء، تفاهماً تاماً! قلبي أدرك ذلك... وقد حاولوا أن يثنوني عن إنفاذ هذه النية، ولكنني كنت أتنبأ بالنتيجة السعيدة، فلم يخطئ ظني. لقد شرحت لي جروشنكا كل شي،

وأطلعتني على جميع ما عقدت النية عليه. جاءتني إلى هنا تحمل إليّ السلام والفرح، كملاك طيب...

قالت جروشنكا بصوت منغم متباطئ، وهي تبتسم تلك الابتسامة الباشة السعيدة نفسها:

- الفضل لك يا آنستي العزيزة المحترمة، فقد ارتضيت صحبتي ولم تحتقريها.

- إياك أن تقولي أمامي مثل هذه الأشياء، أيتها الفاتنة، أيتها الساحرة! أأحتقر صحبتك أنت؟ دعيني أقبل هذه الشفة السفلى مرة أخرى. لكأنها متورمة قليلاً، فلأزدها تورماً! هذه قبلة... هاتِ قبلةً أخرى... وقبلة أخرى أيضاً... انظر إليها كيف تضحك يا ألكسي فيدوروفتش! إن رؤية هذا الملاك تملأ القلب بهجة وفرحاً...

احمر أليوشا وأخذ يرتعش ارتعاشاً خفيفاً لا يُرى.

- أنت تدللينني يا آنستي اللطيفة، مع أنني قد لا أستحق ملاطفاتك ومداعباتك.

- أنت؟ دعك من هذا الكلام! فمن يستحق ذلك غيرك؟

كذلك صاحت كاترينا إيفانوفنا تقول من جديد بحرارة شديدة، ثم أردفت:

- اعلم يا ألكسي فيدوروفتش أنها فتاة جامحة الخيال، متسلطة القلب، ولكنها ذات كبرياء وكرامة! هي نبيلة الروح يا ألكسي فيدوروفتش، سامية النفس، هل تعلم ذلك؟ ولكنها كانت شقية عاثرة الحظ. لقد تعجلت فأرادت أن تضحي بكل شيء في سبيل رجل خسيس الطبع، أو ربما طائش العقل. كان ضابطاً هو أيضاً. أحبته ووهبت له كل شيء. حدث ذلك منذ زمن طويل، منذ خمس سنين. ثم هجرها، ونسيها، وتزوج. وقد توفيت امرأته فهو الآن

أرمل، وقد كتب إليها يبلغها أنه آت إليها. اعلم يا ألكسي فيدوروفتش أن هذا هو الرجل الوحيد الذي أحبته فعلاً وما تزال تحبه! وسيجيء وستعود إلى جروشنكا سعادتها، لأنها لم تزد على أن تتألم وتتعذب خلال خمس سنين. من ذا الذي يجرؤ أن يلومها، من ذا الذي يستطيع أن يتباهى بأنه حظي بعطفها؟ هو ذلك العجوز وحده - التاجر - ولكنه كان لها أباً، كان لها صديقاً، كان لها حارساً. وجدها فريسة اليأس، قد هجرها الرجل الآخر، الرجل الذي محضته ذلك الحب كله... وقد فكرت في أن ترمي بنفسها إلى الماء، هل تعلم ذلك؟ فأنقذها ذلك العجوز، أنقذها!

عادت جروشنكا تقول بصوتها المتباطئ:

- أنت تدافعين عني بحرارة فيها غلوّ يا آنستي العزيزة، ولعلك في هذا تسرفين في التعجل.

- أأنا أدافع عنك؟ هل علينا نحن أن ندافع عنك في حقيقة الأمر؟ وكيف يمكن أن نجرؤ على ذلك أصلاً؟ جروشنكا ملاكي، هاتي يدك الصغيرة! انظر إلى هذه اليد الجميلة يا ألكسي فيدوروفتش، انظر إلى هذه اليد الصغيرة البضة الرائعة! انظر إليها! لقد حملت إليّ السعادة، لقد ردتني إلى الحياة. سأقبّلها، هذه اليد الصغيرة، وجهاً وقفا... هكذا، وهكذا، ومرة أخرى!...

قبلت كاترينا إيفانوفنا يد جروشنكا ثلاث مرات فعلاً، وهي في حالة تشبه أن تكون نشوة ووجداً... قبلت تلك اليد الرائعة حقاً، وإن تكن مسرفة في البضاضة. وكانت جروشنكا قد مدت إليها ذراعها، وأخذت تلاحظ «الآنسة اللطيفة» ضاحكة ضحكتها العصبية الرنانة الفاتنة، مغتبطة اغتباطاً واضحاً بتقبيلها على هذا النحو. قال أليوشا لنفسه سراً: «لعلها تسرف في الحماسة»، واحمر وجهه. إن

نوعاً من القلق كان يعتلج في قلبه طوال ذلك الوقت.

قالت جروشنكا:

- لا تخجليني يا آنستي اللطيفة بتقبيل يدي هذا التقبيل أمام ألكسي فيدوروفتش.

فأجابت كاترينا إيفانوفنا مدهوشة بعض الدهشة:

- أأنا خطر ببالي أن أخجلك؟ آه... يا عزيزتي إنك تسيئين فهمي كثيراً!

- وأنت أيضاً تسيئين فهمي فيما يخيَّل إليّ يا آنستي اللطيفة. أنا قد أكون أخبث كثيراً مما تقدرين. إن لي قلباً شريراً ذا نزوات. لقد اجتذبت دمتري فيدوروفتش المسكين إليّ آنذاك لغاية واحدة هي أن أسخر منه وأستهزئ به.

- ما قيمة هذا ما دمت ستنقذينه الآن؟ لقد قطعت على نفسك عهداً... ستردينه إلى الصواب... ستقولين له إنك تحبين رجلاً آخر، منذ زمن طويل، وإن هذا الرجل يريد أن يتزوجك الآن...

- آه.. كلا... أنا لم أقطع لك على نفسي هذا العهد. أنت قلت لي هذا الكلام كله، أما أنا فلم أعد بشيء.

قالت كاترينا إيفانوفنا في لين ورفق وقد بدت في وجهها صفرة خفيفة:

- إذاً فهمت الأمر على غير هذا النحو، وأحسب أنك وعدت...

- كلا يا ملاكي، كلا يا آنستي، أنا لم أعدك بشيء البتة.

كذلك قالت جروشنكا بصوت متساوٍ هادئ، وما تزال تبدو عليها هيئة السعادة والبراءة تلك. ثم أضافت تقول:

- فها أنت ذي ترين الآن، يا آنستي المحترمة، مدى ما يشتمل

عليه سلوكي معك من خبث ونزوة. أنا أفعل ما يبرق في رأسي. قد أكون وعدتك بشيء منذ قليل، ولكنني في هذه اللحظة أقول لنفسي: «فماذا لو أعجبني من جديد ميتيا هذا»؟ ذلك أنه قد أعجبني جداً مرة في الماضي، بل لقد أعجبني طوال ساعة بكاملها! وقد أذهب الآن إليه لأقول له: تعال اسكن في منزلي نهائياً منذ الآن... هكذا أنا: متقلبة لا أستقر على حال...

قالت كاترينا إيفانوفنا بصوت ضعيف واهن:

- كنتِ منذ لحظات تتكلمين... بطريقة أخرى مختلفة تماماً...

- كان ذلك منذ لحظات!.. ولكن لي قلباً حنوناً غبياً... فحين أتصور كل ما قاساه من آلام بسببي.. ثم ماذا لو أخذتني به شفقة على حين فجأة منذ أن أرجع إلى الدار؟ ما عسى يحدث عندئذٍ؟

- لم أكن أتوقع أن...

- أوه.. آنستي العزيزة! فما أطيبك وما أنبلك إذن بالقياس إليّ؟ لا شك أنك ستكفين عن حبي الآن، أنا الحمقاء الغبية، بسبب سوء طبعي. هاتي يدك الصغيرة أنت أيضاً، أيتها الملاك (قالت ذلك راجية ضارعة بصوت رقيق ناعم، ثم أمسكت يدها كأنما بنوع من الإجلال). سآخذ يدك يا آنستي العزيزة وأقبلها، كما قبلتِ يدي. لقد قبلتني ثلاث مرات فيجب عليّ أن أقبلك ثلاثمائة مرة لأرد إليك دينك عليّ. ولندع الأمور على ما هي عليه الآن، ولنسلم أمرنا إلى الله! من يدري؟ قد أنتهي إلى الخضوع لإرادتك خضوعاً أعمى، فأفعل كل ما تأمرينني به. لندع الأمور تجري على مشيئة الله! فلا نقطع على أنفسنا عهوداً، ولا نقيد أنفسنا بوعود! ما أجمل يدك! أوه، ما أجملها يداً فاتنةً أخاذة! آنستي اللطيفة، إنك جميلة جمالاً لا يتصوره الخيال!

قالت جروشنكا ذلك ورفعت يد كاترينا إيفانوفنا إلى شفتيها، على تلك النية الغريبة حقاً، وهي أن «ترد إليها دينها عليها». لم تسحب كاترينا إيفانوفنا يدها. كانت قد أصغت بأمل واهن إلى الوعد الذي وعدتها به جروشنكا، وهو أنها قد تخضع «لإرادتها خضوعاً أعمى». رغم أن الوعد قد قيل على نحو غريب أيضاً. وهي تحدق الآن إلى عينيها اللتين ما تزالان تعبّران عن تلك البراءة نفسها، وعن تلك الثقة نفسها، وعن تلك السعادة المشعة نفسها... وبرق الأمل في قلب كاترينا إيفانوفنا فقالت في نفسها: «لعلها ساذجة مسرفة في السذاجة!» وفي أثناء ذلك الوقت، ترفع هذه اليد إلى فمها على هون وبطء. ولكنها بعد أن قرّبتها من شفتيها، لبثت بضع لحظات لا تقبّلها، وكأنها تفكر في شيء ما، ثم قالت فجأة وهي تمط كلماتها بطيئة، وعلى أكثر ما يكون رقة ومعسولية:

- هل تعلمين يا ملاكي؟ لقد قررت فجأة أن لا أقبّل يدك الصغيرة.

ثم انطلقت تضحك ضحكة خفيفة مرحة.

قالت لها كاترينا إيفانوفنا وهي تنتفض:

- كما تشائين... ولكن ماذا بك!

- لا شيء. عيشي بعد اليوم مع ذكرى تقبيلك يدي ورفضي تقبيل يدك!

وفجأة لمع في عينيها شيء ما وحدقت في كاترينا إيفانوفنا بإمعان بالغ.

- وقحة!

بهذا قذفتها كاترينا إيفانوفنا كأنها أدركت شيئاً في هذه اللحظة فقط. لقد تخضّب وجهها بحمرة شديدة، ونهضت عن مكانها فجأة،

فنهضت جروشنكا أيضاً ولكن بغير إسراع.

- بعد لحظة سأذكر لميتيا أنك قبلت يدي أما أنا فرفضت أن أفعل. أوه، كم سيضحك!

- سافلة! اخرجي من هنا!

- يا آنسة، ألا تستحين أن تتكلمي على هذا النحو؟ ألا تعلمين أنه لا يليق بك أن تستعملي مثل هذه الألفاظ يا آنستي العزيزة؟

- اخرجي من هنا أيتها المخلوقة التي تبيع نفسها!

- ها، ها! تبيع نفسها بالمال؟ أنيست إذاً أنك حين كنت فتاة عذراء، كنت تذهبين في الظلام إلى منازل شباب لتبيعي جمالك؟ ثقي أنني على علم بهذا الأمر.

صرخت كاترينا إيفانوفنا صرخة قوية. وانقضّت عليها، ولكن أليوشا أمسكها بكل ما أوتي من قوة قائلاً لها:

- إياك أن تقولي كلمة واحدة! لا تجيبيها بشيء، لا تنطقي بحرف، سوف تنصرف، سوف تذهب فوراً!

سمعت قريبتا كاترينا إيفانوفنا صرختها، فهرعتا إلى الغرفة وتبعهما الخادم، وأحطن بها جميعاً.

قالت جروشنكا وهي ترفع شالها عن الديوان:

- أنا ذاهبة! أنا ذاهبة! أليوشا، يا عزيزي، رافقني!

فقال لها أليوشا متضرعاً ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى:

- اذهبي، اذهبي بسرعة!

- صغيري العزيز أليوشا، رافقني! سأقول لك أثناء الطريق شيئاً يسرك، يسرك كثيراً!.. من أجلك أنت يا ملاكي إنما مثّلت هذه المهزلة. رافقني، يا طائري الصغير، ولن تندم على أنك فعلت.

تحول عنها أليوشا وهو يعقف يديه. وخرجت جروشنكا راكضة وهي تضحك ملء حلقها.

وأصيبت كاترينا إيفانوفنا بنوبة عصبية عنيفة، فأخذت تبكي منتحبة، وأخذت تخنقها تشنجات قوية. ومن حولها كان الجميع يتحركون ويضطربون.

قالت لها كبرى قريبتيها:

- لقد حذرتك... أردت أن أمنعك من الإقدام على هذه الخطوة... أنت مسرفة في الاندفاع... كيف أمكنك أن تقرري القيام بهذا المسعى؟ أنت لا تعرفين أمثال هاته المخلوقات، وهذه أسوأهن كافة، فيما يؤكد الناس... أنت مسرفة في التشبث برأيك.

زأرت كاترينا إيفانوفنا:

- إنها نمرة! لماذا صددتني عنها يا ألكسي فيدوروفتش؟ لقد أردت أن أضربها، أن أضربها!

أصبحت كاترينا إيفانوفنا لا تسيطر على نفسها بحضور أليوشا، ولعلها لم تشأ أن تكبح جماحها.

- إنها لا تستحق إلا الجلد بالسياط. يجب أن يجلدها جلاد على رؤوس الأشهاد!..

اتجه أليوشا نحو الباب.

وهتفت كاترينا إيفانوفنا تقول فجأة:

- آه... يا رب! وهو! هو أيضاً! لم يخجل أن يكون حقيراً إلى هذا الحد، أن يكون بلا قلب! لقد قصّ على هذه المخلوقة ما جرى في ذلك اليوم المشؤوم، ذلك اليوم الملعون، الملعون إلى الأبد! «أما ذهبت تبيعين جمالك يا آنستي العزيزة!» هي تعلم اذن! إن أخاك وغد دنيء يا ألكسي فيدوروفتش!

ودّ أليوشا لو يجيب، ولكن الكلمات لم تسعفه. كان قلبه ينصهر ألماً.

- اذهب يا ألكسي فيدوروفتش! إنني اشعر بالعار، أشعر بالرعب! عُدْ غداً... أضرع إليك جاثية أن تجيئني غداً. لا تؤاخذني، سامحني، اغفر لي. أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسي!

خرج أليوشا إلى الشارع يمشي كالمترنح ترنحاً. كان يود لو يبكي مثلها. وأدركته الخادم راكضةً بضع خطوات فقالت له:

- نسيت الآنسة أن تسلمك هذه الرسالة من السيدة خوخلاكوفا. لقد احتفظت بها الآنسة لك منذ الغداء.

- تناول أليوشا الظرف الوردي الصغير، ودسَّه في جيبه دون أن يوليه انتباهاً.

- 11 -

أخرى تعرّض نفسها للضياع

المسافة بين المدينة والدير لا تزيد كثيراً على فرسخ واحد. كان أليوشا يسير بخطى سريعة على الطريق الخالي في تلك الساعة.

لقد هبط الليل تقريباً، فأصبح البصر لا يستبين الأشياء واضحة على بعد ثلاثين خطوة. وفي منتصف الطريق كان على أليوشا أن يجتاز تقاطع دروب. فها هو ذا شبح يظهر تحت شجرة صفصاف وحيدة عند ذلك التقاطع، فما إن يصل أليوشا إلى ذلك الموضع حتى يندفع الشبح هاجماً عليه قائلا له بصوت صارخ مروع:

- مالك أو حياتك!

ارتعش أليوشا ارتعاشاً قوياً، ثم قال مدهوشاً:

- كيف؟ أهذا أنت يا ميتيا؟

قال دمتري فيدوروفتش وهو يضحك:

- هأ هأ هأ! لم تكن تتوقع هذا، أليس كذلك؟ لقد تساءلتُ أين عساي أستطيع أن أترقبك؟ قرب منزلها؟ ثم تذكرت أن هناك ثلاث طرق مختلفة يمكن أن تسلكها حين تخرج من عندها؛ وبذلك قد يفوتني أن ألقاك. فقررت أخيراً أن أرابط هنا قائلاً لنفسي إنك لا بد أن تمر بهذا المكان، إذ ليس هناك طريق آخر يؤدي إلى الدير.

طيب... قل لي الحقيقة الآن، اسحقني كما تُسحق حشرة خبيثة... ولكن ماذا بك؟

- لا شيء يا أخي... هو الخوف وحده. آه يا دمتري! دم أبينا الذي سُفح منذ قليل... (قال أليوشا ذلك وأخذ يبكي. كان يود لو يبكي منذ مدة طويلة، وها هو ذا شيء ينفجر في نفسه في تلك اللحظة)... لقد أوشكتَ أن تقتله.. وقد لعنته... ثم ها أنت ذا الآن تمزح... وتتفكه.. قائلاً: مالك أو حياتك!

- آه... هذا هو الأمر إذاً؟ لعل مزحتي لم تكن لائقة؟ لا تتفق والظرف القائم؟

- لا... ليس هذا ما أردت قوله..

- لحظة يا أخي. انظر من حولك. الظلام دامس، أليس كذلك؟ والغيوم تغطي السماء، والريح قد هبّت. لقد رابطت هنا، تحت الشجرة، لأنتظرك... فإذا أنا أقول لنفسي فجأة، أقسم بالله: «فيم التأجيل يا هذا؟ ماذا تنتظر؟ هذه شجرة... ومعك منديل وعليك قميص... فلا شيء أسهل من أن تصنع منهما حبلاً أضف الحمالة إليه، ثم تكفّ عن إزعاج الآخرين، ولا تدنِّس الأرض بعد ذلك بحقارة حياتك ولا تثقلها بدناءة وجودك!»، في تلك اللحظة التي خطرت لي فيها هذه الفكرة، إنما سمعت وقع خطواتك على الطريق! يا رب! ومضت في رأسي عندئذ فكرة تشبه أن تكون إلهاماً مباغتاً، قلت لنفسي: «هناك إذاً إنسان أحبه حقاً!» هذا هو، إنه أخي الصغير، الإنسان الوحيد الذي أحبّه حقاً... وشعرت نحوك في تلك اللحظة بحب يبلغ من القوة أنني وددت لو أرتمي عليك معانقاً! غير أن فكرة غبية خطرت في ذهني عندئذ. قلت لنفسي: «سأخيفه قليلاً لأسلّيه وأضحكه» لذلك صرخت أقول كغبي: «مالك أو حياتك!»

فاغفر لي هذه المزحة البلهاء، لقد فعلتها دون تفكير... أما عن حالتي النفسية فهي مقبولة... بئس هذه الأفكار كلها على كل حال! قل: كيف جرت الأمور هناك؟ ماذا قالت لك؟ هيًّا اعدمني، هيا اسحقني، بلا مراعاة ولا مداراة! هل طاش صوابها؟

- لا... ليس هذا هو الأمر.. كان هناك شيء آخر ياميتيا... كان هناك.. لقد وجدتهما كلتيهما هناك...

- كلتيهما؟ من هما؟

- كانت جروشنكا عند كاترينا إيفانوفنا:...

جمد دمتري فيدوروفتش دهشة وذهولاً. ثم صرخ يقول:

- مستحيل! لا، إنك حلمت! جروشنكا عند كاترينا إيفانوفنا؟

قصَّ أليوشا على أخيه كل ما جرى منذ وصوله إلى منزل كاترينا إيفانوفنا، قصَّه عليه تفصيلاً. دامت روايته نحو عشر دقائق، ولا نستطيع أن نقول هل كان حديثه واضحاً وضوحاً تاماً، ومتسقاً اتساقاً كاملاً؛ لكنه استطاع أن يذكر، بدقة، الوقائع الأساسية التي جرت، والأقوال الهامة التي تبودلت، مستعيناً على إيضاحها بمشاعره الخاصة التي وصفها وصفاً حياً، مركِّزاً في بعض الأحيان على هذا الأمر أو ذاك من الأمور البارزة. أصغى أخوه إلى حديثه صامتاً وقد جمدت نظرته جموداً مرعباً. وشعر أليوشا، منذ الكلمات الأولى التي قالها، أن أخاه قد فهم كل شيء منذ الآن، وأنه أدرك دلالة الحادث إدراكاً صحيحاً. كان تعبير وجهه، كلما أوغل أليوشا في سرد القصة يصبح لا متجهماً بل رهيباً... فحاجباه يقطبان، وأسنانه تكز، وجمود نظرته يتفاقم مزيداً من التفاقم، ويصبح عنيداً مروِّعاً... ولكن ما كان أشد دهشة أليوشا حين رأى وجه أخيه الذي كان حتى ذلك الحين متوحشاً مهدداً، يتغير على حين فجأة تغيراً عجيباً محيِّراً. فقد

انفرجت شفتاه بغتةً، وانفجر يضحك مقهقهاً قهقهة صريحة لا تغالَب ولا تقاوَم، حتى أصبح جسمه يتلوى تلوياً من شدة الضحك، وظل على هذه الحال مدة طويلة لا يستطيع أن يقول كلمة. ثم صاح يقول بنوع من الحماسة المرضية التي كان يمكن ان تكون وقحة لولا أنها عفوية منطلقة على سجيتها:

- إذاً لم تقبّل يدها.. هأ هأ.. رفضت أن تقبل يدها وانصرفت بكل بساطة... هأهأ... والأخرى زأرت تقول عنها إنها لنمرة! وقالت عنها كذلك إنها تستحق أن تجلد على رؤوس الأشهاد؟ طبعاً.. أنا أيضاً أرى هذا الرأي.. إنها تستحق ذلك.. تستحقه منذ زمن طويل! أنا لا أعارض أيها الأخ أن تنزل فيها هذه العقوبة، ولكن يجب أن أشفى أولاً. إنني أفهمها هذه الملكة من ملكات الوقاحة! إن رفضها تقبيل اليد يعبّر عن حقيقتها، إنها هي بعينها، هذه البنت الجهنمية! إنها ملكة جميع البنات الجهنميات اللواتي يمكن تصورهن في هذا العالم! ملكة جميع الأعمال الشيطانية التي يمكن أن تخرج من جوف جهنّم! هذا كله مثير للإعجاب في نوعه! إنها في نوعها مدهشة إذن لقد هربت وعادت إلى منزلها.. أنا الآن سأذهب إليها، هه؟ لا تُدنّي يا أليوشا! أنا أعلم حق العلم أن ذبحها قليل عليها...

قال أليوشا في حزن:

- وكاترينا إيفانوفنا؟

- إنني أتصورها هي أيضاً، أراها رؤية كاملة، أنفذ إلى نفسها كما لم أنفذ إليها قبل الآن في يوم من الأيام! أكتشفها اكتشاف القارات الأربع أو قل القارات الخمس! ما هذه الخطوة التي اتخذتها! أن تلقى جروشنكا ولكن هذه هي، هي بعينها، هذه هي كاتنكا التي لم

تتهيب، بعد خروجها من المدرسة الداخلية بزمن قصير، لم تتهيب لرغبتها الكريمة في إنقاذ أبيها، أن تذهب إلى بيت ضابط فظ غبي، معرِّضة نفسها لأسوأ الأذى وأبشع الإهانة! ولكن يا لتلك الكبرياء التي تفيض بها نفسها، يا لذلك الشَّمَمْ الذي يملأ جوانب قلبها يا لهذا الميل إلى المخاطرة ولهذا التحدي للقدر، التحدي الذي لا حدود له! قلت إن خالتها أرادت أن تمنعها؟ هل تعلم أن خالتها هذه لا تقل عنها ميلاً إلى التسلط؟ إنها أخت جنرالة موسكو ولقد كانت في الماضي تتخذ أوضاعاً فيها من الأبهة والعظمة أكثر مما في الأوضاع التي تتخذها جنرالة موسكو، ولكن زوجها اتهم بالاختلاس، فأقيل من منصبه، وفقد كل شيء، حتى أراضيه، فما لبثت زوجته المتكبرة أن خفضت جناحيها، وغيَّرت لهجتها، ولكنها لم تستطع أن ترتفع ثانية منذ ذلك الحين. إذاً لقد أرادت أن تمنع كاتيا من لقاء جروشنكا، ولكن تلك لم تنتصح بنصائحها. «أستطيع أن أتغلب على كل عقبة، لا شيء يمكن أن يصمد في وجهي، يكفي أن أشاء كي أسحر حتى جروشنكا». ذلك ما قالته كاترينا إيفانوفنا لنفسها، وآمنت به وازدهت بنفسها! فمن المذنب في هذه الحالة؟ لعلك تظن أنها كانت البادئة في تقبيل يد جروشنكا عن عمد ومكر؟ وبعد حساب وتفكير! أبداً... لقد كانت صادقة كل الصدق في تولهها بحبها، لا بحب جروشنكا الحقيقية، بل بحب حلمها هي بها، بحب الوهم الذي قام في ذهنها هي عنها. وذلك لأن الحلم حلمها والوهم وهمها... قل لي يا أليوشا: ماذا فعلت حتى استطعت أن تفلت من تلك النساء؟ أحسب أنك هربت تركض ركضاً، شامراً ثوبك الرهباني، هه؟ هأ هأ هأ...

- أخي! أظن أنك لم تدرك، بعد، مدى الإساءة الكبيرة التي

ألحقتها بكاترينا إيفانوفنا حين حكيتَ لجروشنكا قصة زيارتها لك في ذلك اليوم المشؤوم!

لقد صرخت هذه المرأة في وجهها قائلة في غلظة وفظاظة: «ذهبتِ سراً تبيعين جمالك لشباب!» ليس هنالك إهانة أخطر من هذه الإهانة، يا أخي! لقد كان يعذب أليوشا تعذيباً خاصاً تصوره أن أخاه يبدو مغتبطاً لمذلة كاترينا إيفانوفنا، رغم أن من المستحيل أن يكون ذلك ما يشعر به في حقيقة الأمر.

- آه...

كذلك تأوه دمتري فيدوروفتش في تلك اللحظة وقد اكفهر وجهه اكفهراراً رهيباً، ولطم جبهته بيده. لقد أدرك في تلك اللحظة فقط، هذا الجانب من جوانب الموقف، رغم أن أليوشا لم يفته أن ينقل إليه أثناء سرده لوقائع المشهد الذي حدث، منذ بضع لحظات، الأقوال المهينة والصرخة التي أطلقتها كاترينا إيفانوفنا حين قالت تخاطب أليوشا «إن أخاك وغد حقير!».

قال دمتري:

- من الجائز فعلاً أن أكون قد حدثت جروشنكا عن ذلك «اليوم المشؤوم»، على حد تعبير كاتيا... صحيح، لقد حدثتها عن ذلك... تذكرت الآن! وقع هذا أثناء تلك الرحلة إلى موكرويه.. كنت ثملاً.... وكانت الغجريات تغني... ولكنني رويت القصة باكياً معذب النفس، ضارعاً أمام صورة كاتيا، وفهمتني جروشنكا حق الفهم.. فهمتْ كل شيء... أتذكر الآن هذا... وأخذت تبكي هي نفسها.. شيطان يأخذ النساء! هل من الممكن أن يكون الأمر غير ما هو الآن؟... لقد بكت في ذلك الحين، ثم ها هي ذي الآن... الآن «تسل خنجراً تطعن به القلب»!... هكذا هنَّ النساء!...

قال دمتري فيدورفتش ذلك، ثم خفض بصره، وأخذ يفكر. وقال بعد هنيهة بصوت قاتم حزين.

- صحيح إنني وغد. لا شك في ذلك... سيان أن أكون قد بكيت وأن لا أكون قد بكيت.. ليس لهذا قيمة! ليس ينفي بكائي أنني وغد حقير! قل لهنَّ هناك إنني أقبل هذا النعت، إذا كان في ذلك تعزية لهن. وحسبنا الآن ما قلناه! وداعاً! فيم المزيد من الثرثرة؟ وليس في الأمر ما يفرح.. ستسير أنت في طريقك، وأسير أنا في طريقي.. ثم إنني لا أريد أن أراك بعد الآن، اللّهم إلا أن يكون ذلك في آخر نهاية! أستودعك الله يا ألكسي!

صافح دمتري فيدوروفتش أخاه أليوشا بقوة، ومضى يسير كأنه ينتزع نفسه فجأة من شيء ما، مضى يسير غاضاً بصره، دون أن يرفع رأسه. واتجه نحو المدينة بخطى سريعة. اتبعه أليوشا نظرة دون أن يستطيع أن يصدق أن أخاه مضى نهائياً.

- لحظةً يا ألكسي! هناك اعتراف أخير...

قال دمتري فيدوروفتش ذلك، وقفل راجعاً على حين فجأة. وتابع يقول:

- هو اعتراف لك وحدك! انظر إليّ يا أخي! أنعم النظر إليَّ! إن رجساً كريهاً يتهيأ هنا، هل ترى أين؟ هنا (قال دمتري كلمة «هنا» وهو يلطم صدره بقبضة يده وقد بدا في وجهه تعبير غريب، كأن الرجس الذي يشير إليه إنما يوجد مدفوناً في هذا المكان بعينه، مختبئاً في جيب السترة أو في كيس معلّق بالعنق). إنك تعرفني الآن: أنا وغد، وغد أصيل، وغدٌ معتَرَف به! إلا فلتعلم مع ذلك أنه لا شيء مما فعلته في الماضي ومما قد أفعله في الحاضر والمستقبل، يمكن أن يعادل في حقارته الدنيئة الكريهة ما أحمله في

نفسي، في هذه اللحظة، هنا، في هذا الموضع، على صدري، من رجس يتحرك ويختمر ويمكنني أن أكبته... ذلك أنني حر أستطيع أن أوقفه وأستطيع أن أحققه، لاحظ هذا!.. ولكن إلا فلتعلم أنني سأحققه، وإنني لن أوقفه! لقد حكيت لك كل شيء منذ بضع ساعات، حكيت لك كل شيء إلا هذا الأمر وحده، لأنني استحيت أن أعترف به، نعم حتى أنا استحيت أن أعترف به! ما يزال في وقتي متسع لأن أتوقف، وإذا أنا توقفت عن الانحدار، فسأستطيع منذ الغد أن أسترد نصف كرامتي الضائعة، على الأقل... ولكنني لن أتوقف عن الانحدار! سأمضي في إنقاذ خطتي السوداء حتى النهاية، وأحب أن تكون شاهداً على قراري الذي اتخذته سلفاً وأنا في تمام وعيي! رعب وظلمات! لن أشرح لك شيئاً، ستعرف كل شيء قريباً. زقاق عفن وامرأة جهنمية! وداعاً. لا تصلِّ من أجلي، لا تدعُ لي... فأنا لا أستحق ذلك... ثم إن صلاتك من أجلي ودعاءك لي أمران نافلان لا حاجة بي إليهما، أؤكد لك هذا. والآن، انصرف!...

قال دمتري فيدوروفتش ذلك، ومضى في هذه المرة نهائياً. واستأنف أليوشا سيره في الطريق إلى الدير. «كيف هذا؟ ألن أراه بعد اليوم قط؟ ماذا يريد أن يقول؟» بهذا كان أليوشا يحدث نفسه دون أن يستطيع قبول هذه الفكرة، «دعك من كلامه! سأذهب إليه غداً، وسأراه حتماً، سأذهب إليه خصيصاً. كيف يمكنه أن يقول كلاماً كهذا؟».

دار أليوشا حول الدير واجتاز غابة أشجار الصنوبر ليذهب إلى الصّومعة رأساً. فتح له الباب، رغم أن القاعدة هي أن لا يسمح لأحد بالدخول في هذه الساعة المتأخرة. وانقبض صدر أليوشا حين دخل الحجرة. سأل نفسه: «لماذا؟ لماذا ابتعدت؟ لماذا أرسلني إلى

«الدنيا»؟ هنا مكان صمتٍ وقداسة، أما هناك فيسود الاضطراب وتخيم الظلمات، هناك يتيه الإنسان ويضل، عم يهوي...».

وجد في الصومعة الراهب المبتدئ بورفيري والراهب الكاهن بائيسي الذي ظل طوال النهار يجيء ساعةً بعد ساعة يستطلع أخبار صحة الأب زوسيما. كانت حالة الأب زوسيما تتفاقم مزيداً من التفاقم، كما عرف أليوشا ذلك مذعوراً. حتى لقد ارتُئي الاستغناء عن الحديث الذي اعتاد الأب زوسيما أن يجريه في المساء مع رهبان الدير. لقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء، بعد القداس، وقبل راحة الليل، في صومعة الشيخ، فكان كل واحد منهم يعترف له جهاراً بالخطايا التي ارتكبها أثناء النهار، وبالخواطر الآثمة التي ساورت ذهنه، وبالأحلام المحظورة التي رآها، وبالإغراءات المباغتة التي فاجأته، وحتى بالمشاجرات الداخلية إذا كان قد حدث شيء من ذلك. وكان بعضهم يجثون على ركبهم ليعلنوا أخطاءهم. وكان الشيخ يصغي إليهم، ويفصل في أمورهم، ويصالح بينهم ويرشدهم، ويعرض عليهم كفارات، ثم يباركهم جميعاً قبل أن يصرفهم فينفضّوا عنه. وعلى هذه الطريقة في الاعتراف الديني إنما كان يعترض خصوم طريقة المشايخ، قائلين إنها تبتذل هذا السر من الأسرار المقدسة وأنها بدعة تفسد الدين وتدنس العقيدة، وتلك تهمة باطلة في واقع الأمر. حتى لقد حاول بعضهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شره على أنه لا يحقق الهدف الأخلاقي المنشود، وإنما هو يقصد أن يقود النفس إلى الخطيئة والغواية فعلاً. وقالوا فيما قالوا إن عدداً كبيراً من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للشيخ، وأنهم لا يذهبون إليه إلا لأن الآخرين يفعلون ذلك، فهم يخشون أن يُتهموا بالتكبر والاستعلاء والتمرد إذ

هم امتنعوا عن الذهاب إلى الشيخ كسائر من عداهم. بل لقد حُكي فيما حكي إِن هناك رهباناً كانوا يتفقون فيما بينهم أحياناً قبل أن يذهبوا إلى الاعتراف في المساء على أن يمثّلوا أدواراً معينة: «سأقول للشيخ إنني غضبت منك، فتؤكد أنت ذلك، حتى يكون هنالك ما نقوله منتخلّص من هذه المهمة». وكان أليوشا يعرف أن ذلك يحدث فعلاً في بعض الأحيان. وكان لا يجهل أيضاً أن هناك رهباناً كانوا يستاءون استياءً شديداً من أن رسائل أقربائهم التي ترد إليهم، إنما يستلمها الشيخ أولاً فيفضها ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها. الحق أن الأصل في هذا الأسلوب أنه يُتّبع برضى الرهبان أنفسهم، عن اندفاع روحي، وخضوع نفسي، وإذعان إرادي، تحقيقاً لأهداف السلامة، وغايات الإرشاد المخلص. ومع ذلك كان الرهبان في الواقع يرضخون لهذا الأمر في كثير من الأحيان، كما برهنت التجربة على ذلك رضوخاً لا يشتمل على كثير من الصدق، ويسلِّمون به تسليماً فيه مذلة مصطنعة وخشوع مفتعل. على أن القدامى والحكماء من أفراد هذه الرهبنة كانوا يصرون على رأيهم، فهم يرون أن «من دخل الدير نشداناً للخلاص والسلامة بنية صادقة فلا بد أن يجني فائدة روحية وأخلاقية كبرى من مراعاة هذه القواعد أو الكفارات المختلفة، وأن التقيد بهذه القواعد والكفارات لا بد أن يعود عليهم بنفع عظيم على طريق الخلاص، وأن أولئك الذين تثقل هذه الأمور عليهم ويتذمرون منها، ليسوا برهبان حقاً، وما كان ينبغي لهم أن يدخلوا الدير، لأن المكان الذي خلقوا له إنما هو الدنيا؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن يفلتوا من الخطيئة ولا أن ينجوا من الشيطان لا في الدنيا ولا في الكنيسة على السواء، فلا مجال والحالة لقولك إن هذا الاعتراف اليومي يحض على الخطيئة».

أسرَّ الأب بائيسي إلى أليوشا بعد أن باركه، قائلاً بصوت خافت:

- إنه ضعيف جداً قد سيطر عليه الوسن فيصعب إيقاظه، والأولى أن لا يوقظ على كل حال. لقد فتح عينيه خمس دقائق، ورجانا أن نبلغ الرهبان بركته وأن نطلب منهم أن يصلُّوا في الليل من أجله. وفي نيته أن يتناول القربان المقدس غداً مرة أخرى. وقد تذكّرك يا ألكسي، وأراد أن يعرف هل ذهبت، فأجبناه بأنك مضيت إلى المدينة، فقال: «لقد باركته من أجل أن يمضي إلى المدينة، فهناك مكانه الآن لا هنا». ذلك ما قاله عنك. وكان يتكلم عنك بمحبة واضحة، وكان ظاهراً أنه مهتم بمصيرك اهتماماً كبيراً. فهل تدرك هذا الشرف الذي تناله؟ ولكني أتساءل لماذا أمرك أن تعيش في الدنيا زمناً؟ معنى ذلك أنه يتنبأ بشيء عن قدرك! اعلم مع ذلك يا ألكسي أن غاية عودتك، إذا عدت إلى الدنيا، يجب أن تكون العيش بروح الخضوع للقاعدة التي ألزمك بها شيخك، لا العيش في جو الأفكار الطائشة والمباهج المبتذلة.

وخرج الأب بائيسي. فأما إن الشيخ بسبيل الانطفاء، فذلك أمر أصبح أليوشا لا يشك فيه، ولكن الشيخ يمكن أن يعيش يوماً أو يومين. لذلك قرر أليوشا، بصلابة وحرارة أن لا يبارح الدير في الغد رغم الوعود التي قطعها على نفسه بالذهاب إلى أبيه، وبالذهاب إلى السيدتين خوخلاكوفا، الأم وابنتها، وبالذهاب إلى كاترينا إيفانوفنا، وكذلك رغم القرار الذي اتخذه هو نفسه بالذهاب إلى أخيه دمتري. فلن يترك الدير، وإنما يظل قرب شيخه حتى موته. وامتلأ قلبه بحب قوي للشيخ، ولام نفسه لوماً مراً على أنه في أثناء زيارته للمدينة قد نسي، ولو لحظة واحدة، ذلك الإنسان الذي تركه في الدير بين يدي الموت، والذي يحترمه أكثر مما يحترم أي إنسان في هذا العالم. ودخل أليوشا غرفة نوم

الشيخ، فجثا على ركبتيه، وسجد أمام الشيخ النائم. كان الشيخ يرقد ساجياً بلا حركة، وكان تنفسه الضعيف جداً يجري مطرداً منتظماً، رغم انه لا يكاد يدرَك. وكان وجهه ساكناً هادئاً.

فلما عاد أليوشا إلى الغرفة الأخرى - وهي الغرفة التي استقبل فيها الشيخ ضيوفه صباحاً - اضطجع، دون أن ينضو عنه ملابسه، وبعد أن خلع حذاءيه وحدهما، اضطجع على الديوان الصغير الضيق الصلب، المنجَّد بالجلد، الذي اعتاد منذ زمن طويل أن ينام عليه كل ليلة. كان أليوشا يكتفي بأن يضع تحت رأسه وسادة، مستغنياً منذ مدة طويلة عن وضع الفراش الذي كلمه أبوه عنه. وكان يكتفي بأن يخلع عنه ثوب الراهب ليتخذ منه غطاء يلتحفه. ومع ذلك جثا أليوشا على ركبتيه قبل أن ينام، ولبث يصلي زمناً طويلاً. لم يدعُ الله في صلاته الحارة أن يهديه في اضطرابه لأن ظمأه الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذي عرفه من قبل والذي كان يغزو نفسه دائماً بعد تلاوة الآيات التي تمجد الله... فتلك هي صلاة الليل كلها عادةً... إن الفرح الذي يغمر قلبه في تلك اللحظات كان يكفل له نوماً هادئاً مريحاً. وأنه ليصلي في ذلك المساء إذا هو يحس فجأة بوجود ذلك الظرف الصغير الوردي الذي أعطته إياه خادم كاترينا إيفانوفنا حين أدركته في الشارع. فاضطرب أليوشا، ولكنه أكمل صلاته، حتى إذا فرغ منها، فض الظرف بعد لحظات من تردد، ونظر إلى ذيل الرسالة فإذا هو يقرأ توقيع ليزا، بنت السيدة خوخلاكوفا، الصبية الصغيرة التي سخرت منه ذلك السخر كله في الصباح بحضور الشيخ. وأخذ أليوشا يقرأ رسالتها إليه:

«ألكسي فيدوروفتش! أكتب إليك خفيةً، على غير علم من الجميع، ومن أمي أيضاً، وذلك عيب، أنا أعرف ذلك. ولكن أصبح

يستحيل عليَّ أن أعيش دون أن أبوح لك بما وُلد في قلبي، ودون أن أطلعك على العاطفة التي تنتابين وهو ما يجب أن يجهله جميع الناس الآن، إلا نحن الاثنين. ولكن كيف أتدبر الأمر لأقول لك ما أتحرق شوقاً إلى قوله؟ يقال إن الورق لا يمكن أن يحمر خجلاً وحياءً. . . ولكنني أؤكد لك أن هذا القول خطأ، لأن الورق يحمرُّ الآن أمامي مثلما أحمرُّ أنا! عزيزي أليوشا، إنني أحبك، أحبك منذ طفولتي، منذ سني موسكو التي كنتَ فيها مختلفاً عنك الآن اختلافاً كبيراً. لقد أحببتك وسأحبك مدى عمري. اختارك قلبي لأشاطرك الحياة كلها، ولنختم أيامنا معاً في الشيخوخة. شريطة أن تترك الدير طبعاً، أما عن السن، فإن في وسعنا أن ننتظر المدة التي يقتضيها القانون. وإلى أن يحين ذلك الأوان أكون أنا قد شفيت من مرضي شفاءً كاملاً، فأستطيع أن أمشي وأن أرقص. ذلك أمر لا ريب فيه.

ها أنت ذا ترى أنني فكرت في كل شيء. ومع ذلك هناك نقطة عجزت عن أن أستجمع فيها شتات فكري: ما عسى أن يكون رأيك فيَّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة؟ أنا صبية «شيطانة» أُكثر من الضحك عادةً، حتى لقد أغضبتك في هذا الصباح. ولكنني أحلف لك أنني صليت منذ قليل أمام إيقونة العذراء المقدسة قبل أن أقرر الكتابة إليك، وإنني لأصلي حتى هذه الدقيقة، وأوشك أن أبكي!

هذا سري وضعته بين يديك. وإني لأتساءل كيف سأستطيع أن أنظر إليك غداً حين تجيء؟ أوه! ألكسي فيدوروفتش! ما عسى يحدث إذا أنا لم أملك أن أسيطر على نفسي فإذا أنا الحمقاء أنفجر ضاحكةً مقهقهة حين أراك. كما حدث لي هذا من قبل. لسوف تظنني عندئذٍ فتاة خبيثة ساخرة، ولن تصدّق عندئذٍ ما عبّرت لك عنه في رسالتي. لذلك أضرع إليك، يا صديقي العزيز، إذا كنت ترحمني بعض الرحمة

أن لا تنظر إلى عينيَّ كثيراً حين تجيء إلينا غداً، ذلك أنني قد يتملكني ضحك لا سبيل إلى مغالبته متى التقى نظري بنظرك، ولا سيما بسبب هذا الثوب الطويل التي ترتديه... حتى في هذه اللحظة، أشعر برعدة تسري في جسمي حين أتصور أن من الممكن أن يحدث شيء من ذلك. أستحلفك أن لا تنظر إليّ البتة، خلال مدة من الوقت، حين تجيء إلينا غداً، وإنما تلتفت بنظرك نحو أمي أو نحو النافذة...

ها أنذا كتبت إليك رسالة حب، رباه، ما هذا الذي فعلته؟ آه يا أليوشا، لا تحتقرني! إذا كان ما أفعله مشيناً جداً وإذا كنت أحدث لك ضيقاً وألماً فاغفر لي! واعلم على كل حال أن سري الذي قد يضيِّع سمعتي - ربما إلى الأبد - هو الآن بين يديك.

سأبكي في هذا اليوم حتماً. وإلى اللقاء، بانتظار المقابلة المرعبة في الغد. ليزا.

حاشية: أليوشا، يجب أن تأتي قطعاً، قطعاً، قطعاً! ليزا!».

قرأ أليوشا الرسالة مدهوشاً، وأعاد قراءتها مرتين، ثم فكَّر قليلاً، فإذا هو يضحك فجأة بغير صوت، شاعراً بسعادة ثم إذا هو يرتعد بعد ذلك حين تصور أن هذا الضحك قد يكون إثماً. ولكنه عاد يضحك ضحكاً هادئاً بعد لحظة، وقد غمرته تلك الهناءة الهادئة نفسها. وطوى الرسالة ببطء، وأعادها إلى الظرف، ورسم على نفسه إشارة الصليب، ورقد. وفجأة زال من نفسه كل اضطراب. «اللّهم اشملهم برحمتك، اشمل برحمتك جميع أولئك الذين لقيتهم في هذا النهار، لأنهم أشقياء، لأن العاصفة تُهَمْهم في نفوسهم. اللّهم احرسهم وسدِّد خطاهم! أنت سيد المصائر، وإن لك طرقاً فأنقذهم يا رب بطرقك. أرسل إليهم السعادة لأنك أنت المحبة»!

بهذا تمتم أليوشا وهو يرسم إشارة الصليب، ثم نام نوماً هادئاً.

حواش

(1) آنا جريجوريفنا دوستويفسكايا (اسم عائلتها قبل الزواج: سنيتكينا) 1864 - 1918، هي زوجة دوستويفسكي الثانية. تزوج منها عام 1867.

((2) «الحق، الحق أقول لكم...»: يرى بعضهم أن تصدير دوستويفسكي كتابه بهذه الآية من الإنجيل يعبر عن اقتناع دوستويفسكي بأن النفس الإنسانية (والنفس الروسية) لن تبعث بعثاً جديداً إلا بعد أن تجتاز أزمة عميقة.

(3) إن اسم كارامازوف، كغيره من أسماء بعض الأسر النبيلة، يرجع إلى أصل تتري. ولكن بعض النقاد يرون أن اختيار دوستويفسكي هذا الاسم لأبطال روايته قد تأثر خاصة باسم دمتري كاراكوزوف، الثوري الذي حاول يوم 4 نيسان (إبريل) 1866 اغتيال القيصر الإسكندر الثاني بينما كان القيصر يتنزه في حديقة الصيف. ويقال إن دوستويفسكي قد هزته كثيراً محاولة الاغتيال هذه. ويشير آخرون إلى أن كلمة كارا (قره) تعني في اللغة التترية: الأسود، ويرون في ذلك رمزاً.

(4) يشير الناقد إلى أن معنى ذلك أن دوستويفسكي يضع أحداث رواية «الأخوة كارامازوف» في خريف 1866، وبذلك يكون قد أخطأ في الحساب حين أشار في الفصل الثامن من الباب الثاني من هذه الرواية إلى مقتل فون سون الذي وقع في نهاية سنة 1869.

(5) «... إن تشبه أوفيليا: الإشارة إلى أوفيليا بطلة مسرحية «هملت» للشاعر والمسرحي الإنجليزي وليام شكسبير (1564 - 1616) تقترن هنا بفكرة تحرير المرأة وتشير إلى الطابع الغربي لهذه الفكرة.

(6) «ثمرة مؤثرات غريبة وخيال مسحور...»: استشهاد غير دقيق ببيت من قصيدة «لا تصدق نفسك» (1839) للشاعر الروسي ميخائيل ليرمنتوف (1814 - 1841).

(7) ميتيا» تصغير اسم دمتري، تحبباً.

(8) بيير جوزيف برودون (1809 - 1865) اقتصادي وعالم اجتماع فرنسي من الاشتراكيين الطوباويين ذوي النزعة الفوضوية. وميخائيل ألكسندروفتش باكونين (1814 - 1876) ثوري روسي من الثوريين الشعبيين، وأحد مؤسسي المذهب الفوضوي (الفوضوية).

(9) «الأيام الثلاثة الأولى من ثورة شباط (فبراير) 1848»: هي الأيام التي تمتد من 22 إلى 24 فبراير، والتي أدت إلى تنازل لويس فيليب عن العرش.

(10) «يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر في ذلك العصر بألف نفس»: ألف نفس، أي ألف قن، وهذا يدعو إلى افتراض أن الأراضي المملوكة تزيد على عشرة آلاف هكتار.

(11) حسب القوانين الروسية يعتبر الشخص قد بلغ سن الرشد عندما يبلغ عمره الحادية والعشرين.

(12) «كليكوشي: الكلمة مشتقة من فعل كليكات الروسي ومعناه صرخ، وهو اسم يطلق على النساء الهستيريات اللواتي يصرهن كأن بهن مساً من جن.

(13) ظهرت هذه المسألة عام 1864 ارتباطاً بالإصلاح القضائي العام. وقد نشب جدال حامي الوطيس على صفحات الجرائد والمجلات واستمر سنوات عديدة حول إصلاح المحاكم الدينية (الكنسية). وقد أصر أنصار العلمانية على دعم الأسس الحكومية (الدولة) في النظام القضائي الكنسي القادم، بينما نادى الآخرون (أنصار الكنيسة) بضرورة إخضاع هذه المحاكم كلية لرجال الدين.

(14) «الشيخ»: بالروسية «ستارتس»، وهو اسم يطلق تعظيماً وتبجيلاً على الرهبان الطاعنين في السن. أما العجوز العادي فاسمه بالروسية «ستاريك».

(15) «الشيخ زوسيما»: إن هذه الشخصية تذّكر بشخصية الشيخ أمفروسي الذي زاره دوستويفكسي في أوبتينا سنة 1878، ولكن دوستويفسكي قد استوحي أيضاً كتاباً بعنوان: «حياة الشيخ الراهب زوسيما وأعمال المجيدة»، وقد نشر هذا الكتاب في موسكو سنة 1860، إن هذا الراهب (1767 - 1835) هو ابن حاكم مقاطعة سمولنسك المسمى فرخوفسكوي، وقد كان في شبابه ضابطاً في حرس القيصرة كاترين الثانية، ثم ترَهّب وأصبح شيخاً يعيش حياة نسك قاسية. وقد جمع أحد مريديه أقواله ومواعظه ونشرها، فاستخدمها دوستويفسكي في إعداد الباب السادس من روايته «الأخوة كارمازوف».

(16) لا بد إذن من اختراعها (بالفرنسية في الأصل).

(17) «هذه... من أجلي أنا خاصة...»: تحوير لعبارة فولتير (1694 - 1778) الشهيرة: «لو لم يكن هناك إله لوجب اختراعه»
(«Si dieu n'existait pas, il faudrait l'inventer»).

(18) «رأيت طيف حوذى كان ينظف طيف عربة بطيف فرشاة». (بالفرنسية في الأصل).
J'ai vu l'ombre d'un cocher, qui avec l'ombre d'une bross frottait l'ombre d'une carrosse

عرض بتصرف لمقطع من النشيد السادس من «الألياذة المزورة» وقد نشرها سنة 1643 الأخوة شارل ونيقولا وكلود بيرو وصديقهم بورين.

(19) «أعلن الرسول توما...» : إن ما يذكر عن هذا الرسول من عدم تسرعه في التصديق قد أشير إليه في إنجيل يوحنا (الإصحاح العشرون، 24 - 29).

(20) إنجيل متى - الإصحاح التاسع عشر، 21.

(21) «... بعد سقوط القسطنطينة...»: سقطت القسطنطينية (استنبول حالياً) في يد السلطان التركي محمد الثاني في عام 1453.

(22) بائيسي فيليتشكوفسكي (فيليتشكوفسكي بيوتر إيفانوفيتش - 1722 - 1794): ناسك يرجع أصله إلى أوكرانيا، كان راهباً في جبل أثوس، وفالاشيا، ومولدافيا، وهو الذي أدخل نظام «المشايخ» إلى روسيا، ترجم كتب إسحاق السوري وتيودور ستوديت. وقد نشرت مؤلفاته سنة 1847.

(23) كوزلسكايا أوبتينا، منسك أوبتا: دير يقع بقرب كوزلسك في مقاطعة كالوجا. ووفقاً للأسطورة أنشأه في القرن الرابع عشر رجل من قطاع الطرق تائب، اسمه أوبتا، وقد اشتهر هذا الدير في القرن التاسع عشر بتقوى رهبانه. وزاره دوستويفسكي في شهر حزيران (يونيه) سنة 1878 بصحبة المؤرخ الشاب فلاديمير سولوفييف (1853 - 1900) بعد موت ابنه أليوشا. وكان في هذا الدير الشيخ أمفروسي، الذي اتخذه دوستويفسكي نموذجاً للشيخ زوسيما في هذه الرواية.

(24) إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني عشر، 14.

(25) إنه فارس حقيقي! (بالفرنسية في الأصل).

(26) ... إنه يذكرني بفون سون...: نظرت محكمة بطرسبرج في مارس 1870 في قضية قتل شخص يدعى فون سون. وقد استدرج هذا الشخص إلى إحدى

الحانات في وسط بطرسبرج، حيث دسوا له السم ثم قتلوه بوحشية ونهبوه.

(27) «لكل دير قواعد...»: هناك مثل روسي يقول: «لا تذهب إلى دير أجنبي لتفرض عليه قواعدك أنت».

(28) «... يرجع تاريخها إلى عهد سابق على الانشقاق...»: الانشقاق (العقيدة القديمة، الطقوسية القديمة) هو اتجاه ظهر في الكنيسة الروسية في أواسط القرن السابع عشر كاحتجاج على «البدع» التي أدخلها البطريرك نيكون (1605 – 1681) وتمثلت في تصحيح الكتب الدينية وبعض الطقوس والأعراف الكنسية.

(29) أم الرب المحزونة (باللاتينية في الأصل).

(30) «دقة المواعيد هي أدب الملوك ...»: عبارة شهيرة للملك لويس الثامن عشر ملك فرنسا (1814 – 1824).

(31) رئيس الشرطة.

(32) «هلا تنازلت يا سيدي الإيسبرافنك، فكنت لنا نابرافنك...»: ها هنا لعب لفظي على كلمتي إيسبرافنك ونابرافنك، فأما كلمة إيسبرافنك التي يسمى بها رئيس الشرطة فهي مشتقة من فعل إيسبرافيت ومعناه أدّب أو عاقِب، وأما نابرافنك فهو اسم ادوارد نابرافنك (1839 – 1916) رئيس الأوركسترا الشهير في دار الأوبرا الكبرى بمدينة سان بطرسبرج منذ سنة 1869، وهو من أصل تشيكي، وقد شاءت المصادفة أن يكون اسمه هذا مشتقاً من فعل نابرافيت ومعناه: وجه، أدار، أصلح.

(33) «... هذا الفيلسوف... قد جاء يوماً إلى المطران أفلاطون في عهد الأمبراطورة ايكاترينا...» ديديروت هو الكاتب والفيلسوف المادي الفرنسيديني ديدرو (1713 – 1784). وأفلاطون (بيوتر يجوروفتش ليفشين) هو مطران موسكو (1737 – 1812)، واعظ مشهور وكاتب كنسي ورجل دين. وإيكاترينا الثانية، هي الإمبراطورة الروسية التي تولت العرش عام 1762.

(34) «إيكاترينا رومانوفنا داشكوفا (1743 – 1810)، أميرة روسية لعبت دوراً أساسياً في انقلاب القصر الذي أوصل إيكاترينا الثانية إلى العرش الإمبراطوري عام 1762. وأصبحت داشكوفا في عهد إيكاترينا الثانية رئيساً لأكاديمية العلوم الروسية، والتقت بالفيلسوف الفرنسي ديدرو. أما بوتيومكين جريجوري الكسندروفتش (1739 – 1791) فرجل دولة وعسكري روسي كان حظي إيكاترينا الثانية.

(35) «طوبى للبطن الذي حملك، والثديين اللذين رضعتهما»: كلام قالته امرأة من الشعب ليسوع المسيح (إنجيل لوقا، الإصحاح الحادي عشر، 27).

(36) «يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟»: كلام قاله ناموسي يجرب يسوع المسيح (إنجيل لوقا، الإصحاح العاشر، 25).

(37) «هل صحيح أن كتاب سير الشهداء.. يروي قصة قديس... قطعوا رأسه.. فتناوله من الأرض..»: هذه القصة لا وجود لها في كتاب سير الشهداء الروسي، وإنما هي تحكي عن الشهيد الكاثوليكي ديونيسي، أسقف باريس، وهي رائجة جداً في فرنسا. ويحتوي كتاب السير على وصف لسير القديسين موزعة على أيام وشهور السنة ومواعظ للسنة كلها. وقد صيغت هذه السير تدريجياً وجرى تنقيحها مراراً.

(38) ناستاسيوشكا: تصغير اسم ناستاسيا، ويستعمل تحبباً.

(39) «ثلاثة أعوام إلا ثلاثة أشهر»: في هذه السن تماماً مات أليوشا ابن دوستويفسكي. وقد كتبت أرملة دستويفسكي تقول: «هذه ثمرة تأثر فيدور ميخائيلوفتش بموت ابننا أليوشا الذي مات سنة 1878 وعمره ثلاثة أعوام إلا ثلاثة أشهر. ففي تلك السنة إنما شرع فيدور ميخائيلوفتش في كتابة الرواية».

(40) نيكيتوشكا: تصغير اسم نيكيتا ويستعمل تحبباً.

(41) «هذه راشيل... تبكي صغارها...»: تروي زوجة دوستويفسكي أن هذه الكلمات هي الكلمات التي وجهها الشيخ أمفروسي إلى دوستويفسكي محاولاً مواساته بسبب موت ابنه.

(42) «سأذكره في صلواتي»: علقت زوجة دوستويفسكي على ذلك قائلة: إن فيدور ميخائيلوفتش قد نقل إلي أقوال الشيخ هذه حين عاد من أوبتينا بعد حديثه مع أمفروسي ووصفه له مدى ما نعانيه من لوعة لموت ابننا.

(43) النص في إنجيل لوقا (الإصحاح الخامس عشر، 7) كما يلي: «أقول لكم إنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة».

(44) «أوبدورسك»: مدينة صغيرة في أقصى شمال سيبيريا الغربية، مدينة ساليخارد الحالية.

(45) «ما يبقى إلا قليل من العشب على قبري، كما قرأت هذا الكلام لكاتب من الكتاب»...: الإشارة هنا إلى عبارة بازاروف بطل رواية «الآباء والبنون» (1862) للكاتب الروسي إيفان تورجينيف.

(46) « كان أحد رجال الدين قد نشر كتاباً ضخماً في هذه المسألة»: إن أستاذاً في القانون الكنسي هو الراهب ميخائيل جورتشاكوف قد نشر كتاباً عنوانه: «بحث في الأسس العلمية للقضاء الإكليركي»، وكانت مكتبة دوستويفسكي تضم هذا الكتاب.

(47) «ولكن هذا ليس إلا عقيدة اولترامونتانية!... أما نحن فليس لدنيا حتى جبال!..»: التلاعب اللفظي قائم على أساس أن كلمة «أولترامونتانية» (من اللاتينية (Ultra ,montis تعني: ما وراء الجبال، أي في روما. وقد ظهرت هذه العقيدة في الكنيسة الكاثوليكية في القرن الخامس عشر. وسعى أنصار هذه العقيدة إلى إخضاع الكنيسة كلية لبابا روما ودافعوا عن حقه في التدخل في الشؤون الدنيوية لأي دولة. وفي القرن التاسع عشر انتشرت العقيدة الأولترامونتانية كمقابل رجعي للحركة الثورية.

(48) «وليس هذا هو المقصود إطلاقاً من التعبير «ليست من هذا العالم» الوارد في الإنجيل المقدس»: المقصود هنا ما قاله المسيح لبيلاطس البنطي: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود ولكن الآن ليست مملكتي من هنا». (إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن عشر، 36).

(49) أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية في بداية القرن الرابع الميلادي. ففي عام 325 عقد المجمع المسكوني الأول في مدينة نيقيا الذي أعلن «قانون الإيمان» وهو مجموعة العقائد وثوابت الدين المسيحي وصاغ التحالف بين الكنيسة وسلطة الدولة الدنيوية حيث أعلن الإمبراطور قسطنطين الأول رئيساً للكنيسة وظلاً للمسيح على الأرض.

(50) الإقليم البابوي أو الكنسي (وعاصمته روما) نشأ عام 756 على شكل دولة ثيوقراطية مستقلة، واستمرت حتى عام 1870.

(51) البابا جريجوري السابع، بابا روما في الفترة من 1073 إلى 1805، كان يعتبر سلطة البابا سلطة مطلقة، وحاول وضع نفسه وخلفائه على رأس السلطتين الدينية والدنيوية.

(52) ... بُعَيْدَ الانقلاب الذي وقع في شهر ديسمبر...: المقصود هنا الانقلاب الذي قام به لويس بونابرت (1808 - 1873) في 2 ديسمبر 1851 فأعلن نفسه إمبراطوراً.

(53) «باتيوشكا»: بهذا اللقب ينادي رب الأسرة والكهنة وغيرهم من الأشخاص المحترمين، من باب الملاطفة.

(54) كلمات الشيخ هذه تجمع في نص واحد مقطعين مختلفين من رسالتي بولس الرسول: «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق... اهتموا بما فوق لا بما على الأرض» (الرسالة إل أهل كولوسي، الإصحاح الثالث، 1- 2).
«الآن كثيرين... هم أعداء صليب المسيح الذين نهايتهم الهلاك الذي إلههم بطنهم ومجدهم في خزيهم، الذين يفتكرون في الأرضيات، فإن سيرتنا نحن في السموات...». (الرسالة إلى أهل فيلبي، الإصحاح الثالث 18 - 20).

(55) تلعب مأساة «قطاع الطرق» (1781) للشاعر والمسرحي الألماني يوهان فريدريك شيللر (1759 - 1805) دوراً هاماً في رواية «الأخوة كارامازوف». وقد كتب دوستويفسكي في رسالة بتاريخ 18 أغسطس 1880: «إن الانطباعات عن الجمال هي لا غنى عنها في الطفولة بالذات. لقد كنت في العاشرة من عمري عندما شاهدت في موسكو مسرحية «قطاع الطرق» لشيللر... وإني لأؤكد لكم أن الانطباعات القوية التي خرجت بها آنذاك قد أثرت عل الجانب الروحي فيَّ تأثيراً خصباً للغاية». وكانت لدى دوستويفسكي ترجمة لـ «قطاع الطرق» قام بها أخوه ميخائيل ميخائيلوفتش. إن فيدور بافلوفتش يطلق عل إيفان لقب: كارل مور النبيل، أما ديمتري فيسميه فرانتسي مور الخبيث وقد أثبتت الأحداث التالية خطأ ظنه، لأن إيفان بالذات، مثل فرانتس مور، هو الذي لعب دوراً غادراً تجاه أبيه وأخيه.

(56) الكونت فون مور الحاكم! (بالألمانية في الأصل).

(57) أدخل وسام القديسة آنّا في عداد الأوسمة الروسية في عام 1798. وفي عام 1855 أضيف إليه، كما لغيره من الأوسمة الممنوحة مقابل الخدمات العسكرية، سيفان متقاطعان.

(58) «المسيح نفسه قد غفر للمرأة التي أحبت كثيراً»: إشارة إل غفران المسيح للخاطئة «من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً» (إنجيل لوقا، الإصحاح السابع، 47).

(59) «سفياتسي»: سجل بأسماء القديسين المسيحيين والأعياد الكنسية موزعة على شهور السنة الاثني عشر. ومن المستحيل إثبات صلة القرابة عن طريقها.

(60) «جروشنكا»: لقب ملاطفة، مشتق من اسم آجرافينا تصغيراً.

(61) ... إن شاعرنا بوشكين... قد مجد ساقيها الصغيرتين في شعره...: في

قصيدة بوشكين «مدينة فخمة، مدينة فقيرة» (1828) يقول الشاعر: «لأن ساقها الصغيرة، تخطو هنا أحياناً، وخصلة ذهبية تطير».

(62) «كاتننكا»: تصغير اسم كاتيا (كاترينا) تودداً وملاطفة.

(63) قرب جسر كامني الذي سيقام فيما يقال على نهر نيفا في بطرسبرج...: المقصود جسر ليتيني، ثاني جسر دائم يقام على النيفا في بطرسبرج، وجرى تشييده في 1875 - 1879.

(64) كان الرهبان الروس لا يأكلون اللحم أبداً.

(65) الراقصة الداعرة...: المقصود ابنة الملك هيرودس التي طلبت من أبيها أن يقدم لها رأس يوحنا المعمدان مكافأة على رقصتها.

(66) «ملة الخليستي»: إحدى الفرق الدينية التي ظهرت في روسيا في القرن السابع عشر، وكانت من أشد الفرق الدينية ظلامية وإغراقاً في التعصب.

(67) «قبلة على الشفتين وطعنة في القلب»: كلمات كارل مور في المشهد الثاني من مسرحية شيللر «قطاع الطرق».

(68) ... شراب العسل اللذيذ الذي يباع في متجر يليسييف...: الأخوة يليسييف: من كبار تجار الخمور ومالكي المتاجر والمستودعات. وكانت شركة يليسييف في عداد أولى الشركات في روسيا من حيث جودة الخمور.

(69) أثقلتموني باللعنات في جميع مجالسكم السبعة...: من بين المجامع المسكونية (اجتماعات ائمة رجال الدين المسيحي) لا تعترف الكنيسة الأرثوذكسية سوى بالمجامع السبعة الأولى التي عقدت قبل انقسام الكنائس (1054) وابتداء من المجمع الأول كانت اللعنات والإدانة تصب على أحد ما في كل مجمع تقريباً.

(70) «فانيا»: تصغير اسم إيفان.

(71) ... تغني أغنية «في المروج»: أغنية شعبية راقصة ترجو فيها فتاة شابة من أبيها إلا يزوجها من زوج عجوز (وفي روايات أخرى من زوج شاب) بل من «قرينها».

(72) «إسحاق السوري» ناسك عاش في القرن 17، جُمعت مجموعة من مواعظه سنة 1858 في موسكو. وكان هذا الكتاب في مكتبة دوستويفسكي.

(73) «ليزافيتا سمردياشايا»: اسم مشتق من فعل سمرديت، ومعناه النتنة. وقد روى أخو دوستويفسكي الأصغر (وهو أندري دوستويفسكي) في مذكراته التي نشرت سنة 1930 أن امرأة معتوهة اسمها أجرافينا كانت تسكن في أراضي

أبيهما أيام شبابهما: «كان عمرها 20 - 25 سنة. وكانت قليلة الكلام، فإذا تكلمت تكلمت كارهة على مضض، وقالت كلاماً غامضاً مفككاً. فإذا سمع السامع ما تقول فهم إنها تتذكر ابنها المدفون في المقبرة. ويظهر أنها كانت معتوهة منذ ولادتها، وقد اغتصبت فولدت ولداً مات في سن مبكرة. فحين قرأت قصة ليزافيتا في رواية «الأخوة كارامازوف» تذكرت تلك المرأة المعتوهة أجرافينا».

(74) «بورودیفانا»: اسم يطلقه الناس على بعض ضعاف العقول ممّن يعدّون «مجذوبين إلى الله».

(75) «إن مدينتنا مبعثرة جداً...»: إن دوستويفسكي يسمي هذه المدينة في روايته بهذا الاسم الساخر: سكوتو بريجونيفسك المنحوت من كلمتين (قاد - بهائم). وفي المسودات يسميها توبولسك، وفي رأي زوجة دوستويفسكي أنه وصف ستارايا روسا، تلك المدينة الصغيرة الهادئة الوادعة، بأقنيتها، وحفرها وحديقتها ذات الأسيجة الخشبية.

(76) هذان الشطران هما من نظم دمتري نفسه، وسينشدهما مرة أخرى (الجزء الثاني، الباب الثامن، الفصل الخامس).

(77) أبيات من قصيدة «من ظلمات الضلال» (1846) للشاعر الروسي نيقولاي نيكراسوف (1821 - 77/ 1878).

(78) ... كتلك السمكة الذهبية الصغيرة التي تروي الحكاية أنك أرسلتها إلى ذلك الصياد العجوز الغبي... الإشارة هنا إلى «حكاية الصياد والسمكة» (1833) للشاعر الروسي ألكسندر بوشكين.

(79) «كن نبيلاً يا أيها الإنسان»: مطلع قصيدة للشاعر والمفكر الألماني جوته (1749 - 1832). عنوانها: «الإلهي (Das Gottiche) وقد نظمها سنة 1783.

(80) «سيلين ذو الوجه المزهر...
قد أمتطي حماراً يتعثر»
الأبيات الختامية من قصيدة «باريلييف» (1842) للشاعر الروسي ابولون نيكولايفتش مايكون (1821 - 1897). وسيلين هو تابع باخوس إله الخمر والخصب في الأساطير الإغريقية.

(81) «سكان الكهوف الخائفون الوجلون»: إن دمتري لا يتلو هنا نشيد الفرح بل قصيدة أخرى للشاعر شيللر هي «عيد ايليئوزيس» (1798) في ترجمة روسية

قام بها ف. آ. جوكوفسكي (1783 - 1852) (الفقرات 2، 3، 4).

(82) «لا بد للإنسان...»: الشطر الأول من البيت السابع في قصيدة «عيد إيليثوزيس» في ترجمة جوكوفسكي.

(83) «روح العالم التي خلقها الله»: هاتان هما الفقرتان السابعة والخامسة من قصيدة شيللر الشهيرة «إلى الفرح» (1785) في الترجمة الروسية التي قام بها الشاعر الروسي فيدور تيوتشيف (1803 - 1873).

(84) ... زخرفات إضافية على طريقة بول دو كوك...: بول دو كوك (1793 - 1871) كاتب روايات فرنسي، له روايات ذات محتوى خليع.

(85) «الكوليبياكا»: فطائر بالسمك.

(86) «حمارة بلعام»: إن الأتان التي ركبها الرسول بلعام قد نطقت فجأة حين رأت ملاك الرب (التوراة، الإعداد 22، الآيات من 23 إلى 30).

(87) «أمسيات قرب قرية ديكانكا»: أول مجموعة قصص للأديب الروسي نيكولاي جوجول (1809 - 1852)، وقد صدرت عامي 1831 - 1832.

(88) «التاريخ العام» من تأليف سماراجدوف: هو موجز التاريخ العام للمدارس الابتدائية، طبع مراراً منذ سنة 1845.

(89) «ثلاث أوراق نقدية ملونة»: هي أوراق نقدية من فئة المائة روبل.

(90) هناك لوحة جميلة رسمها الرسام كرامسكوي...: إيفان نيكولايفتش كرامسكوي (1837 - 1887) هو مصور روسي من مؤسسي المدرسة الواقعية في التصوير. وقد عرضت لوحة «المتأمل» في معرض الصور السادس «لجمعية المعارض الفنية المتنقلة» في بطرسبرج من 9 مارس إلى 22 إبريل 1878. وقد رسم كرامسكوي صورة لدوستويفسكي وهو على فراش الموت.

(91) ... قد سمع قصة ذلك الجندي الروسي...: المقصود هنا هو فوما دانيلوف، صف الضابط بالكتيبة التركستانية الثانية الذي وقع في الأسر ولقي حتفه في 21 نوفمبر 1875.

(92) «... جاء في الكتاب المقدس أن الذي يملك الإيمان الحق»: تحوير لما ورد في الأناجيل: «الحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم» (إنجيل متى، الإصحاح السابع عشر، 20).

(93) «... ولكن الفلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم»: إن الإصلاح القضائي الذي صدر سنة 1864 قد ألغى العقوبات الجسدية في محاكم

الدولة، ولكنه تسامح في تطبيقها في محاكم القرى.

(94) هذه كلها قذارة خنازير (بالفرنسية في الأصل).

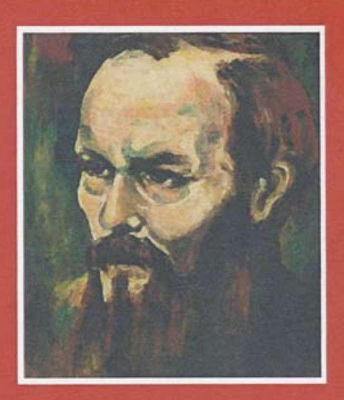
(95) المركيز دي ساد: هو الاسم المستعار للكاتب الفرنسي دوناسيين ألفونس فرنسوا، الكونت دي ساد (1740 - 1814)، صاحب المؤلفات التي تصور الفجور الارستقراطي والقسوة. وقد أصبح اسم دي ساد مضرب الأمثال.

(96) إن في داخله شيئاً من بيرون (بالفرنسية في الأصل).
أليكسيس بيرون (1689 - 1773): شاعر ومسرحي فرنسي اشتهر ككاتب فج.

(97) «آربنين»: إن الأب كارامازف، وهو قليل الحظ من الثقافة يخلط هنا بين بطل رواية الشاعر ليرمونتوف الشهيرة «بطل من هذا الزمان» (1840)، واسمه في الواقع هو بتشورين، وبين بطل مسرحية لهذا الشاعر نفسه عنوانها «التنكر» (صدرت لأول مرة في سنة 1842 بعد موت الشاعر)، وبطل هذه المسرحية هو الذي اسمه آربنين.

(98) «فانيا، أليوشا»: تصغير اسمي إيفان وألكسي.

(99) «لا تقل لايزوب كلمة واحدة»: إن دمتري يسمي أباه هنا باسم الشاعر اليوناني الشهير ايزوب في معرض الاحتقار، ومعروف أن هذا الشاعر قد ولد عبداً، وأنه كان دميم الوجه عيي اللسان أحدب.



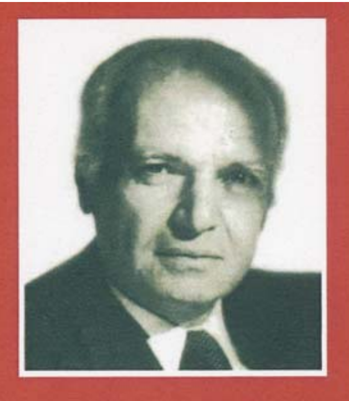
دوستويفسكي

ولد فيدور مخائيلو فتش دوستويفسكي في موسكو في ١١/١١/١٨٢١ من أسرة مطبّب في مشفى للفقراء.

أرسله أبوه لدراسة الهندسة في بطرسبرج ولكن شغفه بالشعر والأدب وإحساسه الرهف تجاه ألم وعذاب الناس، جعله يرى عدم كمال "هذا العالم" فكانت أولى رواياته هي "المساكين" عام ١٨٤٥.

اعتقل عام ١٨٤٩ بسبب انضمامه إلى جماعة من الاشتراكيين الطوباويين، وحكم عليه بالإعدام. لكن خُفّف هذا الحكم بطلب من الإمبراطور. ليطلق سراحه بعد ١٠ سنوات. ويؤسس بعدها مع أخيه ميخائيل مجلة "الوقت" ثم مجلة العصر. وينطلق في الكتابة ويضع أهم رواياته التي صارت معلماً في الأدب الروسي والعالمي وخاصة: الجريمة والعقاب، الأبله، المراهق ثم الأخوة كارامازوف.

توفي دوستويفسكي في ٩ شباط/ فبراير من عام ١٨٨١، ولكن أعماله التي تُقرأ وتُقرأ تجعله حاضراً دائماً.



سامي الدروبي

* أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
* ولد عام ١٩٢١ بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
* درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرةعام ١٩٦١.
* عمل مدرساًللفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ"سوريا" في جامعة الدول العربية.
* له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
* ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي مؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
* توفي عام ١٩٧٦، ومنح جائزة "لوتس" بعد المهات (١٩٧٨).

في عالم دوستويفسكي يتصارع الرحمن مع الشيطان، والخير مع الشرّ، والحقيقة مع الزيف... وكل ذلك في نفس الإنسان. هكذا هو الأمر على الأرض وفي السماء.. اليوم ومنذ ألف عام.

"ديمتري"، ضابط شاب، ليس مميزاً، بل على العكس، طائش، زير نساء، وسكّير. يقامر ويبذّر أموالاً هي أمانة عنده.. ولكن مع ذلك يعذّبه ضميره. يريد إعادة هذه الأموال وأمله معقود على مال والده.. والوالد، الذي يعيش على هواه، لن يعطيه ما يريد..

لكن يا لهذا الشقيّ! ففي هذا العربيد تحيا روح تعذّبه وتمزّقه. وهو يقول مخاطباً أخاه النّقيّ الورع "أليوشا": "رهيبٌ مصير الإنسان، شديدة آلامه.. ألا فلأكن ملعوناً، منحطاً، سافلاً.. ولكنني لئن اتّبعت الشيطان يا ربّ، فإنني أظلّ ابنك، وأحبك، وفي نفسي رغبة في إرضائك.."

وهذا حال الأخ الثالث "ألكسي"، الذي يعيش ذلك الصراع والقلق بين صورة براقة في الخارج ومظلمة في الداخل.

إن قراءة دوستويفسكي تتطلّب الإنصات والتأملّ.. وذلك من أجل الدخول إلى الروعة الكامنة في أعماق الوقائع، وفي أعماق نماذجه التي يقدّمها في هذه الرواية.. إنه يدفع الإنسان لأن يميّز بين الخير والشرّ مستلهماً حُكمَ قلبه، ويرى أنه من الأفضل أن نهب الله محبتنا أحراراً من أن ننصاع له عبيداً.

اللوحة وتصميم الغلاف: مروان قصّاب باشي



